التعاون

أعلام التصوف الإسلامي

الطبعة الثانية

أحمد أبو كف

29

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمي

الاسكندرية



أعلام التصوف الإسلامي

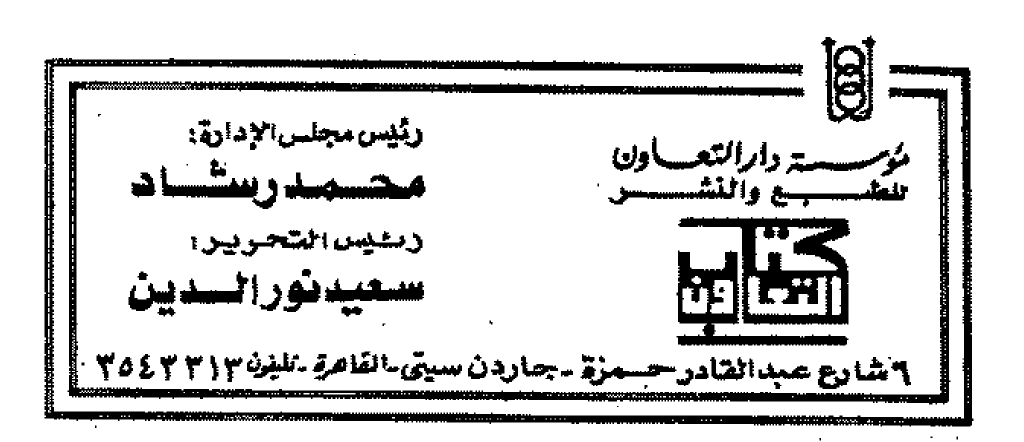
أحمد أبو كف

الغلاف :

الفنان : طلعت رزق

سكرتير التحرير التنفيذي :

نزيه عبد الغني



مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

كتاب التعاون

رئيس مجلس الإدارة:

محمد رشاد

رئيس التحرير:

سعيد نور الدين

٦ شارع عبد القادر حمزة - جاردن سيتي - القاهرة - تليفون ٣٥٤٣٣١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ... سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين .

اما بعد ...

فقد احترت كثيرا فى الكلمات التى اختارها ، تقديما لهذه الباقة المباركة من الاولياء المؤمنين .. الذى تناولتهم صفحات هذا الكتاب .

كما احترت ايضا فيما أضعه من عنوان لائق لهذا الكتاب .

وكانت هذه الحيرة فى تقديم الكتاب واختيار عنوانه .. بلا سبب .

ربما يكون السبب .. جلال هؤلاء الرجال وشدة إعجابى بحياتهم .. بعد ان قضيت الوقت الكثير معهم .. باحثا منقبا ، قاطعا المسافات .

أو ربما يكون السبب هو الخشية من الا أنصفهم بكلمات قليلة فى مقدمة قصيرة .. أو وضعهم بين دفتى غلاف كتاب لا يليق عنوانه بهم .

وربما يكون هذا ايضا .. نابعا من اقتناعى بأن الانسان مهما حاول بذل الجهد ـ خاصة فى هذه الظروف التى نعيشها ـ فإن هذا الجهد سيكون قاصرا فى سبيل الوصول الى الكمال لأن الكمال لله وحده .

هذه الشخصيات المباركة .. التى نقدمها بين دفتى هذا الكتاب كان لها من الاهمية ومن الاتباع بالملايين على مدار السنين والى أن يرث الله الارض ومن عليها . وهى شخصيات تجمعها سمات واحدة تقريبا مع اختلاف العصور والظروف والأساليب . لكنها فى واقع الأمر كلها نبعت من فيض غزير واحد ، واتجهت الى هدف واحد .. هو الجهاد فى سبيل الله ، وفى مرضاته . ونصرة دين الله .. على ضوء الكتاب والسنة .

وسبيل هذه الشخصيات الكريمة الى ذلك الجهاد ، ليس السيف أو البارود ، إنه جهاد بالعلم والتربية الاسلامية ، وتفقيه الناس فى أمور دينهم وتنويرهم .. ثم رفع راية العمل ، والعمل المستمر فى سبيل الانسان المسلم ووطنه الاسلامى .

ونحن أمة الاسلام والمسلمين .. نمر فى هذه الايام بظروف دقيقة ، تتشابه مع تلك الظروف التى شاهدت هؤلاء الرجال ، وشهدت جهادهم المتواصل فى سبيل الله . ولذلك فإن إلقاء الاضواء على هؤلاء الرجال ، وعلى فكرهم ، وظروف عصرهم .. لا ريب فيه عبرة .. يعتبر بها ابناء هذا الجيل فى الجهاد ضد أعداء أمة العروبة والاسلام .

إننا نحن ابناء هذا الجيل فى حاجة الى جهاد نفسى ، ومجاهدة أعداء أمة العروبة والإسلام . وهؤلاء الرجال جاهدوا ووقفوا حياتهم من أجل إعلاء كلمة الحق والعدل فى عالم الاسلام الواسع الشاسع .

ونحن الان فى حاجة إلى أن نعود الى تعاليم ديننا القويم ، وأن نتخلق بخلقه ، ونهتدى بهديه .. وأن نتنبه للتيارات التى تحاول النيل من عقيدة الاسلام .

وهم – فى الماضى – كان جهادهم الاكبر ينصب على العلم والعمل ونحن الآن نحاول بقدر الجهد أن نرفع لواء العلم والعمل .

والواقع .. فإن تراثنا الاسلامى ، الذى تكالب عليه الكثيرون يحتاج منا الى وقفة . يحتاج منا إلى أن نعود اليه ونستصفيه ، ونسترشد به .. بعد أن نكشف النقاب عن جواهر حضارتنا الاسلامية الزاهرة .

نحن بحاجة أن ندرس الماضى .. بعد أن نعود اليه ، لان من ليس له ماض ، ليس له حاضر ولا مستقبل . وليس هذا دعوة « سلفية » كما يقولون .. إن تراثنا مملوء بالكنوز التى لو استخرجناها وأحسنا استخدامها لاغنتنا عن الكثير . على أن استخدام الماضى أو الوقوف عنده لاينبغى أن يكون قيدا على مسيرتنا . وإنما يكون ركيزة صلبة نقف عليها لننطلق ، ونحن نستشرف آفاق القرن الواحد والعشرين .. وبعد سنوات صعبة عانينا فيها ، بفعل استعمار ثقافى وسياسى احسن تخطيطه المستعمرون .

إن أوربا الحديثة اكلت الكثير على موائدنا نحن العرب والمسلمين هم اغتصبوا أطايب موائدنا .. واتبعوا معنا سياسة التغريب عن قيمنا الاسلامية .

ونحن العرب والمسلمين ، بعد أن تخلصنا من استعمار بغيض .. فى حاجة الى ان نرسى دعائم العلم والإيمان ، الذى اظهر حضارتنا الاسلامية فى الماضى ..

وديننا القويم هو علم وايمان فى المقام الأول .

وهؤلاء الرجال الذين نقدمهم على صفحات الكتاب نماذج مشرقة لرجال العلم والايمان .

هؤلاء الرجال هم الذين وصفهم الامام « القشيرى » فى مقدمة الرسالة القشيرية بقوله :

« جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه ، صلوات الله عليهم ، وجعل قلوبهم معادن اسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع انواره ، فهم الغياث للخلق والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق » .

هؤلاء الرجال علنا نعتبر بهم .. وعل حياتهم تكون هاديا لنا وسط تلك الأنواء المتلاطمة التى تموج من حولنا .

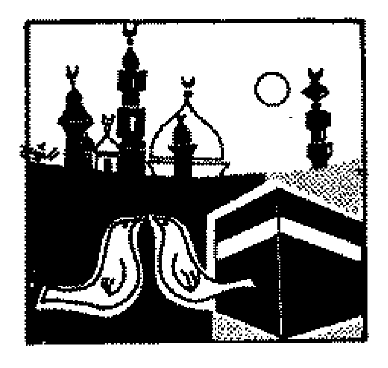
والله الموفق

أحمد أبو كف

أعلام
التصوف
الاسلامى

سيدى أحمد الرفاعى

رجل .. بعشرة
آلاف رجل



●● كانت تهتز اعصابه وترتعد فرائصه حين يسمع بكاء طفل يتيم وهذا شعور إنسان مسلم مؤمن ..

لكنه هو ايضا .. قد عاش هذا اليتم .. فقد مات أبوه وهو لايزال فى بطن امه .
فى « أم عبيدة » .. كانت ولادته .

وفى « ام عبيدة » إلتف حوله مائة وثمانون الف محب ومريد عيونهم على شفتيه ، يحفرون فى قلوبهم كل ما يخرج منهما ... فقد كان كلامه من نبع تجارب وعلـوم اسبغها الله على عبده المؤمن .

لقد جاهد نفسه .. والنفس دائما امارة بالسوء .. وتغلب على نفسه فقهرها .. وانصرف عما فى ايدى الخليقة ، واشتغل بالحقيقة .

هذا القادم من قرية صغيرة .. خطف ابصار علماء المدينة ، العاصمة .. فاعترفوا له بالرسالة .. وقالوا : إنه رجل بعشرة آلاف رجل .

كان يقول إن العلم الذى اعطيه .. لا اجر عليه .

وظل يعطى .. ويعطى .

وظل يعمل ويعمل الى آخر لحظة من حياته .

وحين تجمع عليه احباؤه ومريدوه .. كانت آخر كلماته لهم : لا تسبونى .

فتعجب تلامذته المخلصون وقـالوا : كيف نسبـك وانت إمامنـا ؟ فقال لهم : تقولون قولا لم اقله ، وتفعلون شيئا لم افعله .. إعملوا إن كل شىء خرج عن الكتاب والسنة ، فليس منا .

« اعلم ان مثل القلب كالقصر ، والمعرفة فيه كالسلطان ، والعقل امير على الاركان . والاركان له تبع واعوان . واللسان كالترجمان والسر من خزائن الرحمن .. ولابد لكل واحد منها من الاستقامة فى مواضعه ، ودوران على استقامة السر مع الحق . فاذا استقام السر مع الحق .. استقامت المعرفة ، فيستقيم العقل . وإذا استقام العقل

استقام القلب . وإذا استقام القلب استقامت النفس ، وإذا استقامت النفس إستقامت الأحوال .

والعقل منور بنور اليقظة والاعتبار .
والقلب منور بنور الخشية والافكار .
والنفس منورة بنور الرياضة والانزجار .

فالسر بحر من بحور العطايا ، وامواج الهمة فيه لا يحصى عددها ولا ينقطع مددها . وأن استقامة السر مع الحق ، هي الدوام على بساط المشاهدة مع فقد رؤية الاستقامة ، كما يقول سيدى الإمام الرفاعي .

في كتابي عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، المدفونين في ثرى مصر ، كتبت عن حياة القطب الصوفي سيدى « احمد البدوى » رضى الله عنه .

وذكرت أن سيدى « احمد البدوى » ، وهو في رحلة البحث عن الحقيقة ، أحس انه مشوق الى مزيد من علوم سيدى « احمد الرفاعي » خاصة ، واعلام الصوفية في العراق بصفة عامة ..

وقد أوردت رؤيا لسيدى « احمد البدوى » رآها في منامه على صورة خطاب من سيدى « أحمد الرفاعي » الى سيدى « احمد البدوى » ، يقول له فيه : « لا تنم .. فمن طلب المعالي لا ينام ، وحق آبائك الكرام ، سيكون لك حال ومقام »

ولقد شد الرحال ، سيدى « احمد البدوى » ، بعد هذه الرؤيا الى العراق ، في شهر ربيع الأول عام ٦٣٤ الهجرى . وكان وصوله اليها ، بعد وفاة سيدى « احمد الرفاعي » بحوالي نصف قرن من الزمان .. فقد توفى سيدى « احمد الرفاعي » عام ٥٨٧ الهجرى .

وفي العراق بدأ سيدى « احمد البدوى » بزيارة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقطاب الولاية المدفونين هناك . كما زار « الكاظمية » .. حيث مقابر الشيعة ، وفيها قبر جده الامام « موسى الكاظم » ، وحفيده الامام « محمد الجواد » رضى الله عنهما .

وبعدها .. قام سيدى « احمد البدوى » بزيارة قبور الجيلانى ، والحسين بن منصور الحلاج ، وعدى بن مسافر ، ومسى الزوالى .. وتاج العارفين ابى الوفا فى وادى لوسان ، حيث بات ليلة هناك .. ليرى فى منامه من يأمره بزيارة قرية « أم عبيدة » مركز الطريقة الرفاعية .

ولقد شد سيدى « احمد البدوى » الرحال الى هذه القرية .. ليستقبله هناك مريدو وخلفاء سيدى « أحمد الرفاعى » . وقد اقام « البدوى » فى رحاب سيدى « احمد الرفاعى » مدة ثلاثة أيام ، نهل فيها من علم الرفاعية ، ووقف على احوالهم ، ثم عاد الى بغداد .

وكان قبل أن يتوجه الى بغداد ، وكما يذكر المؤرخون ، قد توجه اليه النداء الباطنى ـ كما تقول الصوفية ـ من سيدى « احمد الرفاعى » ، يشير عليه بالذهاب إلى « فاطمة بنت برى » ، فى العشائر بشمال العراق .. كى يُقَوِّمَ سلوكها المعوج ويؤدبها ..!!

من تكون فاطمة بنت برى هذه ؟

إن هذه السيدة نسجت حولها عشرات القصص والروايات ، والفت فيها عشرات القصائد .. فقد كانت ، كما يصفها الإمام الشعرانى : **« امرأة لها حال عظيم ، وجمال بديع ، وكانت تسلب الرجال احوالهم ، فسلبها السيد البدوى ـ حالها » .**

وهذه السيدة ـ فاطمة بنت برى ـ بالإضافة الى جمالها ، ذات مال عظيم وكان الاختبار « الذى تمتحن به كل من يريد أن يتتلمذ عليها ـ ليسير فى طريقها ـ هو موضع الحسن الذى تتمتع به من نفسها فيقع فيها من يطيل النظر اليها ، وهنا لايصلح أن يكون صوفيا حقيقيا لأنه ضعيف القلب سريع التأثر . ويقال إنه قد تجمع حول « فاطمة بنت برى » قومها وانصارها يؤازرونها فى مسلكها الخاص . وكان هذا سبب الرؤيا للذهاب اليها من قبل سيدى «احمد البدوى » : « .. بيد أن حق الشرع لا يذهب جفاء ، فأشار قطبا التصريف ـ الرفاعى والجيلانى ـ على أبى الفتيان ، سيد أحمد البدوى ، بدرء هذه الفتنة ، فذهب اليها سيدى « احمد البدوى » .

ولقد أطنبت المصادر فى تصوير لقاء « البدوى » بـ « فاطمة بنت برى » .. ومخلص ذلك كله . انهم قالوا : إنه ما ان وقع بصر فاطمة بنت برى على سيدى احمد البدوى ، حتى احست بنهاية أمرها ، حيث وجدت ما لديها من حال امام احوال بطل الرجال ، لايعدو ان يكون ذرة بجوار هذا الجبل الشامخ من الصلابة

والإيمان . ولقد آمنت فاطمة بنت برى بولاية السيد البدوى وصلاحه . ويقال إنها بعد لقائها بالبدوى عدلت عن خطتها ، والتزمت جانب الحق ، واتبعت طريق الشرع ، وقالت أمام جمع كبير من قومها :

« إشهدوا عليّ يالجميع من حضر ، انى ماعدت اتعرض لاحد من الرجال ، وانا استغفر الله بداية ونهاية ، وفرضا عن كفايته » .

هذه القصة لها معان ودلالات عميقة لكل من يدرس تاريخ الفكر الصوفى ، وتاريخ اقطاب التصوف . فـ « فاطمة بنت برى » كما أرى .. تمثل الدنيا وزخرفها .. فى طريق الفقير ، أو المتصوف الحق ، فالمريد الذى يضعف أمامها .. لا يصلح أن يكون مريدا ، فما بالك بالقطب الصوفى ..

وقصة « فاطمة » هذه أيضا ترمز فى حد ذاتها الى أن قطبانية التصوف عقد لواؤها لسيدى « أحمد الرفاعى » ، القطب الكبير فى التصوف .. فمن يجيزه فى الطريق .. فقد انضم الى الطريق ، وصار من الفقراء بمعنى أن الولاية هنا فى « أم عبيدة » .. أو أن « أم عبيدة » إن جاز التعبير ، هى الجامعة الجامعة للتصوف . وأن سيدى «أحمد الرفاعى» عميدها ..

كذلك فإن المريد الذى يريد أن ينضم للطريق .. فلابد له من مجاهدات ومجالدات ، ولابد له أن يتغلب على اغراءات الدنيا الزائفة .. وأن يسير بتؤدة وصدق فى طريق الله . وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أم غير ذلك ، فهى بلاشك أعطت سيدى « أحمد البدوى » القطبانية .. كما أكدت ودعمت « الرفاعية » كطريقة للفقراء تتبع من الكتاب والسنة ..

والواقع أن التصوف قد بدأ كرد فعل عنيف لما حدث فى أوساط أبناء الامم من غير العرب التى دخلت الاسلام .. حول ماحدث لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد وفاة الرسول .. ما حدث « لعلى بن أبى طالب » . وماحدث لآل البيت بعده من اغتصاب بنى أمية للخلافة ، واستشهاد الامام « الحسين » وكوكبة من آل البيت فى « كربلاء » .. ثم ماحدث بعد ذلك من اضطهاد لهم وتعقبهم ..

اقول ذلك .. وإن كان لا ينفى أن غالبية اقطاب التصوف كانوا من العرب .. أو هم كانوا ـ وهذه حقيقة ـ ينتسبون الى آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم بشكل أو بآخر .. ويكون هذا من من أهم شروط جوازات مرورهم الى القطبانية .

ويبدو أن أرض العراق كانت المنطقة الخصبة للتصوف .. ربما لقربها أو لالتقاف جمع من المسلمين غير العرب حولها .. ولانها تتوسطها بغداد ، وكانت مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية ، بل هى مركزها . ولذلك فمن يدس تاريخ أقطاب التصوف لابد له أن يذهب إلى هناك .. ولابد أن يمتحن هناك ، وأن يجاز فى امتحانه .

ويؤكد ما أقوله .. أنه ليس التصوف فقط كان مركزه هناك ، بل إن أقطاب العلوم الاسلامية أيضا محط أنظارهم بغداد بالذات . وحتى الفقهاء ، ومنهم الإمام « الشافعى » رضى الله عنه ، قبل أن يتبلور مذهبه ، فقد ذهب ثلاث مرات الى « العراق » ويقابل الفقهاء ويفيدهم ويفيدونه .

ومن يدرس الإمام « أبا الحسن الشاذلى » يجد أنه فى بداية البحث عن القطب الذى سيدله على الطريق ، سافر من المغرب الى بغداد أولا ليبحث عنه هناك . ورغم أنه لم يجده ، فلقد دلوه على القطب فى بلاده .. المغرب .

وكما حدث لسيدى « ابى الحسن الشاذلى » .. حدث أيضا لسيدى « إبراهيم الدسوقى » ذهب إلى هناك .. فمكان أقطاب المتصوفة المفضل ومركز الثقل لهم ـ ولمريديهم بالتالى ـ العراق .

* * *

وقبل أن نتحدث عن سيدى « الامام الرفاعى » رضى الله عنه .. من المفيد هنا أن نتحدث عن التصوف والصوفية بتحديد أكثر .. وهو حديث مستمر منذ قرون وقرون ..

ومن المفيد هنا أن نورد ما يقوله شيخ الاسلام « ابن تيمية » فى « فتاواه » فى تحديد معنى الصوفى . فهو يرى فى الصوفى نوعا من الصديقين . فهو الصديق الذى اختص بالزهد والعبادة ، باتباعه وتأسيهبرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمسكه بالكتاب والسنة ..

وفى هذا المعنى يقول ابن تيمية : « والصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقى زمانهم . والصديق فى العصر الأول أكمل منهم . والصديقون درجات وأنواع » .. وهل يوصف بالصديقية الا صفوة المتبعين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل أقواله وأفعاله .

ويرى د . « الحسينى هاشم » فى بحث له نشر بعضه ، أن رأى « ابن تيمية » فى مقاييس الناس ، بالنسبة للصوفية والتصوف رأى سديد لا إفراط فيه ولا تفريط .

فهو رأى يرفض ويذم المغالين الذين يرون انهم افضل الخلق وأكملهم .. كما يرفض ويذم رأى المتعنتين المتنطعين ، الذين يرون أنهم غير متبعين وغير سلفيين ، بل إنهم مبتدعون وخارجون عن السنة ..

وهذا ما نبه إليه فى الواقع فضيلة الإمام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى مقدمته لكتاب الامام الغزالى « المنقذ من الضلال » .. حيث يبين أن ميدان التصوف ككل ميدان ، فيه الأدعياء ، كميدان السياسة والكتابة ، وسائر الميادين الاخرى . وهذا رأى يتفق مع ما ارتآه الامام «ابن تيمية » حيث يقول :

ولاجل ماوقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس فى طريقهم . فطائفة ذمت الصوفية والتصوف ، وقالوا إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .. وطائفة غالت فيهم ، وادعوا انهم افضل الخلق واكملهم بعد الانبياء . وكلا طرفى هذه الامور ذميم . والصواب انهم مجتهدون فى طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من اهل اليمين . وفى كل من الصنفين من قد يجتهد ويخطىء ، وفيهم من يذنب فيتوب او لايتوب » .

ورأينا الذى يأتى بعد دراسات طويلة وقراءات مستأنية فى التصوف والمتصوفة .. أن التصوف طريق إلى الله ، وهو طريق ذو هدف نقى . إنه طريق عهد بين المريد وشيخه على أن يتوب عن المعاصى ، وأن يكون طاهر الروح والجسد معا ، والصوفى الحق والمريد الحق هو الباحث عن العلم العالى ، وعن الحقيقة . هو الذى مع الله دون الخلق ، فكل الخلق فى نظره سواء ، لا يملكون ولايقدرون ولكن المالك والقادر هو الله جل شأنه وجلت قدرته . وهذا الوصف ينطبق على جميع طرائق المتصوفة . هدفهم سام . هو ينابيع طاقات روحية معتمدة على الكتاب والسنة ، يشوه وجهها الصبوح هؤلاء الادعياء ، الذين ينسبون انفسهم الى الصوفية والتصوف وهو منهم براء .. ويدخلون عليه بدعا ليست هى من الدين فى شىء .. ومن هؤلاء بعض الكتاب الذين يسمون كتاب « المناقب » .. فاغلبهم ليس على درجة عالية من العلم والوعى .. فهؤلاء ينسبون لاقطاب التصوف أشياء هم منها براء . وهؤلاء المبتدعون ثلاثة أصناف ، كما يصنفهم البعض :

فالصنف الأول : مجموعة الجهال التى اخطأت فى الأصول لعدم تمكنها من دراسة الشريعة الاسلامية الحقة وأصولها .

الصنف الثاني : هم جامعة من الذين يخطئون في فروع التصوف ، وهى الآداب والأخلاق والمقامات والأحوال والافعال والاقوال .. هم الذين لم يستطيعوا أن يطهروا أنفسهم ويتبعوا المنهج الذى يؤدى بهم الى التصوف الحق .

اما الصنف الثالث : فهم الذين يخطئون من خلال هفوات .. فإذا تبين خطؤهم يعودون الى الطريق القويم ، ويذعنون للحق .

وهذا التصنيف صاحبه الإمام « الطوسى » .. مع بعض التخفيف والواقع أن القارىء الدارس المتتبع لأحوال اقطاب الولاية .. يرفض ما يلصق بالتصوف الحق .. من اتهامات .. وهذه بعض الامثلة ، فالتصوف الحق هو القائم على الكتاب والسنة ..

فسيدى « احمد البدوى » ـ مثلا ـ كان يردد دائما : « إن طريقتنا قائمة على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وما خالف ذلك فهو مدسوس » .. وكان يقول لتلميذه « عبد العال » ـ وهو موجه لكل مريديه بالطبع ـ « لا تتعلق بالدنيا ـ وراع الاحسان في العمل ، وابعد النفس عن الشح بالعطاء ، واستمر في ذكر الله ، ولا تغفل عن القيام بالليل ، ولا تكن سيء الخلق في المعاملة واصبر على تحمل الأذى ولازم الصدق دائما ، وكن صافى القلب حسن الوفاء حافظا للعهود » .

وماقاله سيدى « احمد البدوى » .. كان يقوله سيدى «ابو الحسن الشاذلى » وخليفته سيدى «أبو العباس المرسى » . وماقاله هؤلاء قاله أيضا سيدى «إبراهيم الدسوقى » .. ومما يقوله « الدسوقى » : « ياولدى . إلزم اولا طريق التمسك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا عملت بهما انقدح لك منهما علم الحقائق والأسرار .. ولا يكون فقيرا ـ اى صوفيا ـ حتى يكون حمالا للاذى من جميع الخلائق ، فلا يؤذى من يؤذيه ، ولا يتحدث فيما لا يعنيه ، ولا يشمت بمصيبة احد ، ولا يذكر احدا بغيبة ، ويكون ورعا عن المحرمات ، موقوفا عن الشبهات ، إذا بلى صبر . وإذا قدر غفر . غضيض الطرف . يعمر الأرض بجسده والسماء بقلبه .. طريقه الكظم والبذل والايثار والعفو والصفح ، والاحتمال لكل من يتحدث فيه بما لا يرضيه .. ومن لم يكن متشرعا متحققا نظيفا عفيفا شريفا فليس من اولادى ، ولو كان ابنى لصلبى . وكل من كان ملازما للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع والتقوى .. فهو ولدى وإن كان من اقصى البلاد » .

والواقع أن ماقاله هؤلاء الذين ذكرناهم .. قالوه على هدى أسلافهم الذين سبقوهم بايمان فى الزهد الحق والتصوف الحق .. ومنهم بالطبع الطريقة الرفاعية .

* * *

هذا الذى قلناه .. كان لابد أن نقوله كمدخل الى رحاب سيدى « أحمد الرفاعى » ، قطب أقطاب التصوف .. أو القطب الكبير .. كما يصفه « أبو بكر بن عبد الله العيداروس » صاحب كتاب « النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى » .. والذى قام بتحقيقه بالتبويب والشرح والتعليق عليه الدكتور « على حسن العريض » ، مفتش الوعظ بالقاهرة .

والذى ذكرناه حول التصوف والمتصوفة ، كان لابد من ذكره ونحن نتحدث عن هذا القطب الكبير ، الذى نسب الى طريقته الكثير من الدجالين ، الذين أساءوا الى طريقة سيدى « أحمد الرفاعى » بصفة خاصة والطرق الصوفية بصفة عامة . خاصة وأن طريقة سيدى «أحمد الرفاعى » بلغ عدد مريديها فى حياته ـ كما تذكر الكتب عنه ـ حوالى مائة الف ، والبعض قال إن عددهم وصل مائة وثمانين الفا .. وصار مريدو هذه الطريقة يعدون الآن بالملايين .

ولاشك أن الإمام « الرفاعى » واحد من الذين أرسوا قواعد التصوف الحق .. ووضع لها عبر التاريخ آدابا وتقاليد سامية .. لو أحسن الناس الاخذ بها ، ماكانت هناك أوجه من النقد لبعض المفكرين والكتاب يوجهونها الى الصوفية عموما ، والرفاعية منهم بوجه خاص .

وقبل أن نتحدث عن فكر سيدى « أحمد الرفاعى » ، وفكر تلامذته ومريديه الاصلاء العلماء ، نتحدث عن ملامح شخصية هذا القطب الصوفى ..

فهو أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد المعروف بأحمد الرفاعى . وهو علوى النسب رضى الله عنه . فأبوه حسينى ، ينتهى نسبه الى سيد الشهداء الحسين بن على بن أبى طالب ، وأمه حسنية ، ينتهى نسبها الى الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . ومن أجل ذلك كنى سيدى أحمد الرفاعى « بأبى العلمين » .

وينتسب سيدى « أحمد الرفاعى » الى جده السابع « رفاعه » ، الذى هاجر إلى المغرب هربا من اضطهاد العباسيين للعلويين فى المشرق . وقد استقر « رفاعة »

باشبيلية ، حيث تزوج وأنجب عددا كبيرا من الابناء . وقد سافر حفيده « يحيى » الى الحجاز لتأدية فريضة الحج . وبعد إقامة ليست طويلة فى مكة المكرمة ، رحل الى البصرة ، حيث تزوج ، واستقر به المقام فى العراق ، وانجب ولديه « الحسن الرفاعى » ، و « احمد الرفاعى » .

ولقد ولد سيدى « احمد الرفاعى » فى «أم عبيدة » .. وهى جزيرة قرب واسط من محافظة البصرة بالعراق سنة ٥١٢ هجرية .. فى العصر العباسى الثانى ،أى فى عهد الخليفة « المستظهر بالله » . وكانت ولادته بعد وفاة ابيه . اذ توفى ابوه وهو فى بطن امه .. فكفله خاله .

ولقد عاش سيدى «احمد الرفاعى » ستين عاما حافلة .. فقد حفظ ابو العلمين سيدى « احمد الرفاعى » القرآن الكريم ولما يكمل السابعة من عمره ، وكان طفلا متزنا نجيبا . ثم تلقى علوم العربية ، من خلال التردد على حلقات العلم المزدهرة فى بلاده .

ويقول إنه اتخذ شيخين أساسيين تتلمذ عليهما ، وهما خاله « منصور البطائحى » ، ثم الشيخ « على القارى الواسطى » .. هذا فضلا عن الإمام « الخرنوبى » .. والاخير كان سيدى « احمد الرفاعى » يقيم عنده كل عام فترة من الزمن ، يلزم فيها مجلسه ، ويتعلم منه ، ويستمع الى وصاياه وتوجيهاته .. حتى تفقه واتسعت دائرة معارفه ، وأتم دراسته .

وعلى غير العادة بالنسبة لأقطاب التصوف الاسلامى .. فلقد حفظ لنا التاريخ الكثير عن فكر سيدى « أحمد الرفاعى » ، والكثير من علومه وآدابه ونصائحه واشعاره وأذكاره واوراده وكلماته .. وهذا امر لم يحظ به الكثيرون من ائمة التصوف وأقطابه .. والذين كانوا يعتبرون كتبهم أصحابهم ومريديهم . فلقد ترك سيدى « احمد الرفاعى » مؤلفات جمة فى الفقه والتوحيد والتفسير .. والحديث وفى التصوف .. أكثر من خمسة وثلاثين مؤلفا .

ثم إن سيدى « احمد الرفاعى » لم يكن يخلو الى نفسه الا قليلا .. أو هو كان يلقى الناس فى كل يوم فى قريته « أم عبيدة » .. والتى كانت بمثابة خلوة كبيرة له ولمريديه . وكان يلقى الدروس على مريديه ، ويؤمهم فى الصلاة ، ويتدارس معهم مشاكلهم ويعمل على حلها .. فكان مريدوه « خلقا عظيما .. ولعلمه أحسنوا الاعتقاد فيه ، وتبعوه » .

يقول الامام « الشعراني » في « طبقاته » : « .. إليه انتهت الرئاسة في علم الطريق ، وشرح احوال القوم ، وكشف مشكلات منازلاتهم ، وتتلمذ له خلائق لايحصون ، وهو احد من قهر احواله ، وملك اسراره » . ولقد اصبحت « ام عبيدة » في حياة سيدى « احمد الرفاعي » ملتقى المؤمنين من المتصوفة ووفد عليها الكثيرون من الباحثين عن القطبانية ، ومن أبناء التصوف الاسلامى .

وقد توفى الإمام « الرفاعي » في سنة ٥٧٨ هجرية .. بعد مرض لم يمهله طويلا .. ودفن حيث ولد في قرية « أم عبيدة » ، وحيث هى قراره ..

والواقع ان سيدى « احمد الرفاعي » ، قد عاش حياته يردد دائما ، وصية أستاذه الامام « الواسطى » ، والتى تقول : « من لم يعرف من نفسه نقصانا ، فكل وقته نقصان » .. كما كان يردد دائما أيضا : « طريقنا الكتاب والسنة ، ومن انحرف ضل الطريق » . وكان يدعو ربه دئما : « اللهم عاملنا بما انت اهله .. ولا تعاملنا بما نحن اهله .. انك اهل التقوى واهل المغفرة » .

ويقول سيدى « احمد الرفاعي » : « طريقى دين بلا دعة ، وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ، وقلب بلا شغل ، ونفس بلا شهوة .. وطريقنا طريق تقى واخلاص . فمن ادخل في عمله الرياء والفجور ، فقد بعد عنا وخرج منا » ..

ومثل هذه الكلمات الصريحة والواضحة .. تدعونا كما تقول دكتورة « سعاد ماهر » في كتابها « مساجد مصر » الى أن نعرض لما ينسب الى الرفاعية من كرامة مسك الثعابين ، واختراق جسد الانسان بمواد صلبة ، مثل السيخ والشوكة والسيف .. من غير إحداث جرح وإراقة دماء .. لكننا لم نعثر في ترجمة الامام احمد ارفاعي على ذكر او اشارة من قريب أو بعيد ، الى انه أتى بمثل هذه الكرامات ، غير ما جاء من أتباعه ..

يقول ابن خلكان في « وفيات الاعيان » : « ولاتباعه أحوال عجيبة ، من اكل الحيات وهى حية ، والنزول في التنانير تتضرم بالنار ، فيطفئونها .. »

ويعلق محمد فريد وجدى . على ذلك بقوله : « أما مايروى عن أتباع الرفاعي من اكل النار والجلوس عليها ، وغير ذلك فيظهر انه صحيح .. وهو حين يدخل الانسان في حالة غير اعتيادية سواء أكانت بالذكر او بالتنويم المغناطيسى » .

وتعلق دكتورة سعاد ماهر على هذه الآراء ، فتقول : على اننا اذا رجعنا للديانات الهندية القديمة ، لوجدنا فى الديانة « الجينية » .. التى تجعل الجسد فى خدمة الروح ، ما يفسر بعض ما يأتيه الذين ينتسبون الى الرفاعية من أعمال غريبة .

والحقيقة أن حياة سيدى « أحمد الرفاعى » الحافلة العريضة ، هى التى جعلت الكثيرين يخوضون فى بحارها المتلاطمة المترامية الاطراف . فقد خاض بحارها المفسرون والمؤرخون والعلماء . فمنهم من افرد لسيدى « احمد الرفاعى » بالتاليف مثل الشيخ « برهان الدين الحلبى » فى كتابه « البرهان المؤيد » . كما ذكره السيد « احمد القليوبى » فى كتابه « تحفة الراغب » .. والامام « عبد الوهاب الشعرانى » فى « الطبقات الوسطى » . كما تناول ترجمة كذلك « الفيروز بادى » صاحب « القاموس المحيط » ، والشيخ « الكازرونى » فى كتابه « شفاء الاسقام فى سيرة غوث الانام » .. الذى ترجم من الفارسية الى العربية . كما افرد لترجمته العلامة الشيخ « المناوى » فى « كواكبه الدرية » ..

ونورد هنا مايذكره الامام المناوى عن سيدى احمد الرفاعى ، فيقول : « هو احمد بن على بن يحيى بن ثابت بن حازم بن رفاعه ، الشيخ الزاهد الكبير ، أحد الاولياء المشاهير ، ابو العباس الرفاعى المغربى ، شريف يمنى ، غاض روض شرفه ، وهمل على العالم غوث سلفه . كان سيدا جليلا ، وصوفيا عظيما نبيلا . قدم ابوه العراق وسكن « أم عبيدة » بأرض البطائح وولد بها صاحب الترجمة .. ونشأ بها ، وتفقه على مذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وكتب كتابه « التنبيه » ثم تصوف فجاهد نفسه حتى قهرها ، واعرض عما فى ايدى الخليقة ، واقبل على اشتغاله بالحقيقة .. ومهر واشتهر وانتهت اليه الرياسة فى علوم القوم . » .

وعن اتباع سيدى « احمد الرفاعى » ومريديه يقول « ابن خلكان » : « وهم الطريقة الرفاعية ، ويقال لهم الاحمدية ، والبطائحية » .. نسبة الى أحمد الرفاعى ، ونسبة الى البطائح فى العراق .

والواقع ان الكتب التى تناولت سيدى احمد الرفاعى لاتحصى .. ونضيف الى ماسبق أن ذكرنا كتابا يتحدث عن مناقب « الامام الرفاعى » ، وهو كتاب « ربيع العاشقين فى مناقب سيدنا الامام الرفاعى سلطان العارفين » « للحداد الشافعى » .. وهو كتاب جدير بأن يقرأ بجانب كتاب الشيخ « العيداروس » بعنوان

« النجم الساعي في مناقب القطب الكبير الرفاعي » .. هذا فضلا عما كتبه الحافظ الذهبي ، والامام العيني ، وابن حجر العسقلاني .. وغيره وغيره كثير .

* * *

الامام « احمد الرفاعي » في حياته .. كان واحدا .. ويقولون انه كان صديقا « لابي الليث الحراني » الذي كان معروفا بالصلاح والتقوى بين الناس . وكان والده امير حران .. ولقد ترك « ابو الليث الحراني » طريق الامارة حين قابل سيدي « احمد الرفاعي » ، وتبع طريق الفقر ورضي بها . وفي طفولته ، كان سيدي « احمد الرفاعي » ، يتعلم القرآن والنحو والصرف عند احد المشايخ . وهذا الشيخ ذكرت الكتب الكثير عنه وعن تلميذه سيدي احمد ومن هذا الذي ذكر ، ان الاستاذ قال له مرة ان يعرب « ضرب زيد عمرا » فقال سيدي « احمد الرفاعي » : ياأستاذ : لأي شيء ضرب زيد عمرا ؟. فقال المعلم : ياولدي هو ماضربه حقيقة . ولكن هذا اصطلاح في العربية . فقال له سيدي احمد الرفاعي : ايش بي اتعلم مافي الكتاب ، ولاحاجة لي بذلك ولا اقرؤه . وخرج من عند الاستاذ ، ولم يعد اليه بعد ذلك .

ويقال ان استاذه الذي كان اول من اثر فيه هو الشيخ « علي القاري الواسطي » ، وهو الذي أخذ عليه العهد الوثيق .. والذي ـ كما يقال ـ انكشفت لسيدي « احمد الرفاعي » معه ، بإذن الله ، علوم الحقائق وعلوم الظاهر والباطن .. وهي علوم المتصوفة .. وان كان البعض يرى ان خاله « الامام منصور » كان أستاذه الاول الذي رباه ، والذي فطمه على الصلاح والعبادة وبدأ معه اول الطريق . كما يقال ان سيدي « احمد » أخذ من الفقيه « الواسطي » علوم الشريعة وتفنن بها ..

ومن علامات نجابة سيدي « احمد الرفاعي » ، يروي صاحب كتاب « النجم الساعي » .. انه كان لخاله منصور البطائحي ولدان .. ولكنه اهتم بابن اخته الرفاعي اكثر من ولديه . ولأن خاله منصور كان شيخ زمانه ، فقد اراد أن يخلفه ابن اخته ، وليس احد من ولديه ، على السجادة ، فيكون شيخ الشيوخ . فلما قال له اولاده : ان ميراث الأب لايكون الا للابن ، وليس لابن الاخت .. لم يسمع اليهم .. وقد برهن على أن سيدي « احمد الرفاعي » يستحق هذه العناية ..

ولقد اورد « كتاب المناقب » بعض الامثلة على سبق سيدي « احمد » على ولدي خاله امام جمع كبير من الناس ، ليشاهدوا ، فقد جمع الشيخ « منصور البطائحي » ولديه وسيدي « احمد » معهما ، واعطى لكل منهم دجاجة وسكينا ، وقال لهم ، كل

منكم يذهب بدجاجته وسكينه الى محل خال ، ما فيه احد ، ثم يذبح دجاجته ، ويأتي بها مذبوحة ..!

وانتظر الجمع الكبير ماذا سيفعلون بالدجاج : وقد فوجيء هذا الجمع ، بأن كلا الولدين جاء بدجاجته مذبوحة فيما عدا سيدى « احمد الرفاعي » . فسألوه : لماذا ؟ . فقال : قد اشترطتم علىّ خلو المكان . فكل مكان كنت اذهب اليه ، لااجده خاليا ، بل مشغولا بالله سبحانه وتعالى ، وهو فيه حاضر ناظر . ولما أر مكانا خاليا قط لم اذبحها ..

وقف الجميع مشدوهين بما قاله سيدى « احمد الرفاعي » .

وايدوا الشيخ « منصور » .. على اهتمامه بولد أخته .. وانه سيكون له شأن .

وهكذا .. ذاع صيت سيدى « احمد » فى « ام عبيدة » .. واتسع ليذيع فى بغداد .. لدرجة انه وكما يقول صاحب « النجم الساعي .. » : « وفى مدة قليلة شاع شرف اخباره فى العالم ، وسار اليه من البلاد والاقطار خلق كثير ، ولزموا خدمة اعتابه .. وصار سيدى احمد فى مرتبته اظهر من كل شيخ كان له سجادة فى هذا العصر » .

ولنبوغه بدأت الانظار تتجه اليه .

وكا لابد ان يخرج من « أم عبيدة » لتتأكد شهرته وليذيع صيته بين علماء بغداد ..

وقيل انه لما طلع الى بغداد ، اجتمع عليه علماؤها ، وفضلاؤها ، وهيأوا له أسئله كثيرة للامتحان ، وسألوه أسئلة مشكلة ، منها من أى شيء خلق الله ملكوت السموات ؟

قال : خلقه الله تعالى من النور ، ولكنه خلق العرش اولا من خالص نوره ومن نوره خلق أربعة ملائكة : جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل .. عليهم السلام ، وخلق حملة العرش من نور حضرة القدس ، وخلق الكرسى والعرش من نور المصطفى ..

ثم سألوه : مم خلق الله تعالى نور محمد صلى الله عليه وسلم ؟
فقال : خلقه من نور الالوهية ..

وأسئلة كثيرة ذكرها صاحب « النجم الساعي » ..

ويقول أنه بعد اجاباته عن كل ما وجه اليه من أسئلة .. « فلماسمع القوم من الرفاعي هذه العلوم ، وهذه الأجوبة المحررة ، قالوا جميعا : صدقت ياقطب العارفين ، ولقب بذلك بينهم .. »

* * *

من أهم مايتميز به سيدى « احمد الرفاعي » من سجايا بجانب علمه وقطبانيته .. شفقته على عباد الله تعالى ، خاصة الفقراء والمساكين ..

والكثير من سجاياه يذكرها كتاب « ترياق المحبين » للشيخ « تقى الدين الواسطي » ..

ومن سجاياه أنه كان على كمال الاستغناء عن الدنيا ، ولا أحب شيئا منها مدة عمره ، وكان يقول : يافقراء إعلموا ان فى اطراف الانسان عرقا متصلا بالقلب ، فمتى ما اعتاد الانسان قبض الدنيا بيده وكفه تعلق قلبه بها ، فاذا اراد ان يقطع ذلك التعلق ، لعسر عليه ذلك .

وكان سيدى « احمد الرفاعي » مع الايتام فى مقام الوالد . وكان يحنو على الارامل ، ويميل الى طائفة المساكين . كما كان عليما للغاية ، عظيم التواضع ، كتاما للاسرار . واذا تعدى عليه أحد ، عفا عنه وسامحه . وكان يقول للفقراء : يافقراء إعلموا ان كل من يعمل منكم سوءا يكن عاصيا بعيدا من الله ، ومن يعمل حسنة يكن تائبا وقريبا الى الله .

وكان سيدى « احمد الرفاعي » يملأ القرب ، ويحملها على ظهره ، وعلى كتفه ، ويوصلها الى منازل النساء والارامل ، كما كان يجمع الحطب ويوزعه ... بل إن أهل « أم عبيدة » كانوا يقولون عنه « إنه رجل بعشرة آلاف رجل » لانه كان يقول : « إن تجارتي خدمة الارامل واليتامى . وأحب ان اشهد نفسي فى خدمتهم دائما ، واذا رايت يتيما يبكي تهتز مفاصلي وترتعد اعضائي حنانا له وشفقة عليه . واخاف من بكائه » .

ويحكمون عن سيدى « احمد الرفاعي » : انه كان إذا حضرت الصلاة لا يقدم شيئا من أمور الدنيا . واتفق فى يوم من الايام ان عطش فطلب ان يشرب ، فاذن

المؤذن ، فقال : امر الصلاة اوجب واحق بالتقديم على كل شيء . فترك الشرب واشتغل بالصلاة ، ثم لما فرغ من صلاتـه قال : إن شرب المـاء من حظوظ النفس وشهواتها ، والصلوات من شئون الذات العلية واعتباراتها .

ويقولون إن سيدى « احمد الرفاعي » ، كـان اذا شرع فى الصلاة ،يصفـر لونـه . واذا فرغ من صلاة الصبح ، يستمر فى مكانه جالسا بالذلة والمسكنة يقـرأ الاوراد الى صحوة النهار العالية ، واذا فرغ من ذلك صلى صلاة الاشراق وصلاة الضحى . ثم يتوجه الى « أم عبيدة » يجاهد نفسه على العبادة ، وكان دائما يرى فى الخلوة واقفا على قدميه يجاهد نفسه ، وينشد هذا البيت من الشعر :

والله لـو علمت روحي بمن علقت

قامت على راسهـا فضلا عن القـدم

كما كان رضي الله عنه يكره أن يتشبه بالعظماء ، أو أن يقوم له الناس كلما حضر او انصرف . بل إنه رفض أن يتخذ خادما يعينه فى حاجاته ، لأنه كان يقول لكـل من يسألـه أن يستريح ويتفرغ للتدريس والعلم وتوجيه مريديه : ومن اين لى اجر الخادم الذى يعيننى ودخلى محدود . فلما كان تلاميذه يعربون عن استعدادهم لمعونته ، كان رده الدائم : « أن العلم الذى اعطيه .. لااجر عليه . وكـل من يستغل تـلاميذه ومحبيـه من أجل الثراء او جاه دنيوى ، فقد خسر الدنيا والآخرة » .

والإمام « الرفاعي » كان يرى أن الصوفى الحق ، هو الذى يـواجه الحـاكم إن اخطأ او جانبه الصواب . لا طمعاً فى جاه دنيوى ، ولا رغبة فى مال أو دنيا .. وإنما لله وحده .. ويشتهر عنه انه كتب للخليفة العباسى « المستنجد بالله » يقول له :

« يا أمير المؤمنين ، إن انت نفذت أحكام الله تعالى فى نفسك ، نفذت أحكام كتبه فى ملكك ، وإن عظمت أمر الله .. عظم الله أعمالك وولاة الأمور من قبلك . ثم زن يا أمير المؤمنين كل مايصل الى خويصة نفسك فى هذه الدنيا من طعام تاكله وشراب تشربه ، ورداء ترتديه ، واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك .. فان رداءك ماسترك ، وطعامك ما أشبعك ، ومالك ما لك منه شيء .

« وعليك بالعقل والدين ، وإياك وأرباب القسوة بالغدر والضلالة ، فهم أعداؤك . وإذا أحببت فحكم الانصاف فى عملك ، وإذا كرهت فاذكر الله .. والخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة ، وساو بين الناس برا وفاجرا ، مؤمنا وكافرا » .

وهذا هو طريق التصوف الذى اتخذه سيدى « احمد الرفاعى » .. فهو كما يقول : الفقر والتصوف مبنيان على خصائص متعددة ، منها ان يتجرد العبد لله تعالى ، ويعلم الله علما يقينا ، ويقول بالوحدانية فى افعاله وصفاته وذاته ، وانه ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى » . ومجلس الصوفية ، كما يراه سيدى « احمد الرفاعى » ، مجلس الغم والعزاء .. فان الفقير اذا جلس به يستمر متأسفا متحسرا على زمانه الذى مضى وفاته ، وما فعل به شيئا مما كان ينفعه ، ويقول : « فى اى سبيل مامضى من عمرى وانا غافل ، ماعملت به عملا صالحا » ..

ومن وصية سيدى « احمد الرفاعى » الى الشيخ « يعقوب » :
« ياشيخ يعقوب ، لا تنظر الى عيوب الخلق ، فان نظرت الى عيوبهم اظهر الله فيك جميع العيوب » . وقال لـ « ابراهيم الاعزب » :

ياابراهيم ، كل من اراد ان يكون لك شيخا ، فكن انت مريدا له . وكل من تقدم عليك ، فقدمه وعظمه . إياك والتقرب من اهل الدنيا ، فان القرب منهم يعمى القلب ، والتواضع لهم موجب لغضب الرب ، وتعظيمهم يزيد فى الذنوب ، ولو عرف العالم كله رب الفقراء حق المعرفة ، مثلما عرفه الفقراء ، لانقطعوا عن معاش الدنيا واحوالها بالكلية .

وكان يقول : حق الفقير أن يكون قبلة وإماما للناس يقتدون به . واللازم على الفقير أن تكون أقواله مطابقة للشرع الشريف المحمدى ، حتى لا ينخرط فى سلك من اتخذهم الناس رؤساء جهالا ، فضلوا وأضلوا .

ويدعو سيدى « أحمد » دائما الى الحب . وكان يقول : تعلموا العشق من الشمع المضيء ، فإن لونه اصفر ، وعينيه ملآنتان بالدموع ، وبدنه دائما فى احتراق وانمحاق وذبول . واعلم ان العشق له ثلاثة احوال محمودة : الاكل القليل ، والنوم القليل ، والكلام القليل . فنتيجة الاول النوم القليل . ونتيجة الثانى العقل والفراسة . ونتيجة الثالث الحكمة .

وكان سيدى « أحمد » يحض أتباعه ويشجعهم على النهل من ينابيع العلم . وطلب العلم لايقتصر على مكان واحد . ولهذا كان يذهب الى حلقات العلم فى كل مكان يسمع عنهْ ، ويرحل الى كل عالم جليل يصل الى خبره . حتى أنه يروى أن نصائح معلمه « الخرنوبى » ، والذى كان سيدى « احمد الرفاعى » يذهب اليه فترة من كل عام ، ظلت عالقة فى ذهنه ، وكان يرويها لمريديه .. ومنها : « اى متلفت لايصل .. وكل متسلل لايفلح . ومن لايعرف ـ فى العلم ـ نقصاننا ، فكل وقته نقصان » ..

وكان سيدى « احمد » يرفض أن يحضر مجلسه عاطل ، فكان يلزم كل دارس أن تكون له حرفة يقتات منها .. « فمن ليس له عمل فلياتنا فى الغد لنبحث له عن عمل هنا او هناك » .. ولقد كان الرفاعى يعمل فى الرعى ، كما عمل سقاء وحطابا ..

ولقد توقف الامام مرة عن الكلام ، وأطال السكوت .. اثناء إلقاء دروسه . وطال صمته حتى خاف عليه تلاميذه . ثم قال لهم : لا تسبونى من بعدى . قالوا : وكيف نسبك وانت إمامنا ؟ . قال : تقولون قولا لم اقله ، وتفعلون شيئا لم اعمله ، فيراكم الناس ويسمعونكم ، فيقولون لولا انهم رأوا شيخهم ، ولولا انهم سمعوا شيخهم ، ما قالوا ، وما فعلوا ، فيسبونى . إعلموا ان كل شىء خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ، فليس منى » .

والواقع أن سيدى « أحمد الرفاعى » كان شيئا آخر غير الذى يحاول المدعون أن أن ينسبوه اليه .. كان مؤمنا ، عالما ، إماما ، وفيلسوفا .

• • •

للامام « احمد الرفاعى » كتاب قيم بعنوان « حالة اهل الحقيقة مع الله » هذا الكتاب من الكتب العميقة التى تلقى الاضواء على فكر الرفاعية من خلال قطبها ، وهذا الكتاب من الكتب النادرة التى توجد فى مكتبات بعض قدامى الصالحين ، الذين ورثوها جيلا عن جيل .. كما يقول « صلاح عزام » محقق هذا الكتاب ، وكتاب آخر للرفاعى هو : « البرهان المؤيد » .

والكتاب نموذج مشرف لتعاليم الرفاعى .. حتى يجد فيه المهتم بالصوفية المنهج والدعوة ـ وهو نموذج حى للدروس التى يجب أن يقتدى بها تلاميذ الرفاعى ومحبوه وسالكو طريقه . وقد بدأ الامام الرفاعى هذه الدروس يوم الخميس الاول من رجب عام ٥٤٩ الهجرى ، وكان عمره يومئذ سبعة وثلاثين عاما هجريا فقط ، واستمر كل يوم

خميس ، على مدى أربعين أسبوعا . واختار له عنوانا متكاملا وهو : « حالة اهل الحقيقة مع الله » . وقد قام بجمع مادته أبو شجاع بن منجيح الشافعي الواسطي .. وكتب مقدمة له ..

وسنجتزىء هنا بعض ماقيل في هذه الجلسات العلمية لسيدى « احمد الرفاعي » التي كانت تعقد في « رواق أم عبيدة » .. وهي جلسات للتفسير والتوحيد والتفقه في الدين .. من يقرؤها يشعر بمدى ماكان عليه الامام « الرفاعي » من علم ومعرفة بأمور دينه .. وهذا بعض مما كان يدور في هذه الجلسات :

مثلا في الحديث الثاني .. أو الخميس الثاني ذكر أنه قيل « للواسطي » « اى الطعام اشهى » ؟

قال : لقمة من ذكر الله تعالى ، ترفع بيد اليقين من مائدة الخلد عند حسن الظن بالله تعالى .

قال « النساج » : يخرج اكثر أهل الدنيا من الدنيا ، ولم يذوقوا طيباتها المقصودة .. قيل : وماهي ؟ قال : سرور المعرفة ، وحلاوة المنة ، ولذائذ القربة ، وأنس المحبة .

وقال محمد بن واسع : حق لمن أعزه الله بمعرفته أن لا يذل نفسه لغيره وحق لمن والاه الله بولايته أن يقوم بحقه ، وحق لمن أكرمه الله بصحبته أن لايميل الى غيره ، ولا يعمل بهوى نفسه .

وقال ابو يزيد : ان في الليل شرابا لقلوب العارفين ، تطير به قلوبهم حبا لله وشوقا اليه . الا ان الناظرين اليه ، لا الى غيره ، ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة . ‌‌‌‌القول : وهذا الشراب هو الخير ، وهو على ضربين : تحير وحشة وتحير دهشة . فتحير الوحشة للمطرودين ، وتحير الدهشة للعارفين المشتاقين ... يادليل المتحيرين زدني تحيرا .

* * *

وفي الحديث الرابع ، يعرف سيدى احمد الرفاعي بأهل المعرفة ، ويقول أنهم ثلاثة اصناف : صنف يمشون على قدم الافتقار والاضطرار . وصنف يمشون على قدم الاعتبار والانكسار ، وصنف يمشون على قدم الافتخار والاستبشار . قال تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه » الآية .

والناس في مشهد المعرفة على مرتبتين : إما في يقظة المعرفة فهم في تربية الولاية ينتظرون الكرامة . وإما في أرحم الراحمين ، فسبحان من خص من عبيده من شاء ، وأعطاهم ثم دعاهم الى نفسه بفضله حيث قال : « وانيبوا الى ربكم » . فأجابوه

وانابوا اليه . فهم على أصناف شتى . فالتائبون يمشون برجل الندامة على قدم الحياء ، والزاهدون يمشون برجل التوكل على قدم الرضاء ، والخائفون يمشون برجل الهيبة على قدم الوفاء ، والمحبون يمشون برجل الشوق على قدم الصفاء ، والعارفون يمشون برجل المشاهدة على قدم الفناء .

فالمعرفة طعام أطعمه الله من شاء من عباده ، فمنهم من يذوقه ذوقا ، ومنهم من ياكل منه بلاغا ، ومنهم من ياكل منه كفافا ، ومنهم من ياكل منه شبعا .

والناس فى المعرفة على منازل ، فمنهم من يكون منزله منها كشعب ، ومنهم من يكون كقرية ، ومنهم من يكون كمصر ، ومنهم من يكون منزله منها كالدنيا والآخرة .

* * *

وفى الحديث الخامس قال سيدى احمد الرفاعى لجلسائه :

اى سادة .. للعارف أربعة اجنحة : الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، والشوق . فلا هو بجناح الخوف يستريح من الهرب ، ولا بجناح الرجاء يستريح من الطلب ، ولا بجناح المحبة يستريح من الطرب . ولا بجناح الشوق يستريح من الشغب

والله تعالى بين فى كتابه نعتهم « ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » . وقوله تعالى : « لا تلهيهم تجارة » . الآية . وذلك لأن عمل العارف خالص للمولى ، وقوله مستأنس بالذكرى ، ونفسه صابرة فى البلوى وسره دائم النجوى ، وفكره بالافق الاعلى . فمرة يتفكر فى نعم ربه ، ومرة يجول حول سرادقات فحينئذ يصير حرا عبدا ، وعبدا حرا ، وغنيا فقيرا وفقيرا غنيا .

هكذا يعد ما امكنه طردا وعكسا من الالفاظ ، مثل : الموجود والمعروف والعزيز ، والمسرور ، والقريب ، والمحمود ، والناطق والساكت . والمقبول والخائف ، والمشاهد والغائب . والباكى والضاحك . وذلك لأن ضحكه وسروره فى حزنه . وحزنه فى سروره . وعزه مختلط بذله . وذله مختلط بعزه . وخوفه ممزوج برجائه ، ورجاءه ممزوج بخوفه .. لا خوف يذهب برجائه ، ولا رجاء يذهب بخوفه . وهو بنفسه يعيش مع الناس معاملة قلبه مع الله تعالى . عزيز ذليل ، فقير غنى . كما قال « ابو يزيد » رضى الله عنه فى مناجاته :

كلما قلت قد دنا حل قيدي

قيدوني وأوثقوا المسمارا

وكان يسيل الدمع من عينيه عند هذه الكلمة ، وليس كل من يرى عليه اثر الزهد فهو زاهد ، وكذلك اثر الرغبة والحماقة والخيون والبطالة والغفلة .

ان الله تعالى كلما نظر الى قلب عبد من عبيده بالفضل والرحمة كشف عنه حجاب الغفلة ، واظهرله لطائف القدرة ، فعند ذلك لابد له من إحدى ثلاث : إما أن يصير حكيما يتصل به الخلق الى الله . وإما أن يكل لسانه فيصير مدهوشا مبهوتا . وإما أن يصير مستورا فى حجبه محفوظا فى قبضته حتى لا يراه غيره لشدة غيرته عليه . فسبحان من حجب أهل معرفته عن جميع خلقه ، حجبهم عن أبناء الدنيا باستار الآخرة . وعن الآخرة بأستار الدنيا ، وذلك أن أهل المعرفة عرائس الله تعالى فى أرضه ، والله محرمهم ، لا محرم لهم غيره ، فهم عند الله مخدرون .

● ● ●

وفى الجلسة السابعة .. يقول من بين مايقوله لتلامذته ومريديه :

أى سادة : إن لله تعالى عبادا اصطفاهم لمعرفته ، وخصهم بمحبته ، واختارهم لصحبته ، واجتباهم لمؤانسته ، وقربهم لمناجاته ، وحرضهم على ذكره ، وانطقهم من كاس محبته . وفضلهم على جميع خلقه حتى لم يريدوا به بدلا ، ولا سواه كفيلا ، ولا دونه ناصرا ومعينا ووكيلا .

ولقد سبقوا من دونهم سبقا ، لا بكثرة الاعمال ، ولكن بصحة الإرادات وحسن اليقين ، مع دقائق الورع والانقطاع بالقلب اليه ، وتصفية السر عن كل مادون الحق ، فاذاقهم الله طعم لباب معرفته ، وأنزلهم فى حظيرة قدسه ، لا يصبرون عن ذكره ، ولا يشبعون من بره ، ولا يستريحون لغيره .

فياطوبى لهم . هم الاقلون عددا ، والاعظمون خطرا ، بهم يحفظ الله محبته حتى يؤدونها الى نظرائهم ، فياطوبى لهم . هم الزاهدون فيما رغب فيه الغافلون ، والمستأنسون فيما استوحش منه الجاهلون ، والمشتاقون الى ماهرب عنه الساهون . هم الذين نظروا باعين القلوب الى حجب الغيب ، وجالت ارواحهم فى الملكوت ، فَهِمَّتُهُمْ فى سرهم ، وسرهم عند ربهم ، به يستمعون وبه ينظرون وبه يريدون ، وبه يتحركون .. قلوبهم بحبها مستأنسة بانسها .

لله قوم مصطفون لنفسه

إختارهم من سالف الازمان

إختارهم من قبل فطرة خلقهم

فيهم ودائع حكمة وبيان

* * *

وحول اهل المعرفة يقول سيدى احمد الرفاعي في الجلسة التاسعة :

اى سادة ..من أراد أن يتكلم بلسان أهل المعرفة ، فينبغى أن يحفظ أدب كلامه ، فلا يكشف دقائقه الا عند أهله ، وأن لا يحمل المريد فوق طاقته ، ولا يمنع كلامه من كان من أهله ، ويكون كلامه مع أهل المعرفة بلسان المعرفة ، ومع أهل الصفاء بلسان المحبة ، ومع أهل الزهد بلسانهم : ومع كل صنف على قدر مراتبهم ومنازلهم وقدر عقولهم . فان الله تعالى جعل للعارف هذه الالسن . نعم كلها تتلاشى عند ظهور سلطان الحق ، وينبغى الا يتحدث بحديث لا يبلغ عقل المستمع اليه ، فيكون ذلك فتنة . فإن أكثر الناس جاهلون ، اشتغلوا بعلوم الظواهر ، وتركوا علم تصحيح الضمائر ، فلا يحتملون دقائق كلام العارفين . لان كلماتهم لاهوتية واشاراتهم قدسية وعباراتهم أزلية . فلذلك ينبغى للمستمع أن يكون معه السراج الأزلى والنور الديمومى ، ويقال : لسان الحال افصح من لسان المقال . فمن رضى بالحال دون ولى الحال صار مخذولا ومحجوبا عن ذى الجلال . وأى دهشة أشد من دهشة العارف ؟ .. ان تكلم عن حاله هلك ، وإن سكت احترق . فمن ورد قلبه الحضرة كَلَّ لسانه ، ومن غاب قلبه عن الحضرة كثر كلامه .

بين المحبين سر ليس يفشيه

خطر ولا قلم عنه فيحكيه

نار تقابله ، انس يمازجه

نور يخبره عن بعض مافيه

شوقي اليه ولا ابغي لـه بدلا

هذى سرائر كتمـان تناجيـه

***

وقد كان سيدى « احمد الرفاعي » يطلب من تلامذته ومريديه دائما ان يسالوه .. وكان رحمه الله مستعدا دائما ، جاهزا دائما .. وهذا ما حدث في الحديث الثاني عشر ، حيث يقول :

اى بني .. أعلم ان لكل شيء مفتاحا ، ومفتاح العلم السؤال . فان قدر المريد على أن يجالس أهل المعرفة فيقتبس من علمهم وتحقيق رمزهم ولطائف إشاراتهم ، فبخ بخ ، فإن شرف العلماء الربانيين أكبر من أن يدركه أحد غير الله ، لأنهم أحباء الله . وابناء سره . فليغتنم حرمتهم ، ويحرك خواطرهم بحسن السؤال . فإن أمواج خواطر العارفين لا تفنى عجائبها ، وكفى للمرء جهلا إمساكه عن التعليم ، واستكفاؤه بما عنده ، وقد قال الله تعالى :

« فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون » . وقال النبي ﷺ « جالسوا الكبراء وسائلوا العلماء » ..

***

ويواصل سيدى « احمد الرفاعي » في الحديث الثالث عشر مابدأه في الحديث قبله . فيقول :

اى بني .. أعلم أن العارف بأسرار المريدين على همم العارفين ، كلف العباد وفاء صدق العبودية ، ثم بين لهم تحقيق شرائطها ، كيلا يتجاوزوا حد العبودية الى حد الربوبية ، وحد الفقر الى حد الغنى ، قال تعالى : « ياايها الناس انتم الفقراء الى الله » . الآية . وجعل لكل شيء سببا . فجعل المخرج من عبودية المخلوقين القيام بصدق قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » .. من عبودية سواه ، ويرزقه المؤانسة والمحبة ، والشوق اليه من حيث لايحتسب . ومعنى آخر : ومن يتق الله بحفظ السر عن آفات الالتفات إلى ما سواه يجعل له مخرجا من حجب الابعاد ، ويرزقه المشاهدة والوصلة من حيث لايحتسب .

***

وقال الإمام الرفاعي في الحديث الخامس عشر ، مضيفا :

اي بني . إعلم أن معرفة النفس أحد أصول العبودية . وقل من يعرفها . وعز وجود من يتمنى عرفانها . وما خلق الله تعالى في الدارين سجنا أضيق على العارف ولا أوحش ولا أنتن من النفس ، فمن عرفها على التحقيق وخالف أمرها ، فكل أرض له ثغر وطرسوس ، ومن غفل عن معرفتها ، فهو على خطر عظيم ، ولايسلم من شرها . فإن من لايعرفها كيف يقوم بمخالفتها . قال « احمد بن حرب » إني اشتهي أن أموت ، ولو ساعة ، حتى أعرف نفسي وأخالفها .

***

ومن نماذج تفسير الاحاديث في جلسات سيدي « احمد الرفاعي » « بام عبيدة » .. ما قاله في الحديث التاسع عشر .. وهو تفسير في الواقع ينحو الى السلاسة ، وفي نفس الوقت الى العقلانية ..
في الحديث النبوي الذي يقول : « إن من حسبك ان تصوم من كل شهر ثلاثة ايام ، الحسنة بعشر امثالها ، فكانك صمت الدهر كله » .. يقول سيدي « احمد الرفاعي » تفسيرا له :

في هذا الحديث الشريف أسرار ، منها البشارة بتواصل نور الأعمال بنور الأعمال من دون انقطاع ، وإن تباعدت الأوقات . ومنها مضاعفة ثواب العمل لهذه الامة .. الحسنة بعشر امثالها ، لتنشط قلوبهم لعمل الخير . ومنها الامر بعدم التكليف الى أن يفضي بالعبد الى السأم والملل . ومنها لزوم التذكرة لانظم القلب الغفلة ، ومنها الايمان القطعي بوعد الله وحسن كرمه .. كل هذه الخصال ، خصال العارفين الذين انقطعوا عن كل الهموم الدنيوية والاخروية ، وصار همهم ربهم ، ومن كان همه ربه فلا هم له .

***

وحديث نبوي آخر يقول : « لاتحاسدوا ولا تباغضوا ، ولا تجسسوا وكونوا إخوانا كما امركم الله تعالى »

ويفسر سيدي « احمد الرفاعي » هذا الحديث فيقول : هذا الحديث الشريف تضمن من أسرار المعرفة بالله العجائب ، فإنه أمر بالتخلي عن الصفة الابليسية . وهي الحسد . ثم بالتجرد من الصفة النفسانية ، وهي البغض لغير الله تعالى . وبالترفع عن الصفة السافلة الهوائية وهي التجسس . ثم بعد أن أكمل درجات التنقية أمر برؤية عدم الفرقية بين المرء وبين إخوانه ، وأن هذا أمر من الله تعالى . وإذا كملت للعبد هذه الخصال

فقد أحكم شأن المعرفة بالله ، ومن هذا السر قول سيدنا « على » كرم الله وجهه ورضى عنه :من عرف نفسه ، فقد عرف ربه .

أى بنى ، إعلم أن العبد بين الله وخلقه إن التفت عنه الى الخلق تجرد عن الحق ، وصار
أى بنى ، ، إعلم أن العبد بين الله وخلقه إن التفت عنه الى الخلق تجرد عن الحق ، وصار
متروكا محروما مخذولا . وإن التفت الى الله عن الخلق ، قربه منه وحبه له ، ولم يحتمل منه الالتفات الى شيء سواه ، فإنه لن نظر الى شيء دونه ، عذبه الله بذلك الشيء ، وجعله وبالا عليه . أما ترى أن إبليس لعنه الله نظر الى نفسه ، وقال عن آدم : أنا خير منه فلعنه ، وقارون نظر الى ماله وقال : إنما أوتيته على علم عندى فخسف الله به وبداره الأرض . وكذلك الملائكة نظروا الى تسبيحهم وتقديسهم ، حيث قالوا : ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . فابتلاهم الله تعالى بالسجدة الى آدم . وكذلك كل من قال : أنا ، يقول الله تعالى : لا بل أنا ، ثم يرده الى أسفل السافلين ، وكل من يقول : أنت الله يرفعه الى أعلى عليين .

والالتفات على وجهين : إلتفات العين والتفات القلب . فالتفات العين مثل ماقال الله تعالى « لمحمد » حبيبه عليه الصلاة والسلام « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به » الآية . ثم من عليه لما عصمه ، حيث قال تعالى « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا » . ثم مدحه بترك الالتفات الى ما سواه فى قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » .. ثم أورثه ذلك الترك الكلى بأن رفع له الحجاب حتى رأى ما رأى .. بخلاف ما حدث لسيدنا موسى كما جاء فى قوله تعالى : « قال رب أرنى أنظر اليك » ، قال أنظر الى الجبل ولن ترانى .. بعد أن نظرت الى غيرى .

***

وفى الحديث الشريف « المرء مع من أحب » .. كانت الجلسة السابعة والعشرون فى « أم عبيدة » وحوله يقول الامام الرفاعى :

فى هذا الحديث الشريف من الالزام بمحبة أحباب الله ورسول الله ﷺ ما فيه من بلاغ للموقنين وهدى للمتقين ونور للعارفين . فان من تدبر سر « المعية » التى افصح بها النص الاشرف ، انسلخ الا من محبة الله تعالى . ومحبة من أحبه الله وأحب الله ، وكذلك العارفون رضى الله عنهم . ومن العارفين من هم أهل القلوب المنيرة ، أصحاب صفاء السريرة والمحدة على القلوب .

***

ويفسر سيدى أحمد الرفاعي الحديث القدسي : « كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ، ومن دخل حصني أمن من عذابي » .. بقوله : هذا الحديث القدسي ، الذي وصل الينا بالسند النبوي فيه من إعظام شأن كلمة التوحيد ما يزيد العبد ايمانا ، ويملؤه عرفانا ، ويلزمه بالمداومة على الذكر بهذه الكلمة التي هي روح التوحيد ، وما على قائلها بعد الايمان يسبقها ﷺ من بأس ، وكونها لذة بالعبد الى الافتقار الى الله تعالى ، والانقهار تحت عظمة فردانيته ، فلذلك صارت حصنا للعبد يأذن الله سبحانه وتعالى ..

***

وحول الحديث النبوي : « إذا راح أحدكم الى الجمعة فليغتسل » .. يقول سيدى الامام « الرفاعي » من درسه أو حديثه الثلاثين :هذا الحديث الشريف فيه من إعظام مناجاة الله الغالية . فإن العبد اذا صلى ناجى ربه ، سيما في الجمعة ومشهدها فإنه من أعظم مشاهد الحضرة ، والاغتسال عبارة عن غسل القلب والقالب من الموجودات .. هذا مع ما فيه من فضيلة التطهر الشرعي . وهذا سر من أسرار الاغتسال . ولم يكن من حكم شرعي الا وفيه من الاسرار الباطنة والظاهرة ما تحيرت له العقول .

***

وحديث آخر للرسول ﷺ يقول : « من ولد له مولود فسماه محمدا تبركا به كان هو ومولوده في الجنة » . يقول الامام « الرفاعي » في الجلسة الرابعة والثلاثين :
في الحديث الشريف من سر الحب له ﷺ ، مايفهمه أهل الخصوصية ، فإنهم يذكر اسمه المباح ترتاح هممهم للتخلق بأخلاقه الزكية ، والتشبث بأذياله ، فتراهم لاتقف هممهم في طريق متابعته وقفة المشغول بالدنيا ، بل هم منتبهون خاشعون ، ومن الله خائفون ، ولنبيهم متبعون ، وبسنته عاملون ، وأولئك هم العارفون .

***

هذا هو بعض فكر سيدى « أحمد الرفاعي » .. وما كان يحدث فيه مع مريديه .
ولا شك أن هذا الفكر لا يتفق مع من ينتسبون الى طريق سيدى « أحمد الرفاعي » ، أو ينسبون هم أنفسهم اليه .. وهم جهلاء ودجالون . إن طريق سيدى « أحمد الرفاعي » طريق الله .. طريق التصوف الحقيقي ، طريق الفقراء الى الله .
وهو طريق من يقول عنه « الامام الشعراني » في طبقاته : « ..اليه انتهت الرياسة في علوم الطريق ، وشرح أحوال القوم ، وكشف مشكلة منازلاتهم ، وتتلمذ له خلق لايحصون ، وهو أحد من قهر أحواله ، وملك أسراره » .
ولقد صدق الامام الشعراني رضي الله عنه ..

ويبقى بعد ذلك أن نقول بعدما أوردنا ان سيدى « احمد الرفاعي » مدفون بقرية « ام عبيدة » فى العراق ، ومقامه الشريف هناك ... فماذا عن مسجد سيدى أحمد الرفاعى فى حى القلعة ؟ !

الواقع أن هذا المسجد يعتبر من أروع الآثار فى مصر الاسلامية . وقد انشىء عام ١٢٨٦ الهجرى ، واستغرق بناؤه عشرين عاما .. وتربو مساحته على عشرة آلاف متر مربع .. ويضم المسجد ضريحين .. ضريح الشيخ على ابى الشباك وقد وفد والده الى مصر عام ٦٨٢ الهجرى . وبالاضافة الى ضريح سيدى على أبى الشباك ، فيضم المسجد أيضا ضريح الشيخ يحيى الانصارى ... وهو أيضا ينتسب الى سيدى الامام الرفاعى .

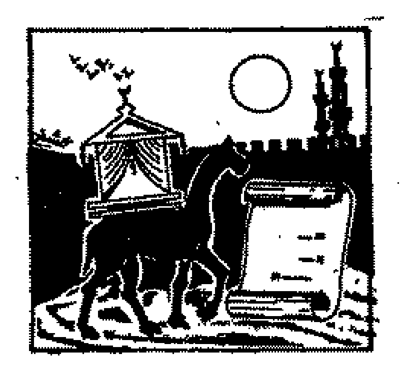
وتقول الدكتورة سعاد ماهر : إن والد أبى الشباك تزوج حفيدة الملك الافضل ، أحد امراء المماليك فى عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون ، فأنجب منها ولده « عليا » . وقد رحل أحمد الصياد ، حفيد الامام أحمد الرفاعى عن مصر قبل أن يولد ابنه على ، فبقى فى كنف أمه وأهلها فى مصر واتخذ طريقة جده ..

وتضيف دكتورة سعاد ماهر : على أن سيدى على أبا الشباك ، حفيد الامام احمد الرفاعى ، لم يكن هو أول من دعا إلى الرفاعية فى مصر ، فقد سبقه الى ذلك الشيخ أبو الفتح الواسطى ، الذى وفد الى مصر ، من العراق فى أوائل القرن السابع الهجرى ..

أعلام
التصوف
الاسلامى

سيدى ابو الحسن الشاذلى

كلام هذا الرجل
قريب العهد من الله



شيخ مهيب الطلعة .. كان كالشباب علما وحياة .
نحيف الجسم من طول التهجد والتعبد والمناجاة .
طويل القامة ، خفيف العارضين ، طويل اصابع اليدين بشكل ملحوظ .
في لسانه فصاحة .. وفي حديثه عذوبة .
وهذا الشيخ كان دائم الاهتمام بزينته وهندامه .
وعلى غير العادة ، لم يكن يتعمد قط ان يأكل الغليظ من الطعام ، او يلبس الخشن من الثياب .

تعجب الكثيرون حينما قال لأحد مريديه : يابني برد الماء ، فانك اذا شربت الماء السخن ، قلت الحمد لله ، تقولها بكزازة .

واذا شربت الماء البارد قلت الحمد لله .. استجاب كل عضو منك بالحمد لله ..

كان يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب .. ويتخذ الخيل الجياد . واذا ركب في المواسم ، يمشي اكابر الفقراء واكابر الدنيا حوله . وتنشر الاعلام والبيارق فوق رأسه وتضرب الكاسات بين يديه .

***

مذهب هذا الرجل كان صرخة جديدة غيرت المفاهيم ، او هي اعادتها الى اصولها . دعا الى طريق متجدد .. طريق الله ، واصبح شيخه وقطبه . وكان طريقه كما وصفه ، ليس بالرهبانية ويأكل الشعير والنخالة ، ولا ببقبقة الصناعة .. وانما هو بالصبر على الاوامر ، واليقين في الهداية ..

ساح في دنيا الاسلام في القرن السابع الهجري . ولم تكن سياحاته من اجل تغيير هواء ، او مغامرات للتسلية .. كانت تلك السياحات هجرة الى الله . ليربي الرجال ، ويتزود بالزاد .

وفي سياحاته ، سكن المغارات وتسلق الجبال وخاض الصحراوات واكل العشب والحشائش ، كما اكل طيب الثمار .

حين زار مصر ، إهتزت الدنيا لزيارته .. وحين استقر بها في مختتم حياته .. سكن أحد ابراج سور الاسكندرية .. وكان المريدون يتزاحمون حوله .. وحين كان يجلس في الاسكندرية في جامع العطارين ، او يجلس في القاهرة في المدرسة الكاملية .. يتكوكب على مجلسه اكابر العلماء ، لازمين الادب والصمت ، مصيخين السمع فاتحين العقول والقلوب .. لانهم تاكدوا بان كلامه « قريب العهد من الله »

ثلاثة وستون عاما عاشها هذا الرجل بين ولادته في المغرب ، وموته على ساحل البحر الاحمر .. وداخله نفس صافية ، امنت بالله وتعمقت الايمان .

كان كما وصفوه في العلم في الغاية ، وفي الزهد في النهاية .

وكان يقول لتلاميذه ومريديه : « إلزم بابا واحدا ، تفتح لك الابواب .. واخضع لسيد واحد ، تخضع لك الرقاب »

وحين كف بصره في أخريات حياته .. لم يعقه هذا .. لأنه كما قال : قد انعكس بصره في بصيرته ، فصار كله مبصرا .

إختارته العناية الالهية ليدعو الى الله على هدى الكتاب والسنة ويحرص على كل مظاهر الدين القويم ، المثبت بسياج الشرع المكين الرجل هو الشريف ، المالكي المذهب ، والقطب الغوث ، ابو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، مؤسس الطريق الذي نسب اليه ، والذي تفرعت عنه عشرات الطرق .

و« الشاذلي » معناه الحرفي هو : المفرد لخدمتي ومحبتي .

***

الرحلة .. طويلة ومثيرة ، كلها مجاهدة .. منذ ولد هذا القطب

في قرية صغيرة بالمغرب الاقصى اسمها « غمارة » .. القرية من سبته ، في عام ٥٩٢ الهجري « ١١٩٦ الميلادي » .. وحتى لاقى وجه ربه في « خميثرا » او « خميثره » على ساحل البحر الاحمر بين « قنا » و« القصير » عام ٦٥٦ الهجري « ١٢٥٨ الميلادي »

وخلال هذه السنوات ـ ٦٣ عاما ـ كتب التاريخ دقائق حياة هذا الشريف المسلم ، احد احفاد الامام الحسن بن الامام على بن ابى طالب .. رضى الله عنهم جميعا . لهث التاريخ وراء سيرته العطرة فى غمارة ، وبغداد ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وشاذله ، وتونس ، والاسكندرية ، والقاهرة . كما لهث التاريخ وراءه أيضا فى الصحارى وداخل القرى والمدن ، وفى بطون المغارات ، وعلى سفوح الجبال وقممها ، وعلى شواطىء البحار .. وبين هذى وتلك تجمع سفر على اقيم ما يكون يضم صولات الرجل وجولاته .. حين عقدت له الولاية والقطبانية .. وصور مجالسه العلماء والسلاطين ، وعلاقاته بالفقراء كما صور لقطات كثيرة من مجالسه فى العلم والمناظرات والمناجيات .

ويقى من هذا الولى الصالح بعد موته فى « خميثرا » .. مريدون كتبوا شذرات من سيرته وحياته وصلت الينا .. أهمها ماكتبه « ابن عطاء الله السكندرى » تلميذ تلميذه « ابى العباس المرسى » ..

له مقام فى تونس .. كذكرى فوق جبال « زغوان »

وقبته التى تظلل جسده الطاهر فى « خميثرا » على شاطىء البحر الاحمر بالاضافة الى انه ايضا له مملكة وسلطان داخل وجدان وقلوب ملايين المؤمنين والمريدين ، والخلفاء ، والاتباع .

سيدى « ابو الحسن الشاذلى » ، رضى الله عنه وأرضاه ، ينتمى الى قبيلة « عمران » فى المغرب ، وهى ذات القبيلة التى ينتمى اليها سيدى « عبد الرحيم القنائى » المدفون فى صعيد مصر ، وهو من أسرة شريفة علوية .. هاجرت مع من هاجروا من المشرق الى المغرب بعد مأساة كربلاء التى استشهد فيها سبط الرسول ، ﷺ .. الامام « الحسين بن على » فى عام ٦١ للهجرة . وهذا يتضح من شجرة نسبه التى اوردها ـ بعد تحقيقها ـ « ابن عطاء الله السكندرى » فى كتابه « لطفاء المنن » فهو ابو الحسن الشاذلى الحسنى : على بن عبد الله عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصى بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن احمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن على بن ابى طالب . هذا من ناحية ابيه .. اما من ناحية أمه فهى تنتسب الى الامام الحسين بن على بن ابى طالب .

فى قرية « غمارة » نشأ فى رحاب الايمان ، واخذ يدرس العلوم الدينية ، ومسائل وغايات . وفتح الله عليه فبرع فى هذه العلوم براعة كبيرة ، شدت اليه ـ وهو حدث صغير ـ الاذهان ..

لكنه لم يكتف بهذه العلوم . فقد ايقن ان العلوم الظاهرة ، مهما بلغت بها الدقة ، ومهما بلغ بها العمق ، لا تفضى بالنفوس الطموح الى التطلع الى عالم الغيب ، واستشراف آلائه وانواره . والنفوس الطموح ، كلما ازدادت علما ازدادت شعورا بالنقص ، وهذا يجعلها تبحث اكثر فاكثر ـ حتى ان الاجسام تتعب فى مرادها ..

كانت نفس « ابى الحسن » رضى الله عنه سباقة طموح

شعر بالرغبة الملحة فى القرب من الله ، وان يستضىء قلبه بانوار المعرفة غير الموجودة فى علوم الظاهر .. وصولا الى الشفافية ، واسرار الباطن .

وتساءل فى نفسه : من اجل ان يتحقق هذا الهدف ، ما هى وسائله ؟

والجواب : انه لا بد ان يبدأ طريقه من خلال استاذ خبير فى هذا العلم الربانى . وفكر . وانتهى به التفكير الى عزمه على السفر الى « بغداد » ، محط انظار طلاب المعرفة فى وقته لأنها تضم كبار الفقهاء ، واعلام المحدثين ، والقمم العالية من الصوفية . كما تضم كبار الساسة والقادة المسلمين .

***

وكان سيدى « ابو الحسن الشاذلى » ، قد استقر رأيه على اختيار طريق التصوف والتبحر فيه ..

وبالفعل التقى الشاب القادم من المغرب ـ غرب عالم الاسلام ـ فى « بغداد » بمجموعة من الاولياء ، وعلى رأسهم الامام ، « ابو الفتح الواسطى » ، امام زمانه وعالم وقته . والذى شهد له « ابو الحسن الشاذلى » بتبحره حين قال : « لما دخلت العراق ، اجتمعت بالشيخ الصالح ابى الفتح الواسطى . فما رأيت بالعراق مثله » .

تصور هذا الشاب القادم من المغرب بقامته الطويلة ، وهو يتردد على « ابى الفتح الواسطى » وغيره من علماء بغداد فى مدارسهم ومجالسهم وهو يبحث ويبحث ، ويفتح اذنيه لكل كلمة تقال . لقد شاهد كثيرا من الانوار على وجوه علماء بغداد ،

والصلاح يرتسم على سيماهم . لكنه ظل قلقا فى بغداد وسط هذا البحر الزاخر . تلتها فى عاصمة العلم والعلماء .. ما هو السبب ؟ !

السبب ـ كما يقول فضيلة الامام الاكبر الدكتور « عبدالحليم محمود » فى كتابه « ابو الحسن الشاذلى الصوفى المجاهد والعارف بالله » انه لم يجد مطلبه الذى جاء من اجله .. لم يجد القطب الذى يمكن ان ينير له « الطريق » ويأخذ بيده اليه .. ويبدو ان « ابا الفتح الواسطى » لاحظ عليه هذا التوتر .. ولهذا كما يقول « ابن الصباغ » فى كتابه « درة الاسرار » قال له هذا العالم ذات مرة : « يبدو انك تبحث عن القطب بالعراق . مع ان القطب ببلادك .. ارجع إلى بلادك تجده » !!

هنا تنفرج أسارير الشاب . ويذهب عنه التوتر . ويعد العدة لرحلة العودة الى بلده .. بعد أن لم يوفق فى اختيار مكان القطب . الذى جعل همه الكبير أن يلتقى به .

ويعود الشاب من حيث أتى .. حيث يجد الرجل . والرجل هو الشيخ « عبدالسلام بن مشيش » يسكن فى مغارة على رأس جبل . ومعه تلميذه الجنيد .

يصف « ابو الحسن » اللقاء بينه وبين « ابن مشيش » . فيقول : « اغتسلت بأسفل الجبل . وخرجت من علمى وعملى . وطلعت اليه فقيرا . واذا به هابط على . وعليه مرقعة . وعلى رأسه قلنسوة من خوص . فقال لى : مرحبا بعلى بن عبدالجبار . وذكر نسبى الى رسول الله ﷺ . ثم قال : يا على .. طلعت الينا فقيرا من علمك ومن عملك . فأخذت منا غنى الدنيا والآخرة .. فأخذنى منه الدهش . فأقمت عنده أياما . الى أن فتح الله على بصيرتى » .

كانت هذه هى البداية الاصطفائية : كما تقول الصوفية . لسيدى « ابى الحسن الشاذلى » . فقد التقى الوارث مع الموروث . أو المريد مع شيخه .

وعلى حد وصف « ابن عياد » صاحب « المفاخر العلية » . فقد كان مقام ابن مشيش فى المغرب . كمقام الامام الشافعى فى مصر .

لقد كان « ابن مشيش » ـ كما يقول على سالم عمار فى كتابه « ابو الحسن الشاذلى » ـ متمسكا بالكتاب والسنة . عاملا بهما . ملتزما لهما . وهو القائل : افضل الاعمال اربعة بعد اربعة : المحبة لله . والرضا بقضاء الله . والزهد فى الدنيا

والتوكل على الله . هذه اربعة . اما الاربعة الأخرى فهي : القيام بفرائض الله ، والاجتنب لمحارم الله ، والصبر عما لايعني ، والورع من كل شيء يلهي .

وكما يصفه صاحب « الدرر البهية » ، كان ابن مشيش الذى التقى به أبو الحسن : هو القطب الاكبر ، والعلم الاشهر ، والطود العالى السنام ، وهو البدر الطالع الواضح البرهان ، الغنى عن التعريف والبيان ، المشتهر فى الدنيا قدره ، والذى لايختلف على « غوثيته » اثنان . فقد قضى عمره فى العبادة ، وقصد للانتفاع به أهل السعادة .

لكن .. ماذا قال « ابن مشيش » « للشاذلى » فى المغارة ، لكى يفتح الله عليه بصيرته ؟

من كلام « ابى الحسن الشاذلى » ، نعرف ان وصية استاذه الاول ، تتلخص ، فيما قال له : حدد بصر الايمان تجد الله فى كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وفوق كل شيء ، وقريبا من كل شيء ، ومحيطا بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، وباحاطة هى نعته . بعد عن الظرفية والحدود ، وعن الاماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات .. وامحق الكل بوصفه : الأول والآخر والظاهر والباطن .. كان الله ولا شيء معه .. » .

« والواقع أن المريد إنبهر بشيخه . إنبهر بعلمه المشيد على الكتاب والسنة ، وانبهر بولايته وكراماته . لقد رسم « ابن مشيش » «لابى الحسن » الطريق ، فيما يستقبله من ايام ، ووضع فيه البذرة التى نمت وترعرعت .

وحين اغترف « ابو الحسن » من استاذه كل ما استطاع ان يغترف .. قال له الاستاذ : ياعلى ، ارتحل الى افريقية ، واسكن بها بلدا تسمى « شاذله » فان الله عز وجل يسميك « الشاذلى » . وبعد ذلك تنقل فى مدينة « تونس » ويؤتى عليك بها من قبل السلطة ، وبعدها تنتقل الى أرض المشرق : وبها ترث القطابه .

وقد كانت آخر وصايا « ابن مشيش » لمريده ، لما حان موعد الفراق ، هى :

« ياعلى .. الله الله .. والناس الناس . نزه لسانك عن ذكرهم ، وقلبك عن التمايل من قبلهم . وعليك بحفظ الجوارح واداء الفرائض . وقد تمت ولاية الله عندك . ولا تذكرهم الا بواجب حق الله عليك ، وقد تم درعك » .

وهنا يفترق « ابو الحسن » عن استاذه ، ويسير فى طريقه المرسوم .. حتى ليقول مؤرخوه ، ان كل ما قاله « ابن مشيش » ، « لأبى الحسن » وكل ما توقعه قد تحقق .

***

حث « ابو الحسن » الخطى الى « شاذله » .. وصعد هناك الى جبل « زغوان » .. وصعود الجبل هنا ـ كما أراه ـ يرمز الى بداية علو مقدار سيدى « ابى الحسن » . أى انه بدأ الطريق المتصاعد .

وقد وافق « ابا الحسن » فى صعود الجبل ، « ابو محمد عبدالله بن سلامة الحبيبى » ، من اهل « شاذله » ، وكان رجلا تقيا صالحا .

ويفسر د . « عبدالحليم محمود » هذه الرحلة الى الجبل .. ويعود بها الى فائدتين بالنسبة لأبى الحسن الشاذلى :

الفائدة الأولى : هى اتاحة الفرصة لتفرغه للعبادة . ولابد من هذا التفرغ مادام الانسان لم يأته الاذن بالدعوة . لابد من التفرغ ، لاستكمال نقص ، أو للبعد عن الفتنة أو للتغلب على آثار هوى . ولابد من هذا التفرغ استجماما روحيا ، وعلاجا نفسيا ، وبعثا لكوامن الفضائل ، ولابد للتفرغ ليرقى مدارج السالكين ، وليحقق العروج فى مدارج القدس ، وليسرع الخطى متدرجا فى منازل الارواح ، ولابد من التفرغ ، فرارا الى الله « **ففروا الى الله** » و .. « **وعجلت إليك رب لترضى** » .

اما الفائدة الثانية : من الذهاب الى جبل زغوان ، فانها منع اللاهين المتطفلين من الجلوس على مائدة الشيخ الروحية . ذلك انه سوف لا يذهب الى جبل زغوان لرؤيته الا محب للمعرفة ، جاد فى طلبها .

والواقع ان سيدى « ابا الحسن » أخذ يتعبد فى الجبل فترة طويلة ، وكان الوحيد معه فى هذه الفترة ، الشيخ الصالح « ابو محمد الحبيبى » .

وكانت حياتهما فى الجبل على نبات الأرض وأعشابها ، حتى انه كثيرا ما كانت اشداق « الحبيبى » تتقرح ، فيشفق عليه « ابو الحسن » ويهبط من الجبل الى « شاذله » ليجد له الغذاء الذى لايفريه . ويقال ان سيدى « الحبيبى » قد شهد فوق الجبل من استاذه احوالا ومقامات كثيرة .

وحياة كهذه ، كما يرى د . « عبدالحليم محمود » ، لابد لها من أن تثمر . لابد لها من ثمارها من الكرامات ، ومن شفافية النفس ، ومن القرب من الله ومن رضوانه سبحانه ، ويقال ان الله سبحانه أنبع لسيدى « ابى الحسن » وسيدى « الحبيبى » فى الجبل عينا تجرى بماء عذب ليشربا منها .. وهذا ليس بغريب فى مثل هذه الحالة .

ان المريدين الصادقين ، فى اول طريقهم الى الله ــ كما يرى الامام « الغزالى » فى « المنقذ من الضلال » « تتبدى لهم المكاشفات والمشاهدات ، حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ، ويسمعون منها أصواتا ، ويقتبسون منها فوائد » .. وهذا وأكثر منه حدث « لأبى الحسن » .. ورواه سيدى « ابو محمد الحبيبى » .

***

وتنتهى فترة العزلة ، فترة التدريب والصقل الروحى ، لينزل « الشاذلى » من جبل زغوان الى تونس ، حين سمع النداء : « ياعلى : اهبط الى الناس ، ينتفعوا بك » . وفى « تونس » سكن « الشاذلى » فى مسجد « البلاط » دارا تفتح القبلة .

والحقيقة التاريخية ، انه بمجرد أن دخل « تونس » ، التف حوله جماعة من الفضلاء ، ومنهم الشيخ أبو الحسن على بن مخلوف الصقلى ، وابو عبدالله الصابونى ، وابو محمد عبدالعزيز الزيتونى ، وأبو عبدالله البجائى الخياط ، وابو عبدالله الجارحى . وهؤلاء كلهم ، ومن بينهم الشيخ ماضى أبو العزائم تلميذ الشيخ وخادمه ــ كما وصفهم ابن الصباغ ــ أصحاب كرامات ومكاشفات .

ويوما بعد يوم كثر المريدون حتى اجتمع على ابى الحسن خلق كثير ...

وفى « تونس » ايضا .. دخل ابو الحسن على « ابى سعيد الباجى » ، رحمه الله ، فأخبره بحاله قبل ان يبديه « ابو الحسن » وتكلم عن سره .. حتى ان « ابا الحسن » وصف هذا الشيخ بقوله : « فعلمت انه ولى الله تعالى ، فلازمته وانتفعت به كثيرا » .

لكن كثرة المريدين أوغرت صدر قاضي قضاة تونس « ابن البراء » ، مما جعله يحقد على « أبي الحسن » ، ويعلن الحرب عليه ويكيد له . وكان « ابن البراء » في تونس فقيها ، ويعتبر نفسه زعيما بلا منازع في عهد السلطان « ابي زكريا » . كان يتخيل أن له شعبية ، مع ماله من منصب رسمي . وصور له خياله المريض ، ان « ابا الحسن » إنما جاء « تونس » لينتزع منه جاهه وزعامته .

وقال « ابن البراء » للسلطان : ـ ان ملكك في خطر من هذا الرجل .

ويبدو أن « ابا زكريا » اراد ان يتحقق من كلام قاضي القضاة ، فجمع كوكبة من الفقهاء في « القصبة » وجلس هو خلف حجاب يسمع ما يقوله « ابو الحسن » وما يقولونه له . وقد خرج « ابو الحسن » من هذا الامتحان شيخا مهيبا ، وان كان لايزال في شرخ الشباب والفتوة . شعر السلطان ـ ومعه الفقهاء ـ في كلام « ابي الحسن » نضجا في العلم والتفكير ، وروحانية في الحديث ، وشفافية في البصيرة . ولذلك قال « لابن البراء » : هذا رجل من اكابر الاولياء ، ومالك به طاقة .

لكن « ابن البراء » لايستسلم ، ويلوح للسلطان بالخطر على عرشه من « ابي الحسن » ، ويقول له : « والله لئن خرج في هذه الساعة ، ليدخلن عليك اهل تونس ، ويخرجونك من بين اظهرهم ، فهم مجتمعون على بابك » .

ويخاف السلطان ، فيستبقي « ابا الحسن » ، ويأذن للفقهاء بالخروج . هنا يجلس « ابو الحسن » ساكنا هادئا ، ويطلب ماء وسجادة ، فيتوضأ ويصلي .

لكن تحدث أشياء في قصر السلطان . تموت جاريته المفضلة لديه . ثم بينما هو يسير في جنازتها تحرق النار كل ما في قصر السلطان . وهنا ـ كما يقول الدكتور « عبدالحليم محمود » ـ يدرك السلطان انه اصيب من قبل هذا الولي .

وفي رواية اخرى ، يقولون ان السلطان حين ابقى « ابا الحسن الشاذلي » جاءه احد طلابه يبكي ، فقال له « ابو الحسن » : والله لولا اني اتأدب مع الشرع ، لخرجت من ههنا ومن ههنا . وأشار بيده . وكلما أشار إلى جهة انشق الحائط . ثم قال لمريده : إئتني بإبريق وسجادة ، وسلم على اصحابي ، وقل لهم ما نغيب عنكم الا اليوم ، وما نصلي المغرب الا معكم ، ثم تأتي بقية القصة التي ذكرناها ...

ومن عجب أن اخا السلطان ، وكان من مريدى « ابى الحسن » كان قد خرج إلى اطراف المدينة لقضاء بعض الوقت ، فلما عرف بما حدث للشيخ غضب على أخيه السلطان ، وأخذه الى « ابى الحسن » ، ليسترضيه .

لكن ماذا عن « ابن البراء » ؟ . يقولون انه فى اخريات حياته منى بالكثير ، ولم يختم له بخير . اذ ان « ابن البراء » لم يكف عن الايذاء ، حتى كان « ابو الحسن » يقابله ويلقى اليه السلام فلا يرد عليه .. وكان « ابو الحسن » ايضا يقابل الاساءة بالمعروف والصفح ..

عزم « ابو الحسن » على اداء فريضة الحج ، فامر اصحابه بالنقلة الى المشرق قبل موعد الحج بزمن طويل لتتاح له فرصة يمكث فيها بمصر فترة ، قبل الذهاب الى الديار المقدسة . ولما علم السلطان « ابو زكريا » بعزم « ابى الحسن » على الرحيل ، ذهب يرجوه العودة بعد الحج . وقد وعده « ابو الحسن » ، وقال له : ماخرجت الا بنية الحج ان شاء الله ، ولكن اذا قضى الله حاجتى اعود ان شاء الله » . ونهضت تونس تودع الشيخ وركبه .

لكن قبل أن يدخل « ابو الحسن » واصحابه « الاسكندرية » ، كان قد سبقه عقد من « ابن البراء » الى سلطان مصر ، يقول فيه إن القادم اليكم شوش علينا بلادنا ، وكذلك يفعل فى بلادكم . وهذا العقد موقع عليه من شهود ولذلك فبمجرد ان نزل « ابو الحسن » الاسكندرية ، حددوا إقامته هناك .

على ان « ابا الحسن » لم يعبأ بذلك ، حتى انه حين اتى اليه بعض العربان يشكون له جور السلطان ، وعدهم خيرا . وقد خرج « ابو الحسن » من « باب سدرة » يقصد السلطان بالقاهرة ، أمام جند الحراسة .. دون أن يشعروا به وبرجاله . وفى القاهرة ذهب « أبو الحسن » الى القلعة ليلتقى بالسلطان .. الذى قال له : جئت تشفع فى القبائل .. اشفع فى نفسك ؟ وأطلعه على خطاب « ابن البراء » اليه .

وتقول الرواية ان ابا الحسن رد على السلطان بقوله : « انا وانت والقبائل فى قبضة الله » . ثم قام ومشى قدر العشرين خطوة . فلما حركوا السلطان لم يتحرك أو ينطق .. فهرولوا على الشيخ يقبلون يده ويطلبون الصفح . فرجع الى السلطان وحركه فتحرك . وهنا ينزل السلطان من على كرسيه معتذرا لأبى الحسن ، ويكتب لواليه على الاسكندرية ان يرفع الغبن عن القبائل ، ويرد اليهم جميع ما أخذ منهم .

لم يمكث « ابو الحسن » كثيرا بالقاهرة .. وانما واصل الرحلة الى الحج حيث ادى الفريضة ، وقام بزيارة رسول الله ﷺ ، ويقول « ابن الصباغ » ، إن « ابا الحسن » حين قدم الى المدينة ، وقف على باب الحرم من أول النهار الى نصفه عريان الرأس حافى القدمين ، يستأذن رسول الله ﷺ . فسئل لماذا ؟ فقال : حتى يؤذن لى . ثم سمع النداء فدخل . ووقف خاشعا أمام الروضة الشريفة يصلى ويسلم على رسول الله .. كما يصلى ويسلم على أبى بكر وعمر ...

***

وبعد رحلة الحج عاد الى تونس .. حيث لم تهدأ فيها ثورة « ابن البراء » عليه بل انها ــ كما يقول الدكتور « عبدالحليم محمود » ــ زادت بنسبة زيادة انوار الشيخ ، وزيادة اتباعه !

وفى تونس هذه المرة التقى بـ « أبى العباس المرسى » . وحينما رآه قال قولته الشهيرة : « ما ردنى إلى تونس الا هذا الشاب » .. يعنى هذا أنه كان زاهدا فى العودة . ولذلك فبعد ان عثر على خليفته .. استمر الشيخ لايبالى بمكائد « ابن البراء » حتى اذن له بالسفر الى الديار المصرية .. بعد أن رأى النبى ﷺ فى المنام يقول له : « يا على انتقل الى الديار المصرية ، تربى فيها اربعين صديقا » .

فى الاسكندرية أقام الشيخ ببرج من ابراج السور ، حبسه السلطان عليه وعلى ذريته تبركا ، وقد تزوج الشيخ من الاسكندرية ، وانجب ذرية صالحة . وقد عاش فى الاسكندرية ، هادىء النفس منقطعا لعبادته ودعوته . وفى خطاب بعثه إلى بعض اصحابه يصف « ابو الحسن » مقامه فى الاسكندرية ، يقول : « الكتاب اليكم من الثغر حرسه الله ، ونحن فى سوابغ نعم الله نتقلب .. واما الاهل والاولاد والاصهار والاحباب ، ففى سوابغ نعم الله يتقلبون ، وبإحسانه ظاهرا وباطنا مغمورون » .

لقد كانت اقامة « ابو الحسن » فى مصر ، مصداقا لما نودى به حين دخلها : ياعلى ، ذهبت ايام المحن ، واقبلت ايام المنن . عشر بعشر ، اقتداء بجدك ﷺ .

وكانت مصر تعتز حينئذ بمجموعة من أكرم العلماء ، وافضلهم علما وخلقا وصلاحا ، مجموعة وهبت نفسها لله واسلمت قيادها له ، فأحاطها الله بعنايته وتكفلها برعايته . وقد استقبلت هذه المجموعة « أبا الحسن » أجمل استقبال ، ورافقته متتلمذة عليه ومتآخية .. وتيسرت السبيل ليقوم « ابو الحسن » بدعوته فى الكثير من مدن مصر . وكان يحضر مجلسه اكابر العلماء من أهل مصر ، ويرافقونه فى جولاته ،

مثل العز بن عبدالسلام وتقى الدين ابن دقيق العيد ، وعبدالعظيم المنذرى ، وابن الصلاح ، وابن الحاجب ، وجمال الدين بن عصفور . وتبيه الدين بن عوف .. وغيرهم .. وهؤلاء كانوا ـ على الأخص ـ يواظبون على حضور درسه بالمدرسة الكاملية بالقاهرة ملازمين الادب ، مصيخين له ، متتلمذين عليه .

كانت اقامة الشيخ فى مصر .. فترة خصبة من حيث الدعوة ، ومن حيث الرجال .

وفى أخريات حياته إمتحنه الله بكف بصره ، ولكنه استقبل الدنيا بالرضا والتقبل . وصور ذلك بصورة رائعة حين قال لتلميذه ابى العباس المرسى : « لقد انعكس بصرى فى بصيرتى ، فصرت كلى مبصرا » .

وقبل أن يلقى ربه .. كان يخرج الى الحج فى كل عام . وفى طريقه الى الحج آخر مرة ، وعند قنا ، قال لخادمه : استصحب فأسا وقفة وحنوطا ، وما يجهز به الميت ، وفى حميثرا سوف ترى .

ولما أحس الشيخ بدنو أجله : أوصى اصحابه بأشياء ، كما أوصاهم بحزب البر ، وقال لهم : « حفظوه لأولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم » .

وفى ليلة وفاته .. اعطى القطبانية « لأبى العباس المرسى » ، ولم يعطها لواحد من ابنائه . ثم بات ليلته متوجها الى الله تعالى ذاكرا .. وكان أصحابه يسمعونه وهو يردد « الهى .. الهى » .. فلما كان السحر سكن ، ولفظ أنفاسه . فجاء « أبو العباس » وغسله وكفنه ، وصلى الجميع عليه .. ثم استأنفوا رحلة الحج تنفيذا لوصيته ..

وفى موت الشيخ .. حدث حادث جلل فى بلاد الإسـلام ، فقد هجم « التتـار » على عاصمة الخلافة الإسلامية .. بغداد .. وقتلوا الخليفة وذبحوا المسلمين ، وحرقوا مكتبة بغداد الزاهرة ، وألقوا بكتبها فى نهر « دجلة » وكانت محنة فى عالم الاسلام .

.. فهل هناك خيط يربط بين صعود روح أبى الحسن الشاذلى الى الملأ الأعلى ، وبين حادث بغداد ؟ ! .. ربما ، وهذا يحتاج لتعليل .

***

دخل على « أبى الحسن » فقير « صوفى » وعليه لباس من شعر . وأمسك الاعرابى بملابس « أبى الحسن » ، وقال له : « يـاسيدى .. ماعبدالله بمثل هذا

اللباس عليك » . يقصد لماذا لايلبس « ابو الحسن » الخشن من الثياب . ولاعبد الله بمثل هذا اللباس عليك ، لباسي يقول : انا غني عنكم فلاتعطوني . ولباسك يقول : انا فقير اليكم فاعطوني .

وكما يعقب « إبن عطاء الله السكندري » في « لطائف المنن » على هذه الواقعة فيقول : وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضي الله عنهما ، وطريقة اصحابهما . الإعراض عن لبس زي ينادي على سر اللابس بالإفشاء ، ويفصح عن طريقه بالابداء ، ومن لبس الزي فقد ادعى .

وليس معنى ذلك أن الشاذلية تنتقد أزياء الفقراء ، وإنما لاحرج على هذا الزي « ما على المحسنين من سبيل » .

وفي إحدى المرات أراد « أبو العباس المرسي » ، أن يأكل الخشن ويلبس الخشن . فقال له شيخه أبو الحسن : « اعرف الله وكن كما شئت .. ومن عرف الله فلا عليه ايضا إن أكل هنيئا وشرب مريئا » .

ومن كلام « أبي الحسن » المشهور عنه : يابني برد الماء .

وفلسفة أبي الحسن من أخذ من الطيبات تتضح فيما يقوله لمريده : « يابني برد الماء ، فإنك اذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله ، تقولها بكزازة . واذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب كل عضو منك بالحمد لله » .

وهذه الفلسفة ، في الواقع ، تهدف الى إتاحة الأسباب لكل مسلم إلى أن يؤدي حق الله تأدية على أكمل وجه .

ولذلك يقول الأستاذ « سالم عمار » في كتابه : « كان الشاذلي يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الجياد ، ويتخذ الخيل الجياد » . « والله جميل يحب الجمال » .. ويحب ايضا أن تظهر نعمته عليكم .

والمهم أن مذهب « الشاذلية » ، لكل من يتعمق ويتقصى في تتبعه ، هو الاعتدال .. ولا اسراف . ويقول « ابو الحسن » : « لاتسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها ، او تنحل أعضاءك لها فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة او بالفكرة او بالارادة او بالحركة » .

***

وكان الهم الاكبر لـ « ابي الحسن » ، كما يرى سيدي « عبدالوهاب الشعراني » في « طبقاته » انه جهد جهادا شاقا .. من أجل الفناء في اختياره مع الله .. ومن أجل

الوصول الى هذه المرتبة ، التى لايتأتى أن ينالها فى بدء حياته السائرة الى الله . وانما يأتيها بعد المجالدة ، وتواصل الجهد والاجتهاد .

ولقد كان الجانب العلمى من العناصر الأولى ، التى حددت شخصية « ابو الحسن » وفى نفس الوقت ، فان مجموع جهوده فى هذا المجال تدلل على ماذكرناه . لقد بدأ الدراسة والتحصيل صغيرا . تثقف على الطريق العادى فحفظ القرآن ودرس السنة كما درس العلوم الدينية . وتدرج فى هذه العلوم سلما وراء آخر .. ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها ويشرحها وينصح بقراءتها لمن يريد أن يصل .

ومن الكتب التى كان « أبو الحسن » يعيش معها وفيها و يهتم بها كما يقول د . عبد الحليم محمود :

١ — كتاب « ختم الأولياء » للحكيم الترمذى . وهو الكتاب الذى اقام الجو الثقافى عند صدوره ، وكان سببا فى صعوبات كثيرة واجهها مؤلفه ، بسبب الآراء التى احتوى عليها . وقد بلغ هذا الكتاب فى اهميته ، حتى أن محيى الدين بن عربى ، أفرد له كتابا خاصا ، وصفحات أخر فى كتابه « الفتوحات » ... حاول فيها أن يجيب عما ورد فيه من أسئلة وقضايا وكان « ابو العباس المرسى » لأهمية هذا الكتاب بالنسبة اليه خاصة ، و الصوفية بعامة .. يحرص على حضور دروس « الشاذلى » وتفسيراته فى موضوع هذا الكتاب .

٢ — كتاب « المواقف والمخاطبات » للنفرى . وهو كتاب فريد فى بابه . فهو يعبر عن حالات روحية عالية .. لايتأتى لغير ذوى الأذواق العالية فهم الكثير منها . ولهذا كان أبو الحسن دائما يحاول التيسير على تلاميذه .. بفتح مغاليق هذا الكتاب ، لكل من يعزم على استشراف عالم الحكمة .

٣ — كتاب « قوت القلوب » لإبن المكى . وهو الكتاب الذى وصفه أبو الحسن وصفا يدل عليه ، اذ قال عنه انه « يورث النور » .

٤ — ومثله كتاب « الإحياء » .. للامام الغزالى .. وهو يورث العلم .

٥ — الرسالة القشيرية .. وفيها مافيها من أبواب ، مثل الجهاد والحرية وكل مايهم المسلم الصحيح .

٦ — وكتاب « الشفاء » للقاضى عياض .. وهو الكتاب البلسم .

٧ — وكتاب « المحرر الوجيز » لابن عطيه .. ويعرفه أغلب الصوفية .

كان العلم عند « ابي الحسن » من عناصر شخصيته .. لدرجة أنه اعتبر الجهل به ، والرضا بهذا الجهل من الكبائر ، لهذا فمن المحاذير عند الشاذلية « **لاكبيرة عندنا اكبر من اثنين .. حب الدنيا بالإيثار ، والمقام على الجهل بالرضا** » .. لأن حب الدنيا أساس كل خطيئة ، والمقام على الجهل أصل كل معصية .

لقد افاض المؤرخون والكتاب والأدباء والشعراء فى علم « ابى الحسن الشاذلى » وسياحاته ومجاهداته ، بل مجالداته فى تحصيله من كل مصادره واشادوا ايضا باصالة « ابى الحسن » وعمقه . فان « ابن عطاء الله السكندرى » يصف « أبا الحسن » بأنه فى علوم المعارف الإلهية كان قطب رحاها وشمس ضحاها ، كما كان عالما عارفا بالعلوم الظاهرة . جامعا لدقائق فنونها ، ومفتضا لأبكار المعانى .. !

و« ابن عياد » صاحب المفاخر العلية يصفه بانه هو صاحب الاشارات العلية والعبارات السنية . جاء فى طريق القوم بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب الذى جمع بين العلم والحال او الهمة والمقال . وتخرج بصحبته جماعة من الاكابر ، مثل ابى العباس المرسى ، وابى العزائم ماضى .. وغيرهما .

والامام « البوصيرى » يصف « أبا الحسن » بأنه « بحر العلم » وقال فيه قصيدة تعبر عن ذلك ، نجتزىء منها هذه الأبيات التى تقول :

اما الامام الشاذلى طريقه
فى الفضل واضحة لعين المهتدى
قطب الزمان وغوثه وإمامه
عين الوجود لسان سر الموجد
ساد الرجال فقصرت عن شأوه
همم المآب للعلا والسؤدد
اومـا مررت على مكان ضريحه
وشممت ريح الند من ترب ندى
ووجدت تعظيما بقلبك لو سرى
فى جلمد سجد الورى للجلمد
فقل السلام عليك يابحر الندى
الطامى وبحر العلم ، بل والمرشد

الصوفية ، ليست انعزالا ، وليست خوفا من الموت . وهي ليست كسلا وتواكلا ، كما يحاول أعداء الإسلام أن يشيعوا عنها ذلك . إنها ببساطة عكوف على العبادة الأصيلة تستهدف مرضاة الله ، ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إنها المعرفة والتوحيد .

وكما يرى « ابن خلدون » في التصوف ، فهو يقول : وأصله العكوف على العبادة والانقطاع الى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق للعبادة . كان ذلك عاما في الصحابة والسلف .. ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده . وجنح الناس الى مخالطة الدنيا ، إختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية ..

ويقول الدكتور محمد مصطفى حلمي ، رحمه الله : إن التصوف علم الاخلاق وعلم النفس كذلك .. كما كان الإمام الغزالي يقول عن التصوف : إنه يؤدي الى السعادة ، التي وعد الله المتقين بها ، وهي المعرفة والتوحيد .

ويقول احمد توفيق عياد في كتابه « التصوف الإسلامي » : إنه فلسفة الإسلام الدينية ، وهو اقوى المحركات الروحية في تاريخ التمدن الإسلامي وتطور العقلية الإسلامية .

فالصوفية إذن عمل ، وعمل دائب ومتواصل ..

وهي كفاح وصبر وجهاد . كما انها عزة نفس

وهي هجرة دائمة الى الله

وهي كذلك تدريب النفس على العبودية ، وردها لأحكام الربوبية ، كما يقول « الشاذلي » .

وحياة « أبي الحسن » وعلمه .. قد ظهرت ، وكأنها معول يهدم ما يبنيه أعداء التصوف من شبهات حوله . ويستدل د . « عبد الحليم محمود » على ذلك بما حدث أيام جاء « أبو الحسن الشاذلي » ليقيم في مصر . لقد كان وجود أبي الحسن في مصر ، في منتصف القرن السابع الهجري ، عاملا هاما في تصحيح المفاهيم الخاطئة التي رسخت عن الصوفية والطريق ، ويأتي الاستدلال على ذلك .. مما قاله الشيخ مكين الدين الاسمر ، بعد أن شاهد أبا الحسن وجلس اليه واستوعب فكره ورسالته ، يقول الشيخ مكين الدين الاسمر : « مكثت اربعين سنة يشكل على الأمر في طريق القوم ، فلا اجد من يتكلم عنه ، او يزيل عني اشكاله .. حتى ورد الشيخ ابو الحسن الشاذلي ، فازال عني كل شيء اشكل على .. انهم يدعون الى باب الله . و ابو الحسن يدخلهم على الله تعالى »

لقد جاء « ابو الحسن » بالصحيح ، وغير المفاهيم الخاطئة عن الصوفية والطريق .

***

ولقد عاصر « ابو الحسن » عصر « الظاهر بيبرس » وهو عصر تهددت فيه مصر بجيوش الصليبيين في أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري . وكانت حملة الصليبيين بقيادة « لويس التاسع » ملك فرنسا ، قد احتلت مدينة دمياط ، وتعد العدة لاحتلال المنصورة في الطريق الى القاهرة . وهبت مصر تستعد لدفع الخطر الصليبي ، وتجيش الجيوش لملاقاته .. في المعركة الفاصلة التي أعد لها الظاهر بيبرس ، الذي لم يكد يغمض له جفن ، ولايذوق النوم الا غرارا .

وقد كان جند المسلمين في المنصورة على روح معنوية عالية ينتظر ملاقاة جيوش أوربا الصليبية . والروح المعنوية التي علت ، لم تأت فقط لأن الجنود كانوا يشعرون أنهم تحت قيادة قائد همام ... وانما جاءت كذلك بفضل طريق آخر هو « التعبئة المعنوية » بمفهوم العصر الحديث . والتعبئة المعنوية من اختصاص العلماء والاولياء ورجال الله . وكانت مصر وقتها تضيء بشموس الكثيرين منهم ، وعلى رأسهم العز بن عبد السلام ، ومجد الدين القشيري ، ومحيي الدين بن سراقة ، ومجد الدين الأخميمي .. وابو الحسن الشاذلي بالطبع .. وغيرهم كثير .

هؤلاء العلماء لم يقعدوا في بيعهم وصوامعهم بعيدا عن الخطر ، وانما هبوا للجهاد في سبيل الله . هاجروا إلى قلب المعركة ، إلى المنصورة ، ليكونوا وسط الجنود . ومع أن ابا الحسن الشاذلي كان قد كف بصره ، ولإيمانه بأن الاسلام دين كفاح وجهاد – كما يقول علي سالم عمار – فقد ظل مع قرنائه من العلماء يسيرون بالنهار وسط الجند بسمتهم الملائكي ، يحثونهم على الجهاد ويبشرونهم بإحدى الحسنيين : النصر او الجنة .

هذا في اوقات النهار ..

اما في الليل فقد كان لهؤلاء العلماء الافاضل عمل آخر . كانوا يجتمعون في مجلس بإحدى الخيام ، يتعبدون ويتجهون الى الله بدعائهم وصلواتهم يلتمسون منه النصر ، فاذا ما فرغوا ظلوا يتدارسون الكتب .. كانوا في الواقع جندا بالنهار وجيشا بالليل .

وفي إحدى الليالي وكانوا يتدارسون « الرسالة القشيرية » .. وفيها ما فيها من أبواب ، مثل باب الحرية ، وباب الفتوة .. وهم مشغولون بالمعركة اذ يقص عليهم

« أبو الحسن » رؤيا شاهدها حول حالة المسلمين فى المنصورة وملخص هذه الرؤيا ، انه رأى « فسطاطا » لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وان الرسول عليه الصلاة والسلام قال له : لاتهتم كل هذا الهم من اجل ثغر دمياط .. وطمانه بان النصر حليف المسلمين ..

وبالفعل كان نصر المسلمين المؤزر فى معركة المنصورة . وتم أسر « لويس التاسع » وكبار قادة الحملة الصليبية . وقد وضع « لويس » أسيرا مكبلا بالقيود فى دار « ابن لقمان » - الشهيرة - بالمنصورة ، التى خلدها الشاعر « ابن مطروح » بقصيدته العصماء .

والواقع ان الصوفية كان لهم دور كبير فى معارك الجهاد الإسلامى .. كانوا دائما يعلون بقدسية الجهاد فى ساحات القتال .. لأن الجهاد من الفضائل الكبرى . وصدق « ابو الحسن الشاذلى » حين قال : « من ثبتت ولايته من الله ، لايكره الموت » . وبالفعل فان الصوفى الحق هو الذى يستشهد فى سبيل عقيدة الاسلام ، وفى سبيل رفع راية الاسلام عالية خفاقة ..

ومثل الكفاح فى الحروب .. يتوازى الكفاح فى العمل .

كان شيوخ الصوفية يكرهون المريد المتعطل ، والمريد الذى يسأل الناس .. وكانوا يحثوت على طريق ابواب العمل .. فالمؤمن المجاهد ، خير من المؤمن القاعد .. ولهذا كانت حياة « ابو الحسن » نموذجا لمريديه . فقد كان يعمل بالزراعة على نطاق واسع فى ثلاثة مواقع .. وكان يربى حيوانات الحرث والدرس . وكان دائما يقول لمريديه : « عليكم بالسبب ، وليجعل احدكم مكوكه سبحته » .. اى عليكم بالعمل والسعى وراء الرزق ، وليجعل احدكم تحريك اصابعه فى الخياطة او الضفر سبحته ..

ومع العمل كانت عزة نفس المؤمن : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » . ومن هنا ما اثر عن « أبى الحسن » - كما جاء فى كتاب على سالم عمار - من انه كان يلبس فاخر الثياب ويركب فاره الدواب ، ويقتنى الخيل الجياد . فلباس الفقر ينادى على صاحبه بالفقر ، كأنه يقول للناس اعطونى . وواجب الصوفى أن يكون عزيز النفس بالله ..

والصوفية ليست رهبنة إنعزالية .. يقول « ابو الحسن » : « ليس هذا الطريق بالرهبانية ، ولاباكل الشعير والنخالة .. وانما هو بالصبر على الأوامر واليقين فى الهداية » .

ولقد أضاف « الشاذلى » للصوفية شيئا آخر .. هو ضرورة السعى فى مصالح الناس . ولهذا لم يكن يتورع أو يقعد عن نجدة مظلوم . ومن أجل ذلك كثرت شفاعات « ابى

الحسن » عند الأمراء والسلاطين للذين لاجاه لهم وللضعفاء وذوى الحاجات على مختلف الوانهم ، وحتى الطلبة منهم . صار هو لهم محاميا وشافعا ومدافعا . حتى أنه من كثرة شفاعاته ومدافعاته — كما يقول « ابن دقيق العيد » — جهل ولاة الأمور بقدر الشيخ .. »

وكان أبو الحسن — كما روى عنه — قبل أن يتشفع فى مظلوم أو فقير ، ويمشى فى شفاعته يردد دائما : « اللهم اجعل مشيي اليه — الى من عنده الشفاعة — تواضعا لوجهك وابتغاء لفضائلك ونصرة لك ولرسولك ، وزينى بزينة الفقراء المهاجرين ، الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون »

وطريقة التشفع هذه عند « أبى الحسن » .. يمكن أن يكتب عنها كتاب للشفاعات فهى شفاعات الصدق . فهو مثلا حين يقول « وزينى بزينة الفقراء المهاجرين » .. يطلب من الله أن يكون فى حالة المتشفع ، وهو سائر الى الشفاعة .. حتى يحس بإحساسه وتكون شفاعته على أكمل وجه .. وهكذا .

وهو يطلب من الله أن يكون متواضعا هادئا فى عرض الشفاعة .. حتى لاتنقلب الشفاعة الى ضدها فيتخذ السلطان من الفقير موقفا أقسى مما اتخذه .

وهو كذلك ... حينما يسير الى الشفاعة .. يسير الى نصرة الحق ...

ومن واجب كل مسلم أن يهب لهذه النصرة .. والاصار متقاعسا عن واجب ، وهذا ليس من الخلق الاسلامى فى شيء ..

ولايعتقدن أحد .. أن أبا الحسن ـ على كثرة ماقام به من شفاعات ... أنه قام بها للسمعة وللشهرة .. فهم يقولون إنه قبل ان يتشفع كان يتحرى الدقة ويدرس قضية المتشفع .. ويرصد الأحوال ، ويختار الحال المناسب ... وهكذا .

***

يخصص الإمام الاكبر ، الدكتور « عبدالحليم محمود » فى كتابه عن أبى الحسن ، فصلا عن « جو » أبى الحسن الروحى .. حاول ان يعطى فيه للقارىء صورة تعب هو فى رسم أطرها لقلة المصادر عن أبى الحسن . فقد كان أبو الحسن عندما يسأل : اين كتبك ؟.. يجيب : « كتبى أصحابى » . لكن الصحاب يعيشون حياة ، والحياة تنتهى والتاريخ لايسجل الا المكتوب بين الصحائف ...

ومما يذكر الدكتور « عبد الحليم محمود » عن « أجواء » أو « إشارات » سيدى « أبي الحسن الشاذلي » ، إليك بعضا منها ، وهي بالإضافة الى انها تقترب من فكر أبي الحسن وحياته ، فهي أيضا تعتبر هاديا ومرشدا للمسلمين في جميع العصور . ومن هذه « الأجواء » .. أو « الإشارات » :

● سئل أبو الحسن ، رضى الله عنه عن تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » .. فقال « النقض لما انبرم » .

●● قال أبو الحسن :

● أن أردت الصدق في القول ، فأكثر من قراءة « انا انزلناه في ليلة القدر » .

● وان أردت الاخلاص في جميع أحوالك ، فأكثر من قراءة « قل هو الله أحد » .

● وان أردت تيسير الرزق ، فأكثر من قراءة « قل أعوذ برب الفلق »

● وان أردت السلامة من الشر ، فأكثر من قراءة « قل أعوذ برب الناس »

● اذا كثرت عليك الخواطر والوساوس ، فقل : سبحان الملك الخلاق « ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز » .

● اذا ثقل الذكر على لسانك ، وكثر اللغو في مقالك ، وانبسطت الجوارح في شهواتك ، وانسد باب الفكرة في مصالحك ، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك ، أو لكمون ارادة النفاق في قلبك . وليس لك طريق إلا التوبة والاصلاح والاعتصام بالله ، والاخلاص في دين الله تعالى ، ألم تسمع قوله تعالى : « إلا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله ، واخلصوا دينهم لله ، فأولئك مع المؤمنين » .

● اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم ، فان شرهم يصيبك في بدنك وخيرهم يصيبك في قلبك ، ولأن تصب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك .

● من سوء الظن بالله ، ان يستنصر بغير الله من الخلق . قال تعالى : « من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع ، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » .

● من النفاق : التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك .

● ومن الشرك بالله : اتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله .

قال الله تعالى : « مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون »

● مراكز النفس أربعة :

مركز للشهوة في المخالفات

ومركز للشهوة فى الطاعات

ومركز فى الميل الى الراحات

ومركز فى العجز عن أداء المفروضات

« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » .

● العارف ، من عرف شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه ، وعرف إساءة نفسه فى إحسان الله اليه : « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » .

● إلق بنفسك على باب الرضا ، وانخلع عن عزائمك وإرادتك حتى عن توبتك بتوبته . قال الله تعالى : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » .

● إن أردت أن تنظر ببصر الايمان والايقان دائما ، فكن لنعم الله شاكرا وبقضائه راضيا « وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » .

● العلوم التى وقع الثناء على أهلها وإن جلت فهى ظلمة فى علوم ذوى التحقيق ، وهم الذين غرقوا فى تيار بحر اللذات ، وغموض الصفات . فكانوا هناك بلا هم ، وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الانبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، فى أحوالهم .. فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من موروثهم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الانبياء » عليهم الصلاة والسلام ، أى يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة ، لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال . فان مقامات الانبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم .

● الكاملون : حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق . فان رأيتهم من حيث الخلق ، رأيت أوصاف البشر ، وان رأيتهم من حيث الحق ، رأيت الأوصاف التى زينهم بها . فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى ، تخلقا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : « ووجدك عائلا فأغنى » . افتراه أغناه بالمال ؟ . وقد شد الحجر على بطنه من شدة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ من مكة على قدميه ، ليس معه شىء يأكله نوكبد إلاشىء يواريه ابط بلال .

● أهل الله وخاصته ، هم قوم جنبهم عن الشر وأصوله ، واستعملهم بالخير وفروعه ، وحبب اليهم الخلوات ، وفتح لهم سبيل المناجاة ، فتعرف اليهم فعرفوه ، وتحبب اليهم

فأحبوه ، وهداهم السبيل اليه فسلكوه ، فهم به وله ، لايدعهم لغيره ، ولايحجبون عنه . بل هم محجوبون به عن غيره . ولايعرفون سواه ، ولايحبون الا اياه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الالباب .

● الصوفى فيه اربعة اوصاف :

التخلق بأخلاق الله عز وجل
والمجاورة لأوامر الله
وترك الانتصار للنفس حياء من الله
وملازمة البساط بصدق البقاء مع الله

***

ونختتم الحديث عن سيدى « ابى الحسن الشاذلى » .. حول أدعيته وأذكاره واحزابه .. ولاهمية الذكر والدعاء فى الاسلام .. كان « ابو الحسن » يستفيض فى الذكر وفى الدعاء . وكانت طريقته فى أكثر الاحيان ان يمزج الذكر بالدعاء . ومارُوى عن « ابى الحسن » فى هذا الباب كثير ، سواء منه مايتعلق بالأحزاب ، أو بغيرها من ابواب الذكر والدعاء .

ولأبى الحسن فى ذلك « الحزب الكبير حزب البر » .. الذى وصفه بقوله ، « من قرأه كان له مالنا وعليه ماعلينا » .

و « الشاذلى » له اكثر من حزب .. لكنها كلها تجمع بين إفادة العلم ، وأداب التوحيد ، وتعريف الطريقة ، وتلويح الحقيقة ، وذكر جلال الله تعالى وعظمته وكبريائه . وذكر حقارة النفس وخستها ، والتنبيه على خدعها وغوايتها .

وفى الأحزاب أيضا الاشارة لوصف الدنيا والخلق ، وطريق الفرار من ذلك ووجه حصوله . والتذكير بالذنوب والعيوب والتنصل منها .. مع الدلالة على خصائص التوحيد .
فالأحزاب إذن تعليم فى قالب التوجيه ، وتوجيه فى قالب التعليم .

ويقول « ابو الحسن » ناصحا الذاكرين والداعين ، الذين يرجون قبول الله لدعائهم :

« إذا اردت ان يستجاب لك اسرع من لمح البصر ، فعليك بخمسة اشياء هي : الامتثال للأمر ، والاجتناب للنهي . وتطهير السر . وجمع الهمة ، والاضطرار » .

ومن أحزاب الشيخ « أبي الحسن الشاذلي » . « الحزب البر » أو « الحزب الكبير » . وحزب الفتح ، وحزب البحر ، وحزب الآيات .. وهناك حزب يسمى « حزب الشيخ أبي الحسن » وهذا الحزب الاخير وضعه ابو الحسن ، ولم يضع له عنوانا .

وهذه الأحزاب كما يصفها « ابن عباد » في « المفاخر العلية » : « واحزاب اهل الكمال ممزوجة باحوالهم ، مؤيدة بعلومهم ، مسددة بإلهامهم ، مصحوبة بكراماتهم » .

ولـ « أبي الحسن » كثير من الادعية والاذكار .. موجودة في المصادر عنه .

وكما يقول د . « عبدالحليم محمود » ، فان الدعاء يصح في كل وقت ، بيد ان هناك اوقاتا وأماكن أرجى في الدعاء من غيرها .. مثل « جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبة » .. وكذلك أثناء السجود . ومن الاماكن الأرجى في استجابة الدعاء الأماكن الطاهرة ، وأشرفها بالطبع الحرم المكي والحرم المدني .

وأخيرا نقول مع « أبي الحسن » في دعائه المشهور وحزبه الكبير المعروف : « اللهم إنا نسالك لسانا رطبا بذكرك ، وقلبا منعما بشكرك ، وبدنا هينا لينا بطاعتك . واعطنا من ذلك مالاعين رات ولا اذن سمعت ولاخطر على قلب بشر . واغننا بلا سبب ، واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخا بينهم وبين اعدائك ، انك على كل شيء قدير ..

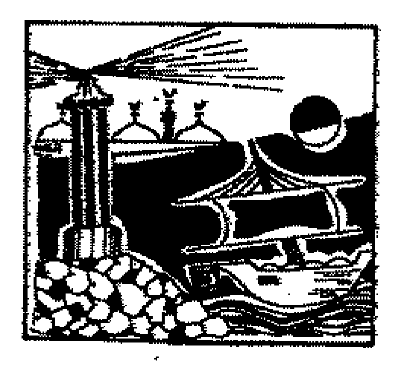
« اللهم انا نسالك ايمانا دائما ، ونسالك قلبا خاشعا ، ونسالك علما نافعا ، ونسالك يقينا صادقا ، ونسالك دينا قيما ، ونسالك العافية من كل بلية ، ونسالك تمام العافية ، ونسالك دوام العافية ، ونسالك الشكر على العافية ، ونسالك الغنى عن الناس ...

« لا إله الا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين »

أعلام
التصوف
الاسلامى

سيدى أبو العباس المرسى

حارس الاسكندرية
وقطبها « الغوث »



●● الاسكندرية بالذات ـ فضلا عن القاهرة ـ من ارض الاسلام المباركة تعلو على ارضها القباب ، وتتعانق المآذن .. وتتناثر ـ كالجواهر ـ داخل ثراها كثير من اجساد أولياء الله تعالى .. او جند الله ..

لكن لماذا الاسكندرية بالذات ؟

الواقع ان هذه المدينة المصرية ، او العاصمة الثانية لمصر .. كانت تشاهد الكثير من الاجانب القادمين من الساحل الاوربى او الاسيوى للبحر المتوسط ، الذى يقابل الساحل الافريقى ... ولذلك ما اكثر الجاليات الاجنبية التى جاءت الى الاسكندرية ، ومكثت فيها بعض وقت او استوطنتها الى الابد .. وهى ايضا كميناء .. تفرغ البواخر فيه كل يوم مختلف الجنسيات . ثم انها كمعبر لاهل المغرب الى بلاد الحجاز .. شاهدت على طول تاريخها الكثير من المؤمنين وعلمائهم .. منذ ان بدات دولة الاسلام فى الاندلس ، فى اواخر القرن الأول الهجرى ..

ولقد افاض كثير من المؤرخين فى ذكر الاحاديث الواردة فى فضل الاسكندرية ، والمرابطة فيها .. حتى يقال ان من رابط فيها اربعين يوما كتب الله له براءة من النار وأمن العذاب . وقيل حول اهل الاسكندرية ، ان خيار اهلها افضل من خيار اهل غيرها ، وشرار اهلها خير من شرار اهل غيرها . وان المرابط فى سبيل الله عز وجل على ساحل البحر ، له فى كل يوم دعوة مستجابة .. وغير هذا كثير مما اشتملت عليه الكتب المؤلفة فى فضل المرابطة فيها ..

العلامة « ابن خزيمة » ، الذى رابط فى الاسكندرية اربعين يوما ابتداء من سنة ٥٦٠ هـ « ١١٦٤ م » يقول عنها : « اهلها للخير فاعلون ، لا تبطل القراءة منها وطلب العلم ليلا ونهارا ، ايمان ساطع ، ونور لامع ، بها أولياء اسرارهم واضحة وكراماتهم باهرة ، وبها مائة وثمانون مدرسة لتعليم العلم ومائة وتسعون مسجدا للجماعة » .

ويصفها القاضى الفاضل .. بانها الثغر المحروس حماه الله ، الرفيع المقدار ، الذى هو قرة العين للاسلام ، ومحله مما تتطامن له معاقل التوحيد وحصونه ،

وهو مشتمل على الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهل الدين .. ولذلك ـ وكما يقول الأثرى حسن عبدالوهاب رحمه الله ـ إن الاسكندرية منذ سكنها الإمام السلفي سنة ٥١١ هجرية ، ١١٧ ميلادية ، كانت من اهم مراكز التحصيل ، كعبة المستفيدين ، يحج اليها العلماء من اقطار الارض ، واتخذها عدد كبير من الاندلسيين والمغاربة وطنا لهم

※※※※※

الاسكندرية اذن مملكة ايمان .. سلطانها المشهور القطب الصوفى سيدى « ابو العباس المرسى » ، أو « المرسى ابو العباس » ، كما يشتهر بذلك بين أهل بحرى . واذا كان أبو العباس المرسى رضى الله عنه سلطان الاسكندرية .. فهو سلطان له مكانة فى قلوب المصريين ـ حتى أقصى الصعيد . يدل على ذلك اسم « مرسى » .. الذى تسمى به عشرات بل مئات الالوف من ابناء مصر تبركا بهذا القطب الصوفى .. ولذلك لم اتعجب حين سمعت فى الصعيد مرة اغنية شعبية تعيش فى وجدان الشعب منذ سنين وسنين ، تقول هذه الاغنية :

خاين يا زمانى — وديت حبيبى فين
ولا جـواب جانى — وبعت له جوابين
ســوده وعجباتى — عيون حبيبى يا ناس
يابو مقام عالى — مرسى يا ابو العباس

« ابو العباس المرسى » .. أو « المرسى ابو العباس » سيظل علم الاسكندرية وسلطانها وحارسها .. كما ستظل الاسكندرية أرض أوليـاء الله .. حتى ليقال انـه مدفـون فى أرضهـا عشرات الاسماء الطاهرة ، وان حول مسجد أبى العباس وحده مدفون أكثر من خمسين وليا من أولياء الله ومن ائمة التصـوف .

و « ابو العباس المـرسى » ، هذا القطب الكبيـر ، صاحب الطريقة .. هو تلميذ « ابى الحسن الشاذلى » رضى الله عنهما ، وخليفتـه الاوحد من بعـده .. وهو من العـرب الذين عـاشـوا فى الاندلس ، واسمه هو « شهاب الدين ابو العباس احمد بن عمر بن على الخزرجى الانصارى » . ويتصل نسبه بالانصار ، الذين اخبر رسول الله ﷺ ، ان حبهم من علامات الايمان . ونسبه يتصل لسعد بن معاذ ، سيد الخزرج .

ولقد ولد سيدى « ابو العباس » فى « مرسية » ونشا بها ، حيث كان والده يعمل فى التجارة . وكما يقول الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه « العارف بالله ابو العباس المرسى » .. إنه يبدو ان حالة والده كانت من اليسر بحيث مكنته من ارسال ابنه الى مؤدب لتعلم القرآن الكريم ، والتفقه فى امور الدين ..

ولقد بانت فى ابى العباس خصائل اللماحية والذكاء غير العادى ، والمهارة والفهم منذ سنواته الاولى .. حتى لقد كان ما فيه ، لا يوجد فى اطفال المكاتب . كما ان كل من شهده صغيرا كان يتوسم فيه الاتجاه الى الصلاح والتقوى منذ هذه السن المبكرة .

وهناك قصة تدل على ذلك يحكيها « ابو العباس » ، حيث يقول : « كنت وانا صبى عند المؤدب ، جاء رجل فوجدنى اكتب فى لوح ، فقال : الصوفى لا يسود بياضا . فقلت : ليس الامر كما زعمت ، ولكن لا يسود الصحائف بسود الذنوب » . كما ان هناك بعض الاضواء عن هذه الفترة من حياة ابى العباس فى المسرحية التى كتبها الاستاذ « محمود يوسف » ونشر حلقاتها فى جريدة الجمهورية عام ١٩٦٨ .. وهى تفاصيل لاشك فيها جهد .. لكن فيها اجتهاد .

لقد كانت نشأة هذا القطب على الصلاح والتقى فى هذه السن المبكرة ، او بتعبير أدق ، فان هذا المؤدب الفاضل صقل فطرته الصافية ، وثبتها على الصلاح والتقى . ويحكى « ابو العباس » عن هذا المؤدب الفاضل قائلا : عمل الى جانب دارنا خيال الستار ، وأنا ذاك صبى ، فحضرته ، فلما أصبحت أتيت الى المؤدب ، وكان من أولياء الله تعالى ، فأنشد حين رآنى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا

وهو الخيال بعينه لو ابصرا

وقد خجل « ابو العباس » ، وعزم فى نفسه ان يأخذ فى حياته مسلك الجد .

ويقولون إن « ابا العباس » حين بلغ الشباب ، ودرجة الاستقلال بنفسه فى التفقه والدراسة ، اخذ فى معاونة والده فى الاعمال التجارية ، فكان التاجر الصدوق . لكن حياته منذ الشباب « فى مرسية » الى ان التقى بشيخه « ابى الحسن الشاذلى » فى زاوية « زغوان » يلفها الغموض ، الا من شذرات قليلة لا تشفى الغلة . وهذا يعود الى ان « ابا العباس » ـ كما يقول مؤرخوه ـ لم يكن معنيا بالحديث عن نفسه ، ولم يكن مهتما بالتاريخ لحياته . انه لم يتحدث عن أسرته ، ولم يتحدث عن نفسه ، ولم يشد بأفعاله . إنه ـ كما يرى الدكتور « عبد الحليم محمود » : قد فنى فى ابى الحسن ، فلم يكن فى آفاقه « فراغ » للحديث عن نفسه ، ثم فنى فى الدعوة الى الله بعد ابى الحسن ، وما فناؤه فى الدعوة الا فناء فى الله ورسوله وفى حبهما ، وفى العمل جاهدا على مرضاتهما .. ومن كان كذلك لا يهتم بالحديث عن نفسه .

* * *

ان المعلومات قليلة عن « ابى العباس » قبل عام ٦٤٠ الهجرى .. وفى هذا العام ، كما أثر ، حزم والده أمره ، ورتب شئونه على ان يقوم بالحج الى بيت الله الحرام ، وأخذ الاسرة معه ، وركبوا البحر ـ وكان عمر ابى العباس ٢٣ سنة ـ لكن شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى ، ان تهب عليهم عاصفة بالقرب من شاطىء « بونة » فاستشهد والده ووالدته غرقا فى البحر ، ونجا هو وأخوه « محمد » ، فيمما شطر « تونس » . اما اخوه فاتجه نحو الاعمال التجارية على غرار والده . اما هو فلم يكن حنينه الى التجارة ، وانما كان حنينه الى مهنة المؤدب ، الذى كان من أولياء الله ، وكان هواه هو تعليم القرآن الكريم ، والاغتراف من انوار القرآن . فاتخذ ـ فى تونس ـ من زاوية الفقيه « محرز بن خلف » ، مكانا يعلم فيه القراءة والكتابة ، ومبادىء الدين والقرآن الكريم .

لقد جاء « ابو العباس » من « مرسية » الى « تونس » وهو متسلح بالعلم .. ومتسلح أيضا بما مارسه مع ابيه فى التجارة ، من الاخذ والعطاء بحيث اطلع عمليا على فنون المعاملات ووسائل التفاهم مع خلق الله ، مما اطلعه على معرفة الاتجاهات الانسانية ووقفه على كوامن النفس البشرية .

* * *

فى « تونس » كان اللقاء .

لقاء بين « ابى الحسن الشاذلى » وبين « ابى العباس المرسى » رضى الله عنهما .

هذا تعبر عنه صورة رمزية لطيفة ، جاءت فى « لطائف المنن » وتعبر فى عمق عن مكانة

العارف بالله سيدى « أبى العباس المرسى » من شيخه « أبى الحسن الشاذلى » .. ونقلها الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه .

تقول هذه الصورة :

« وأخبرنى بعض أصحابنا قال : راى إنسان من اهل العلم والخير ، كانه بالقرافة الصغرى والناس مجتمعون يتطلعون الى السماء ، وقائل يقول : الشيخ ابو الحسن الشاذلى ينزل من السماء ، والشيخ ابو العباس مرتقب لنزوله ، متأهب له » .

« فرأيت الشيخ ابا الحسن قد نزل من السماء ، وعليه ثياب بيض . فلما رآه الشيخ ابو العباس .. ثبت رجليه فى الارض وتهيأ لنزوله عليه . فنزل الشيخ ابو الحسن عليه ـ اى على ابى العباس ـ ودخل من رأسه حتى غاب فيه .. ثم استيقظت » .

هذا الرمز يوضح الصلة التى ستبدأ فى تونس ، بين الشاذلى وأبى العباس .

وهذا الرمز ايضا يشير الى الاتحاد بين الشاذلى وأبى العباس فى المنهج والفكر والسلوك ، يجاريه ويسير فى نسق واحد .

ويدلل على ذلك ابن عطاء الله السكندرى ـ المصدر الوحيد تقريبا عن حياة ابى العباس ـ بقصة يرويها ويقول فيها : « من المشهود بين اصحاب الشيخ ابى الحسن وغيرهم ، ان الشيخ كان يوما فى القاهرة فى دار الزكى السراج ، وكتاب « **المواقف** » للنفرى يقرأ عليه . **فقال الشيخ ابو الحسن** : أين أبو العباس ؟ .

فلما جاء ابو العباس ، **قال** : يا بنى تكلم ، بارك الله فيك ، تكلم ولن تسكت بعدها ابدا . **فقال الشيخ ابو العباس** : « فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ » .

ويجارى ذلك ويتطابق معه ، ما قاله سيدى « **ابو الحسن الشاذلى** » لتلميذه وخليفته أبى العباس ، حيث قال له : **يا أبى العباس ، ما صحبتك الا لتكون انت انا ، وانا انت** » .

وقد بلغ من بعض الصوفية .. انهم قالوا حين مات « **الشاذلى** » ، انه لم يمت حين مات ، وانما غاب فى أبى العباس ، وبقى فى « **أبى العباس** » .. لقد كان « **ابو العباس** » امتدادا « **للشاذلى** » ، فقد غاب الاخير فيه ، وكان لسانه ، بل كان هو هو . كان « **الشاذلى** » هو الحلقات الاولى فى الطريق ، وأخذت هذه الحلقات تتسلسل متجددة لالاءة

على مر الزمن ، فكانت مدرسة بدأها « ابو الحسن الشاذلى » فى قوة ، وتابعه وترسم خطاه على هدى وبصيرة من تبعه ، وكان على رأس التابعين « ابو العباس » .

لقد كان « الشاذلى » يحب « ابا العباس » ، كما يحب الانسان صورة لنفسه ، أو كما يحب أثرا من آثاره ، اوكما يحب إبنا من أبنائه .

لقد وجد « ابو الحسن الشاذلى » فى « أبى العباس » مرآة ذاته وأهلية خلافته ، والرجل الثانى فى قطبانيته ، فاختصه بأسراره ، وأفضى اليه بما وهبه الله من علوم ومعارف ..

لكن كيف كان اللقاء الأول بين « أبى الحسن » « و أبى العباس » فى تونس ؟

يقص أبو العباس كيفية اتصاله بشيخه ، فيقول :

« لما نزلت بتونس وكنت أتيت من مرسية ، وأنا اذ ذاك شاب ، سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى . فقال لى رجل : تمضى بنا اليه . فقلت : حتى استخير الله . فنمت تلك الليلة ، فرأيت كانى اصعد الى رأس جبل . فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا عليه « برنس » اخضر . وهو جالس . وعن يمينه رجل ، وعن يساره رجل . فنظرت اليه ، فقال : عثرت على خليفة الزمان . قال ـ أى أبو العباس ـ فانتبهت .

« فلما كان بعد صلاة الصبح ، جاءنى الرجل الذى دعانى الى زيارة الشيخ فسرت معه ، فلما دخلنا عليه ، رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل ، فدهشت . !!

« فقال لى : عثرت على خليفة الزمان .. ما اسمك ؟ فذكرت له اسمى ونسبى . فقال لى : رفعت لى منذ عشر سنين . » .

* * *

والواقع ان « الشاذلى » قد بهر « ابا العباس » بحديثه المنطلق ، والهاماته المتدفقة ، وسلوكه الربانى .. فلازمه « أبو العباس » ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف . وقد رأى « الشاذلى » فى « أبى العباس » فطرة طاهرة ونفسا خيرة ، واستعدادا طيبا للإقبال عليه ، فمنحه وده ، وغمره بعنايته وأخذ فى تربيته تربية تؤهله ليكون خليفة من بعده .

ولقد استمر « أبو العباس » مع « الشاذلى » يسير فى ضوء تربيته ، وينهج طريقه ، لا يحيد عنه قيد شعرة ، الى أن كانت وفاة « الشاذلى » . وقبل أن يموت « الشاذلى » خلا بأبى « العباس المرسى » وحده ، وأوصاه بأشياء ، واختصه بما اختصه الله به من

البركات . وقال لأصحابه : « اذا انا مت فعليكم بابى العباس المرسى ، فإنه الخليفة من بعدى وسيكون له بينكم مقام عظيم ، وهو باب من ابواب الله سبحانه وتعالى » .

الشاذلية من الطرق المعروفة فى عالمنا الاسلامى ..

وأربابها من أهل الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن رجال الزهد فى الدنيا ، وطلاب الحلال من كل وجه . وهم كما يرى « محمد محمود زيتون » فى كتابه عن « ابى العباس المرسى » ممن يزهدون فى التقرب الى السلطان بل ممن لايستنكفون من المواجهة الصريحة معه لدرء ضرر عام أو جلب نفع عام .

وأهم مايميز الشاذلية كما أرى علمهم الغزير ، حتى أن احدهم وصف « أبا العباس المرسى » بأنه بحر لاساحل له ، ووصفه « ابن عطاء الله السكندرى » فى مؤلفه « لطائف المنن فى مناقب العباس وشيخه أبى الحسن » « كنت لاتتحدث فى علم من العلوم ، الاتحدث معك فيه ، حتى يظن السامع انه لايحسن إلا هذا العلم ، لاسيما علمى الحديث والتفسير ، فقد كانت آراؤه سديدة فى تفسير القرآن العزيز » . ومع هذا العلم الغزير ، لم يؤلف أبو العباس كتبا ، وكان يقول « كتبى اصحابى » .. بمعنى أن « أبا العباس » كان صاحب دعوة ومريدين ، يأخذون عنه وينشرون مايأخذونه على عباد الله وكان « ابوالعباس » يردد ويقول دائما : « علوم هذه الطائفة علوم تحقيق وعلوم التحقيق لاتحملها عقول عموم الخلق » . و « ابوالعباس » هو الذى قال : « جميع مافى كتب القوم عبرات دموع من سواحل بحر التحقيق » .

***

ولأن ايمان الشاذلية بالعلم كطريق موصل جيد ، فإنه وكما يقول سيدى « على الخواص » : « كانت القاعدة عند الشيخ ابى الحسن الشاذلى ، والشيخ أبى العباس المرسى ، ومريديهما مثل ابن عطاء الله ، والشيخ ياقوت العرش ، فى قبول الطلاب .. « الا يدخل احد الطريق إلا بعد تبحره فى علوم الشريعة و الاتها .. بحيث يقطع العلماء فى مجالس المناظرة بالحجج الواضحة ، فاذا لم يتبحر كذلك ، لاياخذون عليه العهد » .

فالعلم .. كما يراه « ابوالعباس المرسى » ـ ومن قبله استاذه « ابوالحسن » ـ هو زاد رحلة البحث عن الحقيقة . والعلم أولا ، هو أن يعرف الانسان نفسه أو يجد فى محاولة معرفتها . فكما يقول : « من عرف نفسه ، عرف ربه . ومن عرف نفسه بذلها وعجزها عرف ربه بعزه وقدرته » .

يقول « إبن عطاء الله السكندرى » عن علم « ابى العباس » : « هو الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر .. مشرق شموس المعارف بعد غروبها ، ومبدى اسرار اللطائف بعد غروبها » .. وكان أبوالعباس ـ كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود ـ « من كبار العلماء فى علوم الظاهر ، ومن كبار الملهمين فى علوم الباطن » .

وتحت عنوان « العالم » يقول الشيخ عبدالحليم فى كتابه عن « أبى العباس » إن رجال المدرسة الشاذلية يعرفون أنه رضى الله عنه هو الذى بث علوم الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه ، ونشر أنوارها ، وأبدى أسرارها ..وكان لابى العباس من العلوم الظاهرة كتب معينة ، يؤثرها ويداوم مذاكرتها وتدارسها .

● ففى اصول الدين : كان كتابه « الارشاد » وهو كتاب فى التوحيد والجدل والنقاش ، والانتصار لمذهب الاشاعرة وأهل السنة ، لايسهل تناوله على العاديين من الناس ، بل ولاعلى الكثير من المثقفين لانه يحتاج الى ممارسة طويلة فى علم الكلام والجدل .

● وكان كتابه فى الحديث « المصابيح » وهو كتاب على غرار كتاب « الترغيب والترهيب » .

● اما فى الفقه فكان يعنى بكتابى « التهذيب » .. و « الرسالة » .. وهما فى الفقه مشهوران .

● وكتابه فى التفسير هو كتاب « المحرر الوجيز » لابن عطية

● اما فى التصوف ، فقد كانت كتبه المفضلة هى : « الرسالة القشيرية » وكتاب « قوت القلوب » ، وكتاب « ختم الاولياء» للحكيم الترمذى ، وكتاب « الحقائق » للسلمى .

وبالاضافة الى علمه المتبحر ، فى علوم المعارف والأسرار وعلوم المعاملة ، كان « ابوالعباس » شاعرا ، وشعره كما يوصف شعر معان ، وشعر تحليق فى سماء الروح ، ومن أمثلته هذه القصيدة التى تعبر عن النفس وتعلقها بالبدن وتقيدها بالحظ وانبعاثها بالشهوة :

اذا كنت سائلنا عن خالص المنن
وعن تعلق ذات النفس بالبدن
وعن تشبثها بالحظ مذ الفت
ادرانها فغدت تشكو من العطن

وعن تنزلها فى حكمها ولها
علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن بواعثها بالطبع ماثلة
تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجن
وعن حقيقتها فى أصل معدنها
لاينثنى وصفها منها الى وثن
فاسمع هديت علوما عز سالكها
عن العيان ولايغررك ذو لسن

ومن قصيدة أخرى كتبها الى أبى « عبدالله جمال الدين » يحثه على التمسك بالفضائل يقول فيها :

واذا اردت من السلوك أجله
فالزهد فى الدنيا مع السمت الحسن
واعبد إلهك حيث كنت على الرضا
تحظى بما قد ناله اهل المنن
اهل الولاية والهداية والتقى
هم سادتى منهم أصول على الزمن

وفى كتاب « ابن عطاء الله » قصيدة أكد انها وجدها بخط شيخه « ابى العباس المرسى » يقول فيها هذه الابيات الرقيقة :

اعندك من ليلى حديث محرر
بايراده يحيا الرميم وينشر ؟
فعهدى بها العهد القديم وإننى
على كل حال فى هواها مقصر

الى أن يقول :

ومن وجه ليلى طلعة الشمس تستضى
وفى الشمس ابصار الورى تتحير
وماا حتجبت الا برفع حجابها
ومن عجب ان الظهور تستر !

لقد كان « ابوالعباس » رضى الله عنه عالما فى اللغة ، مادتها ونحوها وصرفها وعالما فى التفسير ، وفى الحديث ، وفى الفقه ، وفى السيرة ، وفى التصوف وهذا ماينبغى ان يكون عليه الصوفى .. فشعاره « وقل رب زدنى علما » .

***

من « تونس » الى « الاسكندرية » ، كانت الرحلة المقدسة « لابى العباس » وشيخه « ابى الحسن » رضى الله عنهما وقدس روحيهما ..

والرحلة .. دفعت اليها احداث نجملها .

وفى زاوية « زغوان » بتونس حيث كان يقيم « ابوالعباس » مع القطب الغوث « ابى الحسن الشاذلى » .. كان مقر الدعوة الى الله ، فكانت الحشود الهائلة من المريدين وطلاب الحقيقة على اختلاف مستوياتهم .. من علماء وتجار وعامة ، يغشون - كما يقول « جودة ابواليزيد الشاذلى » فى بحث له فى مجلة « منبر الاسلام » - مركز الاشعاع الشاذلى ، وينهلون من أقباسه زاد الحكمة والتوجه الى الله .

ويرتفع شأن الامام « ابى الحسن » ، وتعظم منزلته فى قلوب العامة والخاصة الى حد أثار حقد قاضى القضاة « ابن البراء » ، وأقلقه على مركزه فى نفوس العامة ، اذ رأى أن منزلته بدأت تتهاوى امام عظمة الامام « ابى الحسن » . فلجأ الى الايقاع به لدى السلطان « ابى زكريا » ، سلطان « تونس » . وكانت النتيجة هى ارتحال الامام « الشاذلى » الى بلاد المشرق ، حيث توجه الى الاسكندرية ، ثم الى بيت الله الحرام ، ثم كانت العودة الى تونس ثانية .

ويجرى التساؤل عن سر العودة الى تونس مرة ثانية .

والاجابة على لسان الامام الشاذلى : « ماردنى الى تونس الا هذا الشاب » .. ويقصد به بالطبع « ابا العباس المرسى » .

ثم يعود « ابوالحسن » الى الاسكندرية مرة اخرى ، ومعه فى هذه المرة « ابوالعباس المرسى » وارثه ، ومجموعة من مريديه .

يقول « ابوالعباس » ، وهو فى الطريق من تونس الى الاسكندرية مع شيخه ويلقى اضواء على منهاج التربية التى كان يبثها فيه شيخه « ابوالحسن » :

« كنت مع الشيخ فى السفر . ونحن قاصدون الاسكندرية ، حين مجيئنا من الغرب ، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله . فأتيت الى الشيخ ابى الحسن ، فلما احس بى قال : أحمد . قلت : نعم ياسيدى . قال : « أدم خلقه الله بيده وأسجد

له ملائكته واسكنه جنته ، ثم نزل الى الارض . والله ماانزل الله آدم الى الارض لينقصه ، ولكن نزل به الى الارض ليكمله . ولقد انزله الى الارض قبل ان يخلقه بقوله : « انى جاعل فى الارض خليفة » ، ماقال فى السماء ولا فى الجنة . فكان نزوله فى الارض نزول كرامة لانزول إهانة ، فانه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله الى الارض ليعبده بالتكليف فلما توفرت فيه العبوديتان إستحق ان يكون خليفته ، وأنت ايضا لك قسط من آدم . كانت بدايتك فى سماء الروح ، فى جنة التعريف ، فانزلت الى ارض النفس لتعبده بالتكليف ، فاذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة » .

هكذا اخذ سيدى « ابوالحسن » بيد سيدى « ابى العباس » ليوصله الى الله ، وليفرغ فيه سره الالهى ليكون خليفته من بعده ، ولقد توحدت روحاهما حتى صح لكل منهما ان يقول للآخر : « ياأنا » . ويغالى بعض الصوفية فيستوحون من الاتحاد الروحى بين الشيخ ومريده أولية سيدى « ابى العباس » فى تأسيس الطريقة الشاذلية ، ويدللون على ذلك بأن « ابا الحسن » كثيرا ماصرح لاصحابه بما بلغه « ابوالعباس » من منزلة سامقة فى الولاية . وبتحققه بأعلى المقامات . كان « ابوالحسن » يردد : « هذا ابوالعباس منذ نفذ الى الله لم يحجب عنه ، ولو طلب الحجاب لم يجده » ....إنها قمة الوصول وقمة الولايات وقمة التحقق .

وللتدليل على ذلك يذكرون ان ابا الحسن قال لمريده سيد زكى الدين الاسوانى :

« يازكى : عليك بأبى العباس ، فوالله انه لياتيه البدوى يبول على ساقيه فلايمسى عليه المساء الا وقد وصله الى الله . يازكى : عليك بأبى العباس فوالله مامن ولى لله كان أو هو كائن الا وقد أطلعه الله عليه . يازكى : أبوالعباس هو الرجل الكامل » .

وقد وقع بين الشيخ « ماضى بن سلطان » وبين « ابى العباس » جدال . سمعه الشيخ « ابو الحسن » ، فقال للشيخ ماضى : الزم الادب مع ابى العباس ، فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء اكثر مما تعرف انت أزقة الارض

ولقد ظل « ابو العباس » ملازما لاستاذه فى الاسكندرية منذ عام ٦٤٠ الهجرى ، وكان عمره حوالى ٢٤ عاما . وقد جلس « ابو الحسن » وتليمذه فى جامع العطارين .. وبين الفينة والفينة يسافران الى مدن مصر ، يشعان بعلمهما على اهل مصر ، ويحملان الحقيقة .

وفى ذات يوم من عام ٦٥٦ هجرية قررا الحج الى بيت الله الحرام .. واصطحب الشيخ مريده مع من اصطحبهم . وفى الطريق بمكان يسمى الحميثراء .. بصحراء عيذاب على

ساحل البحر الاحمر ، توفى الله عبده « الشاذلى » فدفنه مريده هناك .. ثم واصل رحلة الحج ، وعاد الى الاسكندرية .

***

حين عاد « ابو العباس » بعد وفاة شيخه ، جلس فى مسجد صغير داخل باب البحر وحوله تلاميذه واتباعه من المريدين .. وقد عمر المسجد بذكر الله وحصن بايمانهم .. حتى اطلق على المسجد « القلعة » وكان مجلس « ابى العباس » مجلسا بهيا ، وصف كثيرا فى مؤلفات مريديه « ما على وجه الارض مجلس فى الفقه ابهى من مجلس الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام . وما على وجه الارض مجلس علم ابهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى . وما على وجه الارض مجلس فى علم الحقائق ابهى من مجلس ابى العباس المرسى » .

كما كان « ابو العباس » يتفقد المريدين ، ويتتبع احوالهم بالهام من الله وفراسة المؤمن وبالسؤال عن احوالهم . ومن دقته فى مراعاة الكرامة الانسانية للمريدين ، انه كان يكره للاشياخ اذا جاءهم مريد ان يقولوا له قف ساعة ويقول : ان المريد يأتى الى الشيخ بهمته المتوقدة ، فاذا قيل له قف ساعة ، طفىء ما جاء به . وكان اذا رأى مريدا يفتخر بزهده فى الدنيا ، يقول : يا أخى لقد عظمت الدنيا حين رأيت لها وجودا ، حتى زهدت فيها ، فقدرها أصغر من ذلك .

وكان بعض المنتمين الى التصوف يحبون لبس المرقع ، وغليظ الطعام والشراب .. فماذا كان موقف ابى العباس ؟

يقول « ابن عطاء الله السكندرى » : طريقة الشيخ ابى العباس ، وشيخه ابى الحسن رضى الله عنهما ، وطريقة اصحابهما .. الاعراض عن لبس زى ينادى على سر اللابس بالافشاء ، ويفصح عن طريقه بالابداء ، ومن لبس الزى فقد ادعى .

ويقول ابو العباس : لن يصل الولى الى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله تعالى . كما يقول ابو الحسن : لن يصل الولى الى الله ، ومعه شهوة من شهواته ، او تدبير من تدبيراته ، او اختيار من اختياراته .

ويشرح ما سبق الامام « ابن عطاء الله السكندرى » : « انه لن يصل الولى الى الله ، حتى تنقطع عنه شهوة الوصول الى الله ، اى انقطاع ادب لا انقطاع ملل »

وكـن عبـده والـق القيـاد لحكمـه
وايـاك تدبيـرا فمـا هـو نافـع

الحكم تدبيرا وغيرك حاكم
انت لأحكام الإله تنازع
فمحو ارادات وكل مشيئة
هو الغرض الأقصى فهل انت سامع ؟
كذلك سار الاولون فادركوا
على اثرهم فليمش من هو تابع

ولم ينس سيدى « ابو العباس » ان يوجه مريديه الى فضائل معينة يلتزمونها فى انفسهم ، وتكون اساسا يرشدهم الى صداقة من يتحقق بها . ومن بين ما كان يقول للمريد : **لا تصحب الا من تكون فيه أربع خصال : الجود من القلة ، والصفح عن المظلمة ، والصبر عند البلية ، والرضا بالقضية .**

***

كان فكر « ابى العباس » ، ينحصر فى اصلاح العبد فى ثلاثة اشياء : معرفة الله ومعرفة النفس ومعرفة الدنيا . فمن عرف الله خاف منه . ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله . ومن عرف الدنيا زهد فيها . ويقول : ان الله تعالى جعل من العبد ثلاثة اجزاء : فلسانه جزء ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء . وطلب من كل جزء وفاء .. فوفاء القلب الا يشتغل بهم الرزق . ولا مكر . ولا خديعة . ووفاء اللسان .. ألا يغتاب ولا يكذب . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . ووفاء الجوارح الا يسارع بها قط الى معصية ، ولا يؤذى بها احدا من المسلمين . فمن وقع من قلبه فهو منافق . ومن وقع من لسانه فهو كافر . ومن وقع من جوارحه فهو عاص .

ولقد ظل « ابو العباس المرسى » فى الجامع او « القلعة » يشع نور العلم والمعرفة ويرسى طريقة الشاذلية ، ويبتعد عن اهل البدع . حتى كان يقول لأصحابه ويكرر دائما : **« مخالطة اهل البدع تميت القلب . من كان فيه ادني بدعة ، فاحذر مجالسته ، لئلا يعود عليك شؤمها بعد حين »**

ومجلس « ابى العباس » فى « القلعة » .. او الجامع كان مجلسا مهيبا . كان كما يقول ابن عطاء الله السكندرى : « ما كنت تجلس بين يدى ابى العباس الا والرعب يملأ قلبك » .. وكيف لا خاصة و « إن لله عبادا محق افعالهم بافعاله ، و اوصافهم باوصافه ، وذاتهم بذاته .. وحملهم من اسراره ما يعجز عامة الاولياء عن سماعه »

كما يقول الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » فى تاريخ تفسير القرآن .. فان الرسول ﷺ لم يمل تفسيرا للقرآن مطولا او مختصرا . وانما اثر عنه ﷺ كلمات

شريفة وجيزة عن هذه الآية او تلك . وقد كان سلوك رسول الله ﷺ وقد قالت السيدة عائشة عن الرسول ﷺ « كان خلقه القرآن » وقال البعض ان الرسول ﷺ ، كان قرآنا يمشي على قدمين . فقد كانت حياته كلها ﷺ ، تترسم في تفاصيلها وفي إجمالها النهج القرآني ، وهي من هذه الوجهة تفسير للقرآن ..

ولقد سئل احد المفكرين عن خير تفسير للقرآن ، فقال : « الزمن » .

ولقد كان للصوفية في مسالة تفسير القرآن إلهامات واشراقات بتوفيق الله رائعة . وهم في هذا الميدان يسمون إلهاماتهم « ارشادات » يعنون بذلك ان الآيات القرآنية لها تفسير جاء فيما بعد - بحسب اللغة واسباب النزول ، وحوادث التاريخ . وهو تفسير يتفاوت دقة وجمالا ، ولكنه لا يستنفد كل ما تعطيه الآيات القرآنية من إرشارات ، وما يشع عنها من انوار ، وما يتضوع منها من عبير طيب .

ومن اجل ذلك فان إلهامات الصوفية في الآيات القرآنية فياضة دائما ، سيالة باستمرار .

ولأبي العباس المرسي دقائق وإلهامات في استنباط أسرار القرآن الكريم ، لم تسمع إلا منه . ومن بين هذه التفسيرات التي نسبت لسيدي ابي العباس المرسي ، نجتزىء بعض النماذج :

يفسر فاتحة الكتاب فيقول :

« الحمد لله رب العالمين » : علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه في أزله ، فلما خلق الخلق إقتضى منهم ان يحمدوه بحمده ، فقال الحمد لله رب العالمين ، اي قولوا الحمد لله رب العالمين ، أي أن الحمد لله الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي ان يكون لغيره ، فعلى هذا تكون الالف واللام للعهد .

ويقول « ابن عطاء الله » . سمعت « ابا العباس » يقول في قوله عز وجل « اياك نعبد واياك نستعين » .. اياك نعبد ، شريعة واياك نستعين ، حقيقة اياك نعبد اسلام . واياك نستعين ، احسان . اياك نعبد ، عبادة . واياك نستعين عبودية اياك نعبد فرق واياك نستعين جمع .

وإما « إهدنا الصراط المستقيم » - كما يقول « ابو العباس » - بالتثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد ليس بحاصل . عموم المؤمنين يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. اي بالتثبيت فيما هو حاصل . والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم التوحيد . وفاتهم درجات الصالحين .

والصالحون يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. ومعناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فانهم حصل لهم صلاح وفاتهم درجات الشهداء .

والشهداء يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » .. أى التثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقين .

والصديقون يقولون : « إهدنا الصراط المستقيم » أى بالتثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل ، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات القطبية .

والقطب يقول : « إهدنا الصراط المستقيم .. أى بالتثبيت فيما هو حاصل ، والارشاد لما ليس بحاصل .. فانه قد حصل له رتبة القطبانية ، وفاته علم اذا شاء الله أن يطلعه عليه ، أطلعه .

وفى قوله تعالى : « إن تعذبهم ، فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك انت العزيز الحكيم » من سورة المائدة . سأل سائل الامام « ابا العباس » : لم قال عيسى عليه السلام هذه الآية ، ولم يقل « الغفور الرحيم » بدل « العزيز الحكيم » ؟ !

وقد أجاب « ابو العباس » يقول : إنما عدل عن قوله « انك انت الغفور الرحيم » الى قوله « فانك انت العزيز الحكيم » .. لانه لو قال « وإن تغفر لهم فانك انت الغفور الرحيم » لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة . ولا شفاعة فى كافر ، ولانهم عبدوا من دون الله ، فاستحى من الشفاعة لهم عنده وقد عبدوا غيره »

ويفسر الآية الكريمة : « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا » من سورة الاسراء فيقول : لم يقل الله جل شأنه : أسرى بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله وانما كان كذلك ، لأنه اراد ان يفتح باب السريان للاتباع ، فأعلمنا بأن الاسراء من بساط العبودية . فالنبى ﷺ كان له كمال العبودية ، فكان له كمال الاسراء ، اسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه . فالاولياء لهم قسط من العبودية ، فلهم قسط من الاسراء ، يسرى بأرواحهم .. لا بأشباحهم .

***

وبالاضافة لتفسير القرآن .. فقد وجدنا « لأبى العباس » تفسيرا منفردا للأحاديث النبوية .

فمثلا كان ابو العباس يفسر حديث الرسول « إنما انا رحمة مهداة » .. بقوله :

« إن الانبياء الى اممهم عطية ، ونبينا ﷺ هدية . وفرق بين العطية والهدية ان العطية للمحتاجين ، اما الهدية فللمحبوبين . »

وفى قوله ﷺ « السلطان ظل الله فى الارض » يقول « ابو العباس » : هذا اذا كان السلطان عادلا . اما اذا كان جائرا ، فهو ظل النفس والهوى »

ويفسر « ابو العباس » قوله عليه الصلاة والسلام : « يسروا ولا تعسروا » فيقول : اى دلوهم على الله ، ولاتدلوا على غيره . فان من دلك على الدنيا فقد غرك ، ومن دلك على الاعمال فقد اتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك .

***

كان « ابو العباس » يقول لتلاميذه : « إن لحوم الاولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك .. فاياك .. و ثم اياك » . وكان يقول ايضا : « اذا ضاق الولى هلك من يؤذيه فى الوقت » . ولذلك فقد فرض هذا الولى القطب الغوث احترام الاولياء الصادقين على الناس .

ولقد اقام « ابو العباس » فى الاسكندرية ثلاثا واربعين سنة ينشر العلم ويهذب النفوس ، ويضرب المثل بورعه وتقواه الى ان انتقل الى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ « ١٢٨٧ الميلادية » . ودفن بقبره خارج باب البحر فى منطقة رأس التين . وقبره مشهور بإجابة الدعاء ، وقد قال احد المؤرخين ، إن قاضى الاسكندرية حدثه ، قال : « إن قبر سيدى ابى العباس المرسى عندنا ترياق مجرد ، ما قصد الله عنده احد فى شيء الا استجاب له » .

***

مات القطب الذى كان يدفع مريديه الى العمل ، ويرى ان العمل هو عين التسبيح ، وانه كمال المجاهدة . وكان كثيرا ما يقول لمريديه « عليكم بالسبب .. وليجعل احدكم مكوكه سبحته ، او قادومه سبحته ، او تحريك اصابعه فى الخياطة او الضفر سبحته » . وكان يدفع مريديه الى العمل ، ويقول : « فوالله ما رايت العز الا فى رفع الهمة عن الخلق ، ولا السلامة فى الدنيا الا بترك الطمع فى المخلوقين »

يقول المقرى فى « نفح الطيب » .. إن « ابا العباس » كان لا ينظر من الناس الا الى ما يبدو عليهم او يصدر عنهم من تقوى وصلاح . فقد يدخل الى مجلسه رجل غير موصوف عند الناس بالصلاح والتقوى فيحتفى به . لأن الرجل الصالح ربما افضى الى هذا المجلس وعليه اثر مباهاة بعمله الصالح ، اما سواه من غيره الصلحاء ، فيدخل المجلس بكسر معصيته وذل مخالفته »

***

ولقد ظل قبر « ابى العباس » دون بناء عليه حتى عام ٦٠٧ هـ . حيث اقام عليه كبير تجار الاسكندرية الشيخ « زين الدين بن العطان » ضريحا وقبة ، وبنى بجواره مسجدا ، وحبس عليه بعض الاملاك .. بعد ان راى رؤيا فى المنام فحققها .

وقد خضع المسجد لتطورات كثيرة بعد ذلك ، حيث اعاد بناءه والى الاسكندرية الامير « قجماش » فى اواخر القرن التاسع الهجرى ، وبنى لنفسه قبرا فيه . وفى عام ١٠٠٥ جدد بناءه الشيخ « ابو العباس السنفى » . ودفن فيه بعد وفاته . وفى سنة ١١٨٩ زار الاسكندرية الشيخ « ابو الحسن على بن عبد الله الخزرجى » ، وجدد معظم اجزاء المسجد ، ووسع بعض نواحيه ثم جدده فى عام ١٢٨٠ هـ « احمد الدخاخنى » شيخ طائفة البنائين ، وأوقف عليه اوقافا كثيرة .

وكما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » فى كتابها « مساجد مصر » .. وأوائل القرن العشرين اعادت وزارة الاوقاف بناء المسجد على مساحة تبلغ ٣٠٠٠ متر ، وبارتفاع ١٨ مترا . اما تصميم المسجد فهو يشبه الى حد كبير تصميم قبة الصخرة .. فهو يتكون من مثمن خارجى يبلغ طول كل ضلع من اضلاعه ٢٢ مترا ، بداخله مثمن آخر يكون من ثمان دعائم وستة عشر عمودا من الجرانيت ، وفى الوسط ثمانية اعمدة تقوم عليها قبة مثمنة يبلغ محيطها ٥١ مترا .

وللمسجد ثلاثة مداخل رئيسية كلها معلقة ، اذ يصعد اليها الصاعد بدرج ، احدها فى الجهة الشمالية فى مواجهة حائط القبلة التى تقع فى الضلع الجنوبى ، والآخر فى الجهة الشرقية ، والثالث وراء حائط القبلة .

كما اقيم فوق الاضرحة قبتان : الغربية منها فوق ضريح ابى العباس رضى الله عنه وولديه . والشرقية تعلو ضريح ابن ابى شامه ، وابن الحاجب ، والفكهانى ، وابن اللبان . والامير قجماش . والخزرجى . وفى الضلع الجنوبى للمسجد توجد المئذنة التى يبلغ ارتفاعها ٧٣ مترا ، ولها اربعة طوابق .. وقد بلغت تكاليف انشاء المسجد ما يقرب من ربع مليون جنيه مصرى .

***

هذا المسجد الذى تسمق مئذنته العالية فى حى رأس التين بالاسكندرية ، له قصة مع المهندس الذى بناه ، والقصة تمتزج فيها البركات مع الكرامات مع المفارقات فى تلك البقعة الطاهرة المدفون فيها سيدى « ابو العباس المرسى » رضى الله عنه .. حارس الاسكندرية ، والذى يعشقه اهل مصر ، ويعتبرونه مصدر خير ، خاصة التجار منهم .. وتجار الاسكندرية على وجه الخصوص ..

والقصة مذكورة فى كتاب الدكتور « حسين مؤنس » بعنوان « احاديث منتصف الليل » وسأذكرها بلا تعليق .. وإنما اتركه للقارىء الكريم :

فى حوالى سنة ١٩٢٨ ، وفد على مصر مهندس إيطالى شاب إستدعته الحكومة المصرية للاستعانة به فى اعمال تعمير المساجد ، الذى كانت تقوم به وزارة الاوقاف فى ذلك الحين . كان اسمه « ماريو روسى » ، وكان مهندسا معماريا ، وعالما ، رغم صغر سنه .

كان « روسى » طرازا موهوبا من الرجال ، وكان طويل الصمت والفكر مغرما بالبحث فى العمارة الماضية واكتشاف كنوزها ، وانشاء عمارة جديدة على اساسها .

والى جانب ماكانت وزارة الأوقاف تكلفه به من أعمال ترميم وبناء .. مضى « روسى » يزور المساجد والبيوت الاثرية التى كانت فى مصر ، وينقل كل مافيها من نقوش اسلامية على ورق .وأستمر فى ذلك العمل سنوات طويلة ، انشأ فيها مجموعات هائلة من اللوحات .. وهذه اللوحات المحفوظة الآن فى محفوظات وزارة الاوقاف المصرية أعظم ذخر فنى فى العمارة الاسلامية فى مصر .

وبينما كان « روسى » يقوم بهذا العمل .. طلبت اليه وزارة الاوقاف ان يعد مشروعا لاعادة بناء مسجد ولى الاسكندرية وحارسها ابى العباس المرسى .

ونهض « روسى » بالعمل ..فعمل مشروعا بديعا لبناء المسجد ، يعتمد على الاصول والنماذج الفنية التى درسها ، وابتكر فى هذا المشروع عناصر معمارية جديدة تمثل العقد المدبب المستطيل الى أعلى .. وفوق البلاطة ــ اى المربع الذى يقوم امام المحراب ــ اقام « روسى » قبة رائعة رفعها على اعمدة من الرخام وعقود مستطيلة ، وتعتبر هذه القبة من اجمل قباب المساجد المصرية الحديثة ....و ......

وبعد ان انتهى المسجد تبين للناس ان « روسى » قام بأجمل عمل معمارى دينى فى العالم الاسلامى منذ قرون طويلة .. وأصبح مسجد ابى العباس المرسى موضع إعجاب المعماريين جميعا ، واتخذوه أساسا لانشاء المساجد الاسلامية الجديدة فى مصر والعالم العربى .

ــ فى اثناء ذلك كان « ماريو روسى » يقترب من الاسلام شيئا فشيئا ، من دراسة الآثار الاسلامية ، تنقل الى دراسة الاسلام ، فلم يلبث ان مال قلبه اليه ، فقد وجد فيه راحة النفس التى كان ينشدها منذ زمن طويل ، فدرس العربية حتى اتقنها ، اخذ يقرأ القرآن فازداد حبا للاسلام وقربا منه .. وتمكن الاسلام من قلبه .

وذات ليلة كان يتمشى على شاطىء البحر فى الاسكندرية .. توجه الى مسجد ابى العباس ، وسأل عن شيخ المسجد فأتاه ، فقال له :

ـ أريد ان اعتنق الاسلام .

ونظر الشيخ اليه فى شيء من الدهشة ، ولكنه رأى فى وجه هذا الايطالى ايمانا بالغا .

فقال له : لابد لنا من شهود .. لنجعل ذلك بعد صلاة العشاء .

وانقضت صلاة العشاء .

فلما انصرف الناس ، اقبل شيخ المسجد ، ومعه صاحبان له ..

وفى صحن المسجد اعلن « روسى » إسلامه ، وقرأ القرآن ، ثم قام فصلى مع المشايخ صلاة شكر لله ، ثم قال لهم انه يريد ان يقضى بقية الليل فى المسجد .

كان ذلك فى منتصف ليلة من ليالى مايو ١٩٤٦ ..

قام « روسى » على قدميه ، فصلى لله ، ثم جثا على ركبتيه ودعا الله دعاء طويلا .. وترحم على ابى العباس ولى الاسكندرية وحارسها

إنتهت قصة المهندس الذى شيد جامع ابى العباس .

لكن لاتنتهى قصة هذا المهندس ، الذى اسلم بعد بنائه جامع ابى العباس .. فللقصة فى ذهن كل مفكر تساؤلات وتساؤلات .. لكن فى ذهن « روسى » قد يكون لها اسباب .. هى التى دفعته الى ان يعلن اسلامه .. ربما شاهد الكثير من « كرامات » ولى الله ، ابى العباس المرسى ...

* * *

نختم هذا الفصل عن « ابى العباس المرسى » بايراد بعض فقرات من حزبه الذى ذكره الامام « تاج الدين بن عطاء الله السكندرى » ، فى كتابه « لطائف المنن » .

والحزب يبدأ بالفاتحة ، وبعض الآيات والسور ، ومنها سورة المدثر وسورة إقرأ ، وآية من سورة الرحمن ، والصمدية ... ثم أدعية منها :

« اللهم يابديع السموات والارض ، ياقيوم الدارين ، وياقيوم بكل شيء ، ياحى ياقيوم يا الهنا ، لا اله لنا الا انت ، كن لنا وليا ونصيرا وأمينا ، وأمنا بك من كل شيء حتى لانخاف الا انت ، واجعلنا فى جوارك ، واحجبنا بالذى حجبت بك أولياءك ، فترى ولا يراك أحد من خلقك ، واصبب علينا من الخير اكمله واجمله ، واصرف عنا من الشر أصغره واكبره ، طس ، حم ، عسق ، مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » .

« اللهم إنا نسألك الخوف منك ، والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق اليك . والانس بك ، والرضا عنك . والطاعة لامرك على بساط مشاهدتك . ناظرين منك اليك ، وناطقين بك عنك ، لا اله الا انت سبحانك ربنا ظلمنا انفسنا ، وقد تبنا اليك قولا وعقدا فتب علينا جودا وعطفا ، واستعملنا بعمل ترضاه ، واصلح لنا فى ذرياتنا إنا تبنا اليك ، وإنا من المسلمين » .

« ياغفور ، ياودود ، يابر ، يارحيم ، اغفر لنا ذنوبنا وقربنا بودك ، وصلنا بتوحيدك . وارحمنا بطاعتك . ولاتعاقبنا بالفترة . بالوقفة من كل شىء دونك واحملنا على سبيل القصد ، واعصمنا من جائرها ، إنك على كل شىء قدير .

وختام حزب ابى العباس المرسى هو :

« ياالله ، ياقدير ، يامريد ، ياعزيز ، ياحكيم ، ياحميد .. إنا نسألك بالقدرة العظمى . وبالمشيئة العليا . وبالآيات والأسماء كلها . وبهذا العظيم منها . ان تسخر لنا هذا البحر . وكل بحر هولك فى الارض والسماء والملك والملكوت . كما سخرت البحر لموسى . وسخرت النار لابراهيم . وسخرت الجبال والحديد لداود . وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان . وسخر لنا كل شىء . يامن بيده ملكوت كل شىء . وهو يجير ولايجار عليه . ياعليم ياعظيم . ياحليم .. »

ونختتم الحديث عن سيدى ابى العباس ، ندعو معه .. بعض ماكان يدعو به الله العلى القدير .

« ياالله ، يانور ياحق يامبين : أحى قلبى بنورك ، وائتمنى بشهودك ، وعرفنى الطريق اليك . رب اغفر لى واجعلنى لك عبدا ذائب النفس بأنوراك . مطموس الحس بجلالك ، واغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات .

« اللهم اغفر لى واسترنى ولاتفضحنى فى الدنيا والآخرة ، وعلمنى وذكرنى وارحمنى وفرحنى وبرنى وفرغنى من كل شىء الا من ذكرك وطاعتك ، وطاعة رسولك ، ومحابك ومحاب رسولك صلى الله عليه وسلم .

« اللهم كن بنا رءوفا ، وعلينا عطوفا ، وخذ بايدينا اليك اخذ الكرام عليك ، اللهم قومنا اذا اعوججنا ، وأعنا اذا استقمنا ، وخذ بايدينا اذا عثرنا وكن لنا حيث كنا » .

« ياجامع الناس ليوم لاريب فيه ، اجمع بينى وبين طاعتك على مساعدتك وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة ، ونب عنى فى امرهما ، واجعل همى انت ، واملأ قلبى بمحبتك

وبهجة بأنوارك ، وخشع قلبى بسلطان عظمتك ، ولاتكلنى الى نفسى طرفة عين ولاأقل من ذلك » .

ونقول مع ابى العباس ، ونردد .. أمين أمين ..

ونقول ايضا ان هذه الادعية وغيرها .. وكذلك « حزبه » نقلناها عن كتاب الامام الاكبر الدكتور « عبد الحليم محمود » .. وغفر الله لكل من أبان شيئا عن حياة حارس الاسكندرية ابى العباس المرسى رضى الله عنه .

ونختتم الحديث برواية للإمام الشاذلى قال فيها : لن تهلك طائفة فيها أمام وولى وصديق وشيخ . ثم قال : فالامام .. ابو العباس .

ولن نتحدث عن الكرامات .. فهى ملموسة ومحسوسة ، ولكن نقول ونذكر ان ابا العباس كان يقول : « والله ماجلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى » ..

أعلام
التصوف
الاسلامى

البوصيرى

امام المادحين
وسلطان العاشقين



● ● كانني المح هذا الرجل ، بعوده النحيل ، وقوامه الاقرب من القصر الى الطول وهو يسير في شوارع القاهرة القديمة حول الجامع الازهر بالقرب من المشهد الحسيني .. او في حي باب سدرة القديم بالاسكندرية .. يخطو خطوات يظن من يلحظه اثناءها انه سيكبو ويتعثر .

لكن هذه المشية صارت عادية عند الكثيرين الذين يعرفونه .

انما الذى كان يثير الناس ، ويخطف ابصارهم ، ويجعل بعضهم يهرول اليه ، ليقبل يديه .. ما اشيع عنه من ان جسده ينثر عطرا من نوع خاص .. وان الشيب في لحيته تنبعث منه شعاعات من نور .. وثغره ياخذ سمت الرضا والابتسام دائما

لم يكن شيخ طريقة .. ولا صاحب نظرية في التصوف .

هو مصرى متدين . كانت امنيته ان تكون حياته خالصة للتصوف . مصرى يمثل خصائص البيئة المصرية الاصيلة ، بالايمان المتاصل في النفس المصرية عموما حتى النخاع .. ومع الايمان « سخرية » انضجتها الايام والاحداث التى سبقت عصره بقرون وقرون ...

وهو فنان بمفهوم العصر الحديث ..

لكنه فنان ملتزم بعصره واحداثه . فنان مؤمن شديد الايمان ، عاش في عصر كفيل بان تنبثق من احشائه عشرات مثله من الفنانين الصادقين الموهوبين .. او سمهم العباقرة ان شئت .

ولوحات هذا الفنان تتوزع بين غرضين .. الاحتجاج الساخر .. والتعبير الديني الصادق .. لكن الغرض الاخير ، ولو انه استغرق فترة من حياته فقد عرف به واشتهر .. وصار من الائمة والاولياء .

ورغم ان اهل مصر ، وغير مصر ، صاروا يرددون فنه .. الا انه عاش انسانا عاديا بسيطا متصوفا على الكفاف ، يعاني شظف العيش وكثرة الاولاد .

وكان الامراء والولاة والسلاطين يعرفون قدره ويخطبون وده لكنه كان يحفظ عن ظهر قلب ما قاله قطب في التصوف من ان « لحوم الاولياء مسمومة » .. فلم يكن

هو بالذى يسكن على ضيم او يغمض عينه على معصية ، او يتهاون فى حق وطنه ..من اجل اغراء الأصفر الرنان .

بلاده .. مصر افتقدت الإمن والامان ، واستشرت فيها الانتهازية والمرتزقة . ووطنه المسلم تهددته الحروب والكوارث والاوبئة والمجاعات .. والانتهازية بدات انيابها تبرز ومخالبها تنشبها فى كل من يقول كلمة حق .

لكنه بايمانه القوى لم يخف ، ولم ترتعد فرائصه ، بل خصص فنه وعبقريته لكشف هؤلاء ، ولتعقبهم فى كل مكان .

وشجاعته هذه جلبت عليه الكثير من المسغبة وشظف العيش . حتى صار انسانا « مكافحته » واجبة .

لكنه ظل صامدا ، صابرا ، اصيلا رغم كثرة العيال ، ورغم ظروفه التى لم تقدر رسالته . فى عصر خلا من المبادىء والقيم والإخلاق لدرجة ان بعض الفقهاء والقضاة لم يرعوا حق الله .

وكمؤمن صلب . ظل على مبدئه مهما عبس الزمان وقطب فى وجهه .. اقتحم اسوار كل عمل شريف ياتى بلقمة حلال ولو جاع العيال .. ثم كانت « خبطته » الكبرى .. او ضربة العمر فى بحر البسيط ..قصيدته التى تخاطف ابياتها الناس ، وصارت هى محور الاهتمام والبركات ، و« مرفا » نفسيا .. فى بحر الحياة المتلاطم بامواجه ..

قلبت هذه القصيدة المفاهيم ، واثرت على الوجدان .. هذه القصيدة انهت غربته ، ورفعت اسمه وصيته فى كل مكان ..

لقد صار بها هذا الرجل تاجا على رءوس المؤمنين من البسطاء وقطبا « غوثيا » عند المؤمنين من المتصوفة .. وهو بين الشعراء صار اماما للمادحين وسلطانا للعاشقين للرسول ﷺ واهل بيته الكرام ..

انه « البوصيرى » الشاعر القطب المؤمن ..

الانسان المصرى المؤمن ..

***

شهدوا جميعا .. بانه امام المادحين للنور المحمدى ..

وعقدوا له لواء امارة الشعر الدينى ..

فلقد جاءت قصيدته فى مدح رسول الله ﷺ آية فى البركات والنفحات مؤججة للوجدان الدينى .. كما أن فى القصيدة ــ التى تحوى مائة وستين بيتا ــ اشياء اخرى كثيرة .. حتى أن الدكتور « زكى مبارك » ــ أو الدكاترة « زكى مبارك » ، والذى

لايعرف قدره ابناء هذا الجيل ، كتب يقول : « والبوصيرى بهذه البردة هو الاستاذ الاعظم لجماهير المسلمين . ولقصيدته اثر فى تعليمهم الادب والتاريخ والاخلاق . فعن البردة تلقى الناس طوائف من الالفاظ والتعابير غنيت بها لغة التخاطب . وعن البردة عرفوا ابوابا من السيرة النبوية . وعن البردة تلقوا ابلغ درس فى كرم الشمائل والخلال . وكذلك استطاع البوصيرى ، بتصوفه ، ان يؤثر فى الادب والاخلاق تأثيرا لايدرك كنهه الا من رأى كيف تدور البردة على السنة العوام ، وكيف تهذب ماطبعوا عليه من عنجهية الخصال . وليس من القليل ان تنفذ هذه القصيدة بسحرها الاخاذ الى مختلف الاقطار الاسلامية ، وان يكون الحرص على تلاوتها وحفظها من وسائل التقرب الى الله والرسول » ..

لقد انعم الله على الامام « البوصيرى » بهذه القصيدة .. بعد رحلة معاناة طويلة ومثيرة لحياته ، ظلت تعزف الشعر ، وتتناغم فيها الكلمات .. لفترة تربو على اكثر من نصف قرن من الزمان ، وفى حياة امتدت ثمانية وثمانين عاما . فجاءت البردة تاجا لشعره .. ونموذجا طيبا للشعراء العاشقين ، المادحين للرسول ﷺ ..

لقد قال « البوصيرى » فى حياته الطويلة المثيرة شعرا كثيرا ..

وخاض « البوصيرى » كل أغراض الشعر .. كما خاض اغلب بحوره .. كانت حياته شعرا فى شعر ، فى كل مكان فى مصر زاره او عمل فيه .. لكن « البردة » .. انست الناس جميع شعره .. وهى التى خلدت ذكره ، ورفعت صيته ، وجعلته على راس شعراء المديح المحبين العاشقين للرسول ، وأهل بيته الكرام .. كما انها ـ القصيدة ـ التى رفعت من شأنه عند المتصوفة ، الذين رفعوه بهذه القصيدة الى مقام « القطبانية » .. و« الغوثية » ..

ورغم ان هذه القصيدة لم تكن اولى قصائد المديح لرسول الله ﷺ فى الشعر العربى .. او هى القصيدة الوحيدة « للبوصيرى » .. كما لم تكن هى آخر قصائد المديح ايضا ، ولن تكون كذلك .. فان هذه القصيدة بظروف عصرها الذى قيلت فيه ، وبالوجدان المسلم التقى وبالملابسات والمناخ الذى ظهرت فيه .. كل ذلك جعلها « درة » شعر المديح النبوى ..

ولذلك ، فان امير الشعراء « أحمد شوقى » ، رغم انه كتب « نهج البردة » والتى تعتبر من عيون الشعر العربى ، ومن اجود القصائد التى قيلت فى المديح .. كما كتب الهمزية فى مدح الرسول ﷺ ، وهى كما جاء فى كتاب الدكتور « حسين مؤنس » « احاديث منتصف الليل » .. احلى واجود من همزية البوصيرى ، حين اعترف شوقى

بذلك .. وايده الشاعر عبدالرحمن صدقى .. اقول رغم ذلك كله .. فلقد شهد شوقى نفسه للبوصيرى وبايعه قائلا بالامارة ، واعتذر له مؤكدا انه لم يكتب معارضا للبوصيرى :

المادحون وارباب الهوى تبعا
لصاحب البردة الفيحاء فى القدم
مديحه فيه حب خالص وهوى
وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يعلم انى لا اعارضه
من ذا يعارض سيل العارض العرم
وانما انا بعض الغابطين ، ومن
يغبط وليك لم يذمم ولم يلم
هذا مقام من الرحمن مقتبس
ترى مهابته سحبان بالكلم

« شوقى » هنا يعترف « للبوصيرى » بأنه امام المادحين ، وامام الشعراء المجيدين فى مدح الرسول ﷺ . ويعترف له ايضا بأن كل الشعراء الذين خاضوا بحر المديح للرسول عليه الصلاة والسلام قبل « البوصيرى » ، وبعده ، هم « اتباع » لهذا الامام .. فهو ـ اى البوصيرى ـ كالسيل العرم ، وهو صادق ، وان هذا الصدق ياتى بصادق الكلام والشعور . او صدق « بردة البوصيرى » .

وهذه الابيات التى قالها « شوقى » فى « البوصيرى » ، هى من قصيدته « نهج البردة » ، التى نظمها واهداها للخديو .. تكفيرا له عن هروبه من رحلة الحج الى بيت الله الحرام ..

فلقد كان الخديو ، قد أصدر فرمانه ، بأن يسافر شاعره معه فى هذه الرحلة المقدسة .. ووقع شوقى فى « مطب » كبير .. يبدو انه لم يكن مهيأ نفسيا للحج الى بيت الله الحرام . لكنه بالفعل ركب القطار المسافر من القاهرة الى الاسماعيلية . وحين وصل الى هذه المدينة ونزل منه الخديو استعدادا لركوب السفينة .. تسرب الشاعر واختفى ، دون ان يراه او يدرى به احد .. وعاد للقاهرة . وفى الطريق الى رحلة الحج ووسط مياه البحر ، سأل الخديو عن شاعره ، وبحثوا عنه فلم يجدوه . فغضب الخديو على شوقى لمخالفة امره .. ووصل هذا الخبر الى شوقى . وفكر شوقى فى اعتذار رقيق

للخديو على مابدر منه . كانت قصيدة « نهج البردة » التى قدمها ، والتى تقع فى مائة وثمانين بيتا من أجود الشعر وأرصنه ، واحفله بالتراكيب الموسيقية ..

ولقد نشرت « نهج البردة » .. لاول مرة فى جريدة « المؤيد » التى كان يرأس تحريرها الشيخ « على يوسف » فى العدد الصادر فى ٢٦ يناير ١٩١٠ كما نشرت فى كتيب مستقل ، مشروحة بقلم الشيخ « سليم البشرى » . وهذه القصيدة مطلعها :

ريم على القاع بين البان والعلم
احل سفك دمى فى الاشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر اسدا
يا ساكن القاع ادرك ساكن الاجم
لما رنا حدثتنى النفس قائلة
ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى
جرح الاحبة عندى غير ذى الم
رزقت اسمح ما فى الناس من خلق
اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

والواقع انه ما اكثر القصائد العصماء ـ الحافلة بالمدائح النبوية ـ التى قالها الشعراء منذ بدء الرسالة وحتى الآن .. ونحن قد قدمنا قصيدة « نهج البردة » لامير الشعراء « احمد شوقى » لانه قريب العهد بنا ..

وكل من يقرأ فى تاريخ الشعر الدينى العربى الاسلامى ، يستطيع ان يحصى الالوف المؤلفة لشعراء اجادوا فى مدح الرسول ، ولم تسعفهم وسائلهم الى ان ينالوا الشهرة كما نالها البوصيرى .. لكن يبقى ان نقول عن هؤلاء الشعراء انهم قالوا قصائدهم فى مديح رسول الله ﷺ من نبع الحب للرسول ولآل بيته الكرام . ولا نشك فى محبة هؤلاء لرسول الله واهل بيته الشريف .. وانما الحب درجات بالطبع .. وهذا هو سبب تفضيل شاعر على اخر ، وقصيدة على مثيلتها ..

والواقع انه يقف بجانب « بردة » البوصيرى ، و« نهج البردة » لشوقى قصيدة اخرى ثالثة .. هى التى ينبغى علينا كمنصفين متجردين ان نعقد لها الريادة فى شعر المديح ، وهى قصيدة الشاعر « كعب بن زهير بن ابى سلمى » ..

وقبل أن نتحدث عن هذه القصيدة .. ينبغى أن نلفت الانظار اولا .. الى ان الاعمال الكبار ، او التى نعتبرها كذلك ـ ومهما كانت صفة صاحبها .. لاتكون كذلك

الا من خلال مناخات وظروف وملابسات .. هى التى تعطى هذا العمل ، او ذاك ، تلك الشهرة العالية ، او غير العالية ..

فالمناسبة والموضوع والظروف .. من الممكن ان تئد عملا فنيا جيدا .. ومن الممكن ايضا ان تعطى لواء الشهرة والذيوع لعمل عادى ..

ففى عصر الصدر الاول من الاسلام قيلت قصائد كثيرة وجيدة فى مدح الرسول ﷺ .. وهذه القصائد لشعراء كبار مشهورين ، مثل « الاعشى » ، و« حسان بن ثابت » وغيرهما من الذين امتلا باسمائهم وقصائدهم ديوان الشعر العربى ، على مدى اربعة عشر قرنا من الزمان .. لكن القصيدة التى اشتهرت اكثر من غيرها فى تلك الفترة هى قصيدة « كعب بن زهير » .. والسبب كما قلت هو الظروف والملابسات التى عايشتها .. وهذه القصيدة مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين اذ برزت
الا اغن غضيض الطرف مكحول
نبئت ان رسول الله اوعدنى
والعفو عند رسول الله مامول

وهذه القصيدة ، لها قصة ترويها الكتب .. فهذا الشاعر الذى شاهد ظلام الجهالة ونور الاسلام واليقين ، كان شاعرا فذا ، ورث الشعر عن ابيه « زهير بن ابى سلمى » .

ولقد ظهر نبوغ « كعب » عند اشراقة شمس الاسلام ـ او قبله ـ وفى مفتتح الاسلام اضاء الله قلب اخ له واسمه « بجيرا » .. الذى اقبل على الاسلام وذهب الى الرسول ﷺ واشهر اسلامه ، فكان هذا ـ على مايبدو ـ مما اثار « كعبا » ، وجعله يتورط فى هجاء اخيه ، وهجاء الدين الجديد .

وكما كان الشعر هو اعلام العصر .. فقد كان لقصيدة كعب تأثير كبير ، خاصة والرسالة النبوية الشريفة فى بدايتها . ويقال ان الرسول ﷺ حينما علم بالقصيدة اهدر دم قائلها ، وبعث اليه بأخيه « بجيرا » يحذره وينذره .

لكن يبدو ان « كعبا » فى تلك الفترة مس شغاف قلبه نور الايمان ، فقدم على الرسول ﷺ محيا ، وداخلا فى الدين ، طالبا من الرسول الصفح والعفو عما بدر منه من جهالة ..

وانشد بين يدى الرسول ، وعلى رءوس الاشهاد قصيدته « بانت سعاد » ..

ويقول الرواة ، ان هذه القصيدة أعجبت الرسول عليه الصلاة والسلام .. ولذلك فانه ﷺ ، لم يكتف باظهار العفو عن « كعب » ، وانما خلع عليه بردته .. او عباءته .. فكان مما اشهر « كعبا » على شهرته واشهر قصيدته بين العرب اجمعين .

والروايات تتسلسل وتتصل .. زيادة في الشهرة ، فتزعم ان « معاوية بن ابى سفيان » اراد ان يشترى « بردة » الرسول ﷺ من « كعب » واغلى له الثمن ، لكن « كعبا » ابى ان يبيعها « لمعاوية » . وانه لما مات « كعب » ـ فيما بعد ـ راجع « معاوية » أهله ، واستطاع ان يشتريها منهم بثمن ضخم ، وان هذه « البردة » . هى التى توارثها الخلفاء .. وكانوا يخرجون بها الى الناس ، فى مواكب العيدين . وربما فى مواكب الحرب تبركا ، وطلبا للنصر ..

ظروف هذه القصيدة اذن ، تلك التى صارت قصة تتصل بالرسول ، اشاعتها على مرور الايام ، وكانت سببا فى ذيوعها الى الان ، بل إن الدكتور « زكى مبارك » يرى ان « بانت سعاد » لولا مافى الفاظها من الوعورة ، لشاعت فى البيئات الصوفية ، واصبحت من جملة الاوراد ، وكان لها ماصار للبردة من السيرورة بين العوام والخواص . وبهذا يضيف « زكى مبارك » شيئا اخر الى ما اضفناه عن الظروف والملابسات .. وهو نوعية العمل الفنى وسلاسته ..

وبالطبع ، فان لبردة الامام « البوصيرى » ظروفا كانت السبب فى ذيوعها وتداولها .. وان كان ذلك لاينفى ان الموضوع نفسه ، والنظم الجيد والصدق .. لها تأثير عند المتلقى المسلم . ويؤكد ذلك .. ان « للبوصيرى » ، نفسه عدة قصائد فى المديح النبوى الشريف ، يربو عددها على تسع قصائد ، منها « الهزيمة » فى ٤٥٧ بيتا ، والتى سماها « ام القرى فى مدح خير الورى » كما ان لـ « احمد شوقى » كذلك قصائد نبوية كثيرة .. لكن لم يشتهر من اشعار « البوصيرى » سوى « البردة » .. ولم تشتهر من اشعار « شوقى » الاسلامية ـ او الاسلاميات ـ سوى « نهج البردة » ..

***

والسؤال هو : ماهى الظروف التى لابست ذيوع « بردة » البوصيرى ، التى حملت اسم « الكواكب الدرية فى مدح خير البرية » .. قبل ان يطلق عليها « البردة » .. بعد ان بدأت تذيع وتشتهر بين جماهير المؤمنين ؟ ..

الواقع انه كما ان لبردة « كعب بن زهير » قصة .. فقد نسجت حول بردة « البوصيرى » اقاصيص وروايات .. وهذه القصص لم تأت على لسان احد ، وانما رواها « البوصيرى » نفسه ..

يقول الامام « البوصيري » ، فيما يشبه قصة « كعب بن زهير » مع الرسول ﷺ .. مع الاختلاف طبعا :ـ

« كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله ﷺ ، منها ما كان اقترحه علىّ الصاحب زين الدين بن يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك ان صاحبنى فالج فابطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه فعملتها واستشفعت بها الى الله تعالى ان يعافينى ، وكررت إنشادها ، ودعوت وتوسلت ، ونمت ، فرأيت النبى ﷺ ، فمسح وجهى بيده المباركة ، والقى على بردة . فانتبهت ووجدت فىّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم اكن بذلك قد اعلمت احدا ، فلقينى بعض الفقراء ، فقال لى : اريد ان تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله ﷺ ..

فقلت : ايها ؟ . فقال : التى انشأتها فى مرضك وذكر أولها . وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله ﷺ ، ورأيت رسول ﷺ يتمايل وقد أعجبته ، والقى على من انشدها بردة فأعطيته إياها ، وذكر الفقير الصوفى ذلك وشاع المنام » .

* * *

ويتصل بهذه القصة ، قصة أخرى تضاف الى سابقتها للتأكيد على أن هذه القصيدة إحدى البركات . فقد روى « البوصيرى » ايضا .. انه وهو يقرأ القصيدة ـ فى المنام ـ على حضرة الرسول ﷺ ، وحين وصل الى الشطر الاول من البيت الذى فيه « فمبلغ العلم فيه انه بشر » ، لم يستطع تكملة البيت . فتوقف ، فقال له ﷺ : إقرأ . فقال : إنى لم اوفق « للمصراع » أى الشطر الثانى للبيت . فقال له الرسول ﷺ ، قل : « وانه خير خلق الله كلهم » .. فكان أن ادرج البوصيرى هذا « المصراع » الذى قاله النبى ﷺ ، وجعله صلاة مكرورة بعد كل بيت ، حرصا على لفظ النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان يقرأ بعد كل بيت من أبيات البردة ، كما يلى :

مولاى صل وسلم دائما ابدا

على حبيبك خير الخلق كلهم

* * *

وقصة ثالثة تتصل بما سبقها من قصص حول « بردة البوصيرى » ، أو هى تنبنى عليها .. وقد روتها كتب كثيرة ، منها كتاب « محمد بن شاكر الكتبى » « الوافى بالوفيات » .. والذى جعله مؤلفه ذيلا لكتاب « وفيات الاعيان » « لابن خلكان » .

وهذه القصة تروى على لسان « البوصيرى » .. بعدما اعطى « البوصيرى » البردة للفقير الصوفى .. يقول :

« ..فاعطيته اياها ، وذكر الفقير ذلك ، وشاع المنام الى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين محمد بن حسن ، وزير الظاهر بيبرس ، فبعث الىّ واخذها وحلف الا يسمعها الا قائما حافيا مكشوف الراس . وكان يحب سماعها هو واهل بيته ..

« ثم انه بعد ذلك ادرك سعد الدين الفارقى رمد أشرف منه على العمى ، فرأى فى المنام قائلا يقول له : إذهب الى الصاحب . وذهب ، وذكر منامه . فقال الصاحب : ماأعرف عندى بردة من اثر النبى ﷺ . ثم فكر ساعة ، وقال : لعل المراد قصيدة البوصيرى . يا ياقوت : افتح الصندوق الذى فيه الاثار ، واخرج قصيدة البوصيرى وأت بها . فأتى بها ، فأخذها سعد الدين ، ووضعها على عينيه ، فعوفى .. »

هذه القصص وتلك الحكايات تعطى للبردة بركات وأهمية خاصة .. فقصيدة البوصيرى هنا .. تمتزج ببردة الرسول .. مما يجعلها مطلبا لكل مسلم .. تبركا أو شفاء ..

* * *

وكما ان للبردة البوصيرية قصصا وروايات متسلسلة ..

فكذلك التسمية نفسها .. فهذه التسمية للقصيدة « بالبردة » ، هى من نسج « البوصيرى » نفسه .. تبركا « ببردة » « كعب بن زهير » ، تلك القصيدة التى يعرف « البوصيرى » قيمتها اكثر من غيره كشاعر فنان متذوق وشاعر مديح من الدرجة الاولى .

وهذه القصص فى الواقع تحتاج الى وقفة موضوعية .

وانا هنا لا اقصد مناقشة الرؤيا التى شاهدها « البوصيرى » ، فاهل الله مع الصوفية لهم رؤاهم ، « والبوصيرى » كان رجلا صوفيا ، خاصة فى السنوات الاخيرة من حياته الحافلة ، كذلك فانا لا اناقش قصة مرضه بالفالج أو الشلل النصفى ، ومرض سعد الدين الفارقى .. وما لقيه الاثنان من شفاء . انما انا هنا اناقش تلك اللقطة التى قالت فى الرؤيا ان الرسول ﷺ قد استكمل الشطر الثانى من أحد أبيات قصيدة « البوصيرى » .. خاصة وان هناك خلافا بين مؤرخى « البوصيرى » على ماهو هذا البيت الذى اكمله الرسول ﷺ فى المنام :

هل هو البيت الذى يقول :

محمـــد ســـيد الكونيـــن والثقليـــن
والفريقيـــن مـــن عـــرب ومـــن عجـــم

أم هو البيت الذى ورد فى قصة « البوصيرى » ، التى ذكرناها ؟

والواقع أن هذين البيتين لمن يتمعن فى قراءة « بردة » « البوصيرى » ، رغم انهما جيدان ، فإنهما ليسا خير مافى القصيدة من أبيات ، حتى يمكن أن نجد لهذه الحكاية سندا يمهد للاقتناع بها . ويوافقنا على ذلك « عبدالعليم القبانى » ، صاحب كتاب « البوصيرى حياته وشعره » . فرغم أن الرسول ﷺ معصوم عن قول الشعر بنص الآية القرانية التى تقول : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ـ من سورة يس ـ فان التكملتين لا ترقيان الى مرتبة جيد الشعر ، وليس فيهما من الاشراق والبلاغة مما اتصف به الرسول ﷺ .

ويؤكد من رأينا أو يدعمه .. أن أبيات « البردة » ، برغم حلاوتها وطلاوتها .. فان التكملة التى قال « البوصيرى » ، إنما جاءته فى المنام فى البيت ... « وانه خير خلق الله كلهم » .. هذه التكملة وردت فى قصيدة لشاعر اسمه « الصرصرى » المتوفى ٦٥٦هـ . وقد أورد البيت الاستاذ « محمد سيد كيلانى » فى مقدمته لديوان « البوصيرى » . بمعنى أن « البوصيرى » لم يأت بجديد فى هذا البيت . وحتى « البوصيرى » نفسه ، جاء ببيت شبيه بالبيت الذى قال ان النبى ﷺ اكمله .. جاء به فى قصيدة له قبل « البردة » .. وهى قصيدة « ذخر المعاد » .. التى وجدها الاستاذ « محمد سيد كيلانى » فى ديوان « البوصيرى » : فقصيدة « ذخر المعاد » فيها بيت يقول :

والمصطـــفى خيـــر خلـــق الله كلهـــم
لـــه الرســـل ترجيـــح وتفضـــيل

هذه بعض الملاحظات .. أوردتها ، ولاينبغى أن يفهم منها انها تحاول انقاص شاعرية ، أو صدق .. او قيمة الامام « البوصيرى » .. أو « بردته » . فالعمل الجيد دائما يحير ، ويلتصق به عشرات القصص والروايات ، والتى تصبح موروثات على مدى القرن .. تزيد وتنقص وتجعل النقاد فى حيرة التقديرات أمامها .

وهناك ملاحظات اخرى على بردة البوصيرى ، ليست هى من ملاحظاتنا . وانما هى واردة فى الكتب ، اردنا ان نذكرها هنا عملا بالصدق العلمى .. وهى انما تدل على أن « بردة البوصيرى » كانت فتحا كبيرا اقام الدنيا وشغل الناس .

فهناك بعض الافكار فى القصيدة لقيت اعتراضات من بعض المتمسكين بحرفية النصوص ، وعلى رأسهم الامام « ابن تيمية » . فلقد قيل ان بعض أبيات القصيدة تجاوز الحد الى الدرجة التى يمكن ان تكون شطحات شاعر . وقد أنكروا على « البوصيرى » بعض الاغراق الذى وصل الى حد التجاوز المسموح لرجل مسلم . وذكروا عدة ابيات من البردة تدل على ذلك وتشهد عليه . مثل البيت الذى يقول :

فـــان مـــن جـــودك الدنيـــا وضرتهـــا
ومـــن علومـــك علـــم اللـــوح والقلـــم

والبيت الذى يقول ايضا :

لـــو ناســـبت قـــدره اياتـــه عظـــما
احيـــا اســـمه حيـــن يدعـــى دارس الرمـــم

فبالنسبة للشطر الاول من البيت الاول .. انكر المنكرون على « البوصيرى » ان تكون الدنيا والآخرة ، وهما مجلى ملكوت الله عز وجل ، من جود سيدنا « محمد » ﷺ . وهو على أية حال تساؤل لاترى الصوفية فى اجابته مايمس العقيدة . اذ أنهم يؤمنون ـ أو على الاقل ـ كما يقول « عبد العليم القبانى » ـ يؤمن اكثرهم بأولية النور المحمدى للكائنات ، وأنها منه وجدت . كذلك أنكروا على الامام « البوصيرى » قوله فى الشطر الثانى من البيت الاول .. أنه كيف يكون علم اللوح والقلم من علوم سيدنا رسول الله ﷺ ... بينما ان هذه العلوم المثبتة باللوح « علم الغيب » مالا يعلمه الرسول حسب النص القرآنى « ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . وهنا يجيب المدافعون عن البوصيرى ، فيقولون بأن علم اللوح المذكور فى قصيدة « البوصيرى » انما يعنى العلم القرآنى : « بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ » . ويقول البعض كذلك ان هذا يعود الى مسألة أهل الظاهر واهل الباطن . والرسول كان يعلم الغيب فعلا بمقدار ، لانه ﷺ اخبر ببعض ما أذن له ان يخبر به ، مثل قوله فى عمار بن ياسر « تقتله الفئة الباغية » ، وقوله ﷺ فى ابى ذر الغفارى « سيموت غريبا » .

وبالنسبة للبيت الثاني الذى ذكرناه ، يعترض المعترضون على شطره الاول بأنه لايجب على المسلم ان يلوذ بغير الله ، وبخاصة فى هذا الموقف الصعب ، يوم الحشر العظيم : « يوم يفر المرء من اخيه وامه وابيه .. » ويدللون على ذلك بأن الرسول ﷺ يقول لابنته السيدة « فاطمة الزهراء » رضى الله عنها : « يافاطمة بنت محمد اعملى ، فانى لا اغنى عنك من الله شيئا » . لكن يرد البعض على المعترضين بطائفة من احاديث الرسول ﷺ ، المعروفة بأحاديث الشفاعة .. وكذلك يردون ببعض التفسيرات لآيات بينات من القرآن الكريم .

أما الشطر الثاني ، فيقول المعترضون ، إنه من المبالغة غير المطلوبة أن يكون اسم النبى الكريم ﷺ ، وسيلة لاحياء الموتى . وان المسيح عليه السلام انما احيا الموتى باذن الله . ويرد البعض عليهم منصفين « البوصيرى » بأن حرف « لو » الذى يفيد الامتناع ، ينفى معقول المبالغة .. وإذن لاشىء فى هذا البيت « للبوصيرى » مما يتنافى مع العقيدة الاسلامية هذا من جهة ..

ومن جهة اخرى فان هناك دائما من يحاولون النيل من كل عظيم . فالبعض حاول أن يقول ان « البوصيرى » .. فى بردته كان ناقلا ، أو هو متأثر بقصائد غيره من الشعراء . وقد ذكرنا ماكان له مع قصيدة « كعب بن زهير »

ونذكر هنا من يقول أيضا إن « البوصيرى » تأثر بميمية « ابن الفارض » التى مطلعها :

هل نار سلمى بدت بذى سلم
ام بارق لاح فى الزوراء فالعلم

فهذا المطلع يكاد يتطابق مع مطلع بردة الامام « البوصيرى » :

امن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

والبعض أيضا يرى أن الكثير من المعانى الواردة فى « البردة » .. تتطابق أيضا مع ماقاله « ابن الفارض » ، خاصة فى البيت الذى يقول فيه :

يالائما منى فى حبهم سفها
كف الملام فلو احببت لم تلم

هذا البيت شبه به بيت « البوصيري » الذي يقول فيه :

يالائمي في الهوى العذري معذرة

مني اليك ، ولو انصفت لم تلم

نحن هنا نعترف بالتشابهات .. في الابيات التي اتينا بامثلة عليها .. لكننا نقول إن « البوصيري » هنا يتضح حفظه للتراث الشعري الديني في قلبه ووجدانه .. وكثيرا ماتلتقي افكار الشعراء وأساليبهم بدون تعارف بينهم سواء في عصورهم .. أم في غير عصورهم ..

هذا بعض ماأثير حول بردة الامام « البوصيري » .

على أن المؤرخين المنصفين للامام « البوصيري » يعترفون انه مهما قيل في هذه القصيدة المباركة ، وعلى فرض ثبوت المبالغات ، وثبوت الاقتباسات او التأثرات بقصائد أخرى .. فان قصيدة « البوصيري » كانت تعتبر فتحا جديدا في وقتها . كما انه لاينقص من قيمة « البوصيري » أو شعره اوقدرته انه كان مخلصا وكان صادقا في مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. « فالإخلاص ـ كما يقول د . زكي مبارك ـ هو الذي مكن البوصيري من ناصية المجد الادبي ، وهو الذي رفعه الى منزلة الخلود .. » .

***

والدليل على قيمة « بردة » « البوصيري » انها نالت من الاهتمام مالم تنله قصيدة أخرى في تاريخ ديوان الشعر العربي ، لقد كان نصها مباركا يحفظ في الخزائن الامينة في البيوت تبركا وتوسلا الى الله ورسوله وتبارى أصحاب الخطوط الجميلة ، فكتبوا نصها برقائق الذهب .. وصنعوا منها ـ وكانوا هم من الفنانين الكبار ـ لوحات متنوعة زينت الجدران .. ومنها جدران مسجد « البوصيري » نفسه بالاسكندرية .

وهناك نسختان من « البردة » مخطوطتان شاهدتهما في مكتبة محافظة « الاسكندرية » .. وهما نموذجان حيان للعناية التي كانت « للبردة » وصاحبها .. والنسختان مكتوبتان بماء الذهب .

والنسخة الخطية الاولى ـ مكتوب في آخرها بشكل هرمي مقلوب « برسم خزانة مولانا السلطان الظاهر ، خدمة مملوكه توزي المكي الظاهري » .

أما النسخة الثانية فمكتوب على صفحتها الاخيرة « برسم الست المصونة الكبرى عائشة ابنة اسماعيل الخازن صان الله جمالها . آمين » .

***

وبالاضافة الى هاتين النسختين .. ففى مكتبة « الاسكندرية » عشرات النسخ المخطوطة بعشرات الشروح لها .. بالاضافة الى المعارضات والتخميسات والتسبيعات لها .. وقد استطعت تصوير الكثير منها .. وقمت بنشرها بمناسبة إقامة « امسية البوصيرى » فى الاسكندرية فى صيف عام ١٩٧٧ .

وعلى سبيل المثال ، لاالحصر .. فهناك شروح للبردة ، قام بها الكثيرون منهم الشيخ ابراهيم الباجورى .. والشيخ خالد الأزهرى ، والشيخ حسن العدوى الحمزاوى ومحيى الدين زاده ، ومحمد رضوان .. وهذه الشروح مطبوعة فى كتب .

هذا بالاضافة الى شروح مازالت مخطوطة مثل شرح « البردة » لابن العماد الأقفهسى ، « واظهار صدق المودة فى شرح قصيدة البردة » لابن مرزوق التلمسانى .. وهذان الشرحان يعودان الى القرن التاسع للهجرة .

وتنتمى لهذ القرن ايضا شروح مخطوطة للبردة مثل شرح جلال الدين المحلى .. و « الزبدة الرائقة فى شرح البردة الفائقة » لابى يحيى زكريا الانصارى المتوفى فى القرن العاشر . و « شرح البردة » لخير الدين خضر ابن عمر العطوفى . وشرح آخر للبردة للشيخ محيى الدين محمد بن مصطفى المعروف بشيخ زاده المتوفى عام ٩٥١هـ . هذا بالاضافة الى « الدرة المضيئة فى شرح الكواكب » تاليف ملا محمد بن ابى بكر الكرارى . و « شرح البردة » للشيخ عبدالرحمن القدسى « أبوشامه » . و « الزبدة فى شرح البردة » تاليف ملا على بن سلطان محمد القارى و « الدرة الفريدة فى شرح القصيدة » للشيخ محمد الشافعى العنانى .. وهى من القرن الحادى عشر الهجرى .

***

لكن يبقى السؤال .. حول الاثر الذى تركته البردة فيما جاء بعدها من شعر عربى ...

لقد حاول كثيرمن الشعراء معارضتها ، أوتشطيرها أوتخميسها أوتسبيعها ، الى غير ذلك . فقد عارضها الكثيرون ، ومنهم ابن حجة الحموى من القرن التاسع وعائشة الباعونية

من القرن العاشر ، وصفى الدين الحلى من القـرن الثامن .. وغـيرهم كثير ممـا حصره عبد العليم القبانى ، مثل جلال الدين السيوطى ، وبهاء العاملى وعبد الغنى النابلسى .. هذا بالاضافة الى معارضات البارودى وشوقى .. وتخميسات شمس الدين الفيومى « القرن الثامن الهجرى » ومحمد بن ابى السعيد السخاوى « القرن العاشر » والعشرى السبكى « القرن الحادى عشر » . ثم تسبيعات حارث بن الرومى ، وناصر الـدين البيضاوى .. بالاضافة الى المحدثين مثل الساعاتى ، وجبر ، وعبد المجيد شوقى والسقا .

أما أهم المعارضات ، فهى معارضة شوقى بقصيدته « نهج البردة » وهناك معارضة البارودى بقصيدته « كشف الغمة فى مدح سيد الأمة » وهى تقع فى ٤٤٧ بيتا . وقد نظمها فى جزيرة سيلان وهو فى منفاه بعد إخفاق الثورة العرابية . وهذه القصيدة مطلعها :

يارائد البرق يمم دارة العلم

واحد الغمام الى حى بذى سلم

وهذه القصيدة لا ترقى لقصيدة « البوصيرى » لا من ناحية النظم او الصور البلاغية .. كما انها ايضا لاترقى « لنهج البردة لشوقى » على ان اهم مافيها هو الصدق الذى كتبت به .

* * *

والاثر الدينى للبردة إن صح هذا التعبير .. يعتبر اثرا لامثيل له ، ولم تنله قصيدة اخرى . فبعض الصوفية اتخذوا منها « وردا » يقرأ فى الخلوات او فى حلقات الذكر .. أو تقرأ فى المساجد ايام الجمع وبعد صلاة الجمعة .. او بعد صلاة العشاء .

ولقد اشترط بعضهم شروطا قبل قراءة البردة .. مثل الطهارة والوضوء واستقبال القبلة . بل ان البعض يعتقد فى شفائها من الأمراض جريا على رواية « البوصيرى » نفسه من انها كانت السبب فى علاجه من الفالج ، أو الشلل . والبعض احتفظ بها فى البيوت معلقة على الجدران لإبعاد الاذى ودفع النكد . ونسبت اليها الكثير من الكرامات .

والمهم ان « البردة » إستطاعت ان تحول البوصيرى من شاعر عادى ، الى شاعر فى الضوء .

بل ان « البردة » وحتى وقت قصير .. كانت تتردد أبياتها ـ خاصة فى القرى ـ اثناء سير الجنازات تيمنا بها ووسيلة الى الله ان يدخل الموتى الجنة وان يجنبهم النار .

اذا قلنا ان البردة تقع فى مائة وستين بيتا من الشعر الراقى حسب نص البوصيرى .. فان البوصيرى قد اضاف اليها حوالى سبعة ابيات البعض يضيفها الى البردة ، والبعض يفصلها عنها .. ومنها هذان البيتان اللذان يقولان :

وهذه بردة المختار قد ختمت
والحمد لله فى بدء وفى ختم
ابياتها قد اتت ستين مع مائة
فرج بها كربنا ياواسع الكرم

* * *

والبردة (١) تبدأ على طريقة الشعراء القدامى بذكر الاطلال والديار وشكوى الحب والغرام . وهو استهلال من العادات الراسخة فى القصيدة العمودية . وفى هذا الاستهلال يورد « البوصيرى » ذكر الاسماء التى لها صلة بمولد الرسول ، حيث يقول :

أمن تذكر جيران بذى سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ثم ينتقل الشاعر من الغزل إلى الحديث عن النفس . فالشاعر يحذر من هوى النفس ويتحدث بحديث من فاض إناؤه بالحكمة والعلم .. ولذلك ، فان بعض الابيات فيه الكثير مما يجرى مجرى الامثال ، فيقول « البوصيرى » :

فان امارتى بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها
ان الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على
حب الرضاع وان تفطمه .. ينفطم

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك الى جوهر القصيدة ، وهو مدح النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا الجزء هو لب القصيدة وجوهرها ، وفيه يبلغ « البوصيرى » قمة الصدق الفنى وقمة الشاعرية :

ظلمت سنة من احيا الظلام الى
ان اشتكت قدماه الضر من ورم

وشد من سغب احشاءه وطوى
تحت الحجارة كشحا مترف الادم

وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فاراها ايماشمم

ثم يتابع « البوصيرى » مديحه : ويقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم :

هو الحبيب الذى ترجى شفاعته
لكل هول من الاهوال مقتحم

دعا الى الله فالمستمسكون به
مستمسكون بحبل غير منفصم

لو ناسبت قدره آياته عظما
احيا اسمه حين يدعى دارس الرمم

فمبلغ العلم فيه انه بشر
وانه خير خلق الله كلهم

وختام جوهر قصيدة « البوصيرى » ، أو الجزء الذى يمدح فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا البيت الذى يقول :

لاطيب يعدل تربا ضم اعظمه
طوبى لمنتشق منه وملتثم

ثم يتبع « البوصيرى » هذا المديح بمجموعة من الابيات تتحدث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث عاصر ميلاده الكريم صلى الله عليه وسلم تصدع ايوان كسرى ، وخمود نيران الفرس ، وجفاف بحيرة « ساوه » ، وانطلاق الشهب فى اثر الشياطين . ويبدأ هذا الحديث بالبيت الذى يقول فيه :

ابان مولده عن طيب عنصره
ياطيب مبتدأ منه ومختتم

ثم يواصل قوله :

يوم تفرس فيه الفرس انهم
قد انذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع
كشمل اصحاب كسرى غير ملتئم

وبعد ذلك يتحدث الشاعر عن معجزاته ﷺ ..وهذا الموضوع يقول فيه :

جاءت لدعوته الاشجار ساجدة
تمشي اليه على ساق بلا قدم
كانما سطرت سطرا لما كتبت
فروعها من بديع الخط باللقم

وفي نهاية الموضوع حول المعجزات ياتي « البوصيري » بهذه الابيات الرائعة :

تبارك الله ما وحي بمكتسب
ولا نبي على غيب بمتهم
كم ابرات وصبا باللمس راحته
واطلقت اربا من ربقة اللمم
واحيت السنة الشهباء دعوته
حتى حكت غرة في الاعصر الدهم
بعارض جاد او خلت البطاح بها
سيب من اليم او سيل من العرم

ثم يتحدث « البوصيري » عن القرآن الكريم حديثا طويلا يبدأه بهذا البيت :

دعني ووصفي آيات له ظهرت
ظهور نار القرى ليلا على علم

وينتقل من وصف القرآن الى الرسول فى معراجه :

سريت من حرم ليلا الى حرم
كما سرى البدر فى داج من الظلم

بعدها يأتى الحديث عن جهاد الرسول ﷺ ، ويصور الفتوحات فى مشاهد حربية صاخبة ، فالرسول القائد الاعظم والمسلمون من حوله أسود وادعة مطمئنة :

راعت قلوب العدا انباء بعثته
كنبأة اجفلت غفلا من الغنم
مازال يلقاهم فى كل معترك
حتى حكوا بالقنا لحما على وضم

ثم يبدأ « البوصيرى » فى التوسل الى الرسول ﷺ ، ويناجيه بأبيات هى صلوات حارة ، من نفس مؤمنة تعيش زمنا صعبا وظروفا غير طبيعية ..

يقول « البوصيرى » متوسلا :

خدمته بمديح استقيل به
ذنوب عمر مضى فى الشعر والخدم

ويقول ايضا فى المناجاة :

يا اكرم الخلق مالى من الوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم

الى ان يختتم ذلك بالبيتين ، متوجها فيهما الى الله بالدعاء :

وأئذن لسحب صلاة منك دائمة
على النبى بمنهل ومنسجم
مارنحت عذبات البان ريح صبا
واطرب العيس حادى العيس بالنغم

***

الامام « البوصيرى » هو الامام شرف الدين ابو عبدالله محمد بن سعيد . اصله من بنى جنون ، الذى هم فرع من قبيلة صفهاجة المغربية .. يؤكد ذلك اعتزاز « البوصيرى » باصله ، ويشيد به فى شعره .. رغم انه مصرى النخاع ويعتز بمصريته .

ولد « البوصيرى » عام ٦٠٨ الهجرى ، وتوفى عام ٦٩٦ الهجرى .. اى انه عاش عمرا يربو على ٨٨ عاما . والبوصيرى ولد من أم تنتمى الى مدينة « دلاص » غربى الصعيد ، كما يقول المقريزى .. لكن البعض يرى أنه ولد فى « بهشيم » من أعمال البهنسا يوم الثلاثاء اول شوال سنة ٦٠٨ هجرية .. كما يؤكد ذلك ابن تغرى فى « المنهل الصافى » .. والعماد الحنبلى : فى « شذرات الذهب » الجزء الخامس .

اما والد « البوصيرى » فمن بلدة « بوصير » التى تقع بين الفيوم وبنى سويف .

وقد عاش البوصيرى فى هذه المدينة ايام طفولته ، واستمد منها الاسم الذى عرف به . ويقولون انه فى البداية حاول « البوصيرى » أن ينحت لنفسه لقبا يجمع فيه بين نسبته الى « دلاص » و « بوصير » .. فكان ان سمى نفسه « الدلاصيرى » ، لكنه لم يشتهر به ..

وقد روى صاحب المنهل الصافى ، كما أورده عبدالعليم القبانى ان « البوصيرى » كان مغرما بمثل هذه المنحوتات ، حتى لقد سمى كساءه « كساط » فلما سائل عن سبب هذه التسمية ، قال : « ذلك لانى ارتديه كساء ، وافرشه بساطا » والواقع أن هذا الاتجاه فى « البوصيرى » .. يشير الى ظرفه ، ومحاولته اظهار البراعة والتظرف .. كما يشير الى عشقه للغة وتمكنه فيها .. وانها وصلت الى حد ان تكون طوع بنانه فى التعبير .

***

فى حياة « البوصيرى » الطويلة المثيرة حكم خمسة من سلاطين دولة الأيوبيين هم : العادل سيف ، والكامل ناصر الدين ، والعادل الثانى والصالح نجم الدين أيوب ، والمعظم توران شاه ، ثم شجرة الدر . وبعد هؤلاء وفى حياة البوصيرى ايضا تولى الحكم فى مصر عشرة من سلاطين المماليك البحرية ، وهم : عز الدين ايبك ، وسيف الدين قطز ، والظاهر بيبرس ، وابو المعالى محمد ، والعادل سيف الدين سلامش ، والمنصور سيف الدين قلاوون ، والاشرف صلاح الدين قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قلاوون فى فترة حكمه الاولى ، ثم العادل كتبغا المنصورى .

وفى هذه المساحة الزمنية من حياة « البوصيرى » ، كانت هناك تيارات دينية عنيفة ، وصراع سياسى مرير ، وتهديدات صليبية وحروب دامت حوالى قرنين من الزمان .. بالاضافة الى هجوم التتار وزحفهم على مشرق العالم الاسلامى ، حيث هجموا على الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة فى بغداد وحرقوها وذبحوا ناسها والقوا بما بمكتبتها فى نهر « دجلة » .

وهذا كله كان سببا فى إلهاب الحماس الدينى ، حيث غمر الشرق بموجات من القلق ، وحالات الضياع .. وفى مصر ، كانت الامور قد وصلت الى نقطة اللاعودة بالنسبة للسلاطين والامراء من الانقلابات والتكالب على دست الحكم والاغتيالات بين الفينة والاخرى حتى ان بعض السلاطين لم يحكم سوى عدة ايام .. باستثناء بعض الفترات المستقرة ، خاصة ايام الناصر محمد بن قلاوون ، وقبله الصالح نجم الدين ايوب فى دولة الايوبيين تلك الدولة التى جاءت على انقاض الفاطميين .. واحلت المذهب السنى محل المذهب الشيعى .. من خلال اغلاقها للازهر ، وفتح مدارس لها تعلم السنة ، مثل المدرسة القمحية .

ولقد كان لهذه الاخطار التى تهددت مصر وعالم الاسلام .. تاثير فى احوالها الاقتصادية ايما تاثير ، حتى عانى الناس وجاعوا ، وساعد فى ذلك تلك المجاعات والاوبئة التى انتشرت والمظالم التى سادت .. حتى انقسم الناس الى فريقين : فريق منهم زائغ البصر يبحث عن نفسه فقط وبكل السبل وفريق يحاول الالتجاء الى الله والالتصاق بدينه وعقيدته لحماية نفسه ، وحماية الناس ، والدفاع عن ارض الاسلام التى باتت تهددها الاخطار .

وكان لابد ان يظهر اثر ذلك كله فيما صدر من اعمال فى تلك الفترة ، خاصة المؤلفات الادبية .. باعتبار الادب وسيلة تعبر عما يدور فى نفوس الناس . ولذلك ظهر الكثير من الاعمال التى تتحدث عن الجهاد وفضائله .. كما ظهرت آراء تفلسف النكبات التى المت بالمسلمين ، وتعود بها الى ترك المسلمين لدينهم ..

ومع هذه الاعمال المتنوعة .. ظهرت عشرات المؤلفات التى تتحدث عن جهاد صاحب الرسالة ﷺ ، وعن الدين القويم ، والاعمال الصالحة .. وهذه الاعمال كانت تتوجه الى عقول الناس ، لعل الله يقيل المسلمين من عثرتهم ويصلح احوالهم .

وثمة اتجاه فكرى ، بدأ يبسط ظلاله على ارض مصر ويقوى .. ويقوده عرب جاءوا من المغرب .. ونقصد به « التصوف » .. بحيث امتلأت مصر ـ فى القرن السابع الهجرى بخاصة ـ باقطاب المتصوفة الكبار . ومع التصوف انتشرت نظرياتهم وآراؤه وكتبه .

يتضح ذلك فيما أورده الدكتور « علي صافي حسين » في كتابه « الأدب الصوفي في مصر » اذ يقول : « تصوف اهل مصر والوافد اليها في هذا العصر على اختلاف طبقاتهم واجناسهم ومذاهبهم ونحلهم ومنازلهم الدينية والدنيوية ، فالفقير والغني ، والحاكم والمحكوم ، كل اولئك قد تصوفوا .. إما تصوفا نظريا او تصوفا عمليا . وتلك ظاهرة لم يشهد التاريخ لها مثيلا في اى قطر من الاقطار ، اثناء اى عصر من العصور » ولذلك ففى حياة « البوصيرى » عاش من علماء المتصوفة واقطابهم عمر بن الفارض ، والاقصرى ، وعلم الدين المنفلوطى ، وابو الحسن الشاذلي وابو العباس المرسى ، وسيدى احمد البدوى ، وسيدى ابراهيم الدسوقي .. وغيرهم كثير .. من الذين انتشرت طرقهم ، التى استقطبت الألوف من المريدين . وهذه الطرق الصوفية ـ بالطبع ـ كان لها دورها في الجهاد العظيم ، حيث تروى كتب التاريخ ان ابا الحسن الشاذلي والسيد احمد البدوى .. ذهبا مع مريديهما الى ساحات المعارك جهادا ضد الغزو الصليبي لمصر .. يحضون على الجهاد ويشاركون فيه بالدعاء والنصر .

***

و « البوصيرى » اعظم شاهد على عصره .. بل هو بحق مرآة عصره من خلال ديوانه الشعرى الذى يبرز الجانب الآخر من حياته الطويلة .. وهذا الديوان قام بتحقيقه وتقديمه الاستاذ « محمد سيد كيلاني » .

لقد كان « البوصيرى » ، كما يروى صاحب « وفيات الوفيات » وهو يرسم الصورة للامام قبل تصوفه ، وانقطاعه للعبادة ، وقبل بردته ، يقول فيها :

« انه شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع ، تجرى في شعره النكتة المستملحة ، وله في شكوى حاله ، والتذمر من الموظفين ، قصائد لا تخلو من ذكاء . وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره ، فكان يذكر ان الموظفين يسرقون الغلال ، وانهم لولا ذلك مالبسوا الحرير ، ولاشربوا الخمور . وإن من الكتاب طائفة تنكست وعدت من الزهاد ، مع انها تملأ بطونها بالسحت ، وتاكل مال الايتام . والقضاة خانوا الامانة ، ويبرروا خيانتهم بتاويل القرآن والحديث .. »

والواقع ان المراجع عن « البوصيرى » ، لاتلقى الضوء الباهر على طفولة البوصيرى المصرى الذى بدأ الحياة في الصعيد .. لكن يبدو ان بدايته كانت خلقية ، وانه التحق بأحد الكتاتيب لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم ..

والمؤكد انه ذهب الى القاهرة ليواصل دراسته .. وقد كان من طلبة مسجد الشيخ عبد الظاهر ، حيث كان يدرس فيه العلوم الشرعية والقرآنية ، بجانب بعض علوم اللغة التى نبغ فيها ، فيما بعد . وهذا المسجد الذى كان يدرس فيه « البوصيرى » فى القاهرة ، يبدو انه كان شبه « زاوية » من الزوايا ، والسبب انه لم يرد ذكر المصادر التى تتحدث عن المساجد . وانما عرف المسجد ، من خلال قصيدة للبوصيرى ـ على لسان المسجد ـ ويتهم فيها الفقيه « بهاء الدين المسردى » ، لانه اغفله من جزء من المنحة التى تبرع بها « الصالح نجم الدين ايوب » للمساجد ، والقصيدة ضمن ابياتها يقول فيها البوصيرى :

اتـــرانـــى لا اســـتحق لكـــونـــى
جـــامعـــا شـــمـــل قـــارئ القـــرآن
وبـــاى الاســـبـــاب يـــعطـــى مكـــان
صـــدقـــات الســـلطـــان دون مكـــان
انـــا لا انســـب « البـــهـــاء » علـــى
ذلـــك الا لقلـــة الايمـــان
كلمـــا جـــاءت الـــدنـــانيـــر ينقـــض
البـــهـــاء عليـــهـــا كـــالشـــيطـــان

*** *** ***

وفى الموسوعة الميسرة ، التى اصدرتها مؤسسة « فرانكلين » تحت اشراف « محمد شفيق غربال » نعرف ان « البوصيرى » كان فقيرا ، ولم تكن موارده أو موارد ذويه تكفيه كطالب علم فى القاهرة .. وكان خطه حسنا ، فاستغل موهبته ، وعمل بكتابة شواهد القبور لكنه لما اراد وضعا مستقرا .. سعى الى وظيفة « مباشرة » .. اى كاتب فى « الشرقية » ، وفى مدينة « بلبيس » بالذات .

يصف « المقريزى » الامام « البوصيرى » فى هذه الفترة « انه كان قليل المعرفة بالحساب » .. وانه « رمى المستخدمين باوابد » .. و « الاوابد » هى قصائد الهجاء التى قالها فى الموظفين ، بعد ان تبين له وجوده استغلالهم لوظائفهم وانحرافاتهم .. وظلمهم لافراد الشعب البسطاء ، يقول « البوصيرى » ضمن « اوابده » :

حوت بلبيتس طائفة لصوصا
عدلت بواحد منهم مئينا
وكيف يلام فساق النصارى
اذا خانت عدول المسلمينا

وقال ايضا يتهمهم بالغباء والجهل بعلمهم وعدم معرفتهم الحساب :

كتابنا لو كنت مالك امرهم
لرددتهم جمعا الى الكتاب
لايعرفون من الحساب دقيقة
سبحان رازقهم بغير حساب

ويعلق صاحب كتاب « البوصيرى حياته وشعره » قائلا : ان شعر البوصيرى فى الموظفين ونقده المر لهم ، يعتبر نظرة اجتماعية ، راحت تعلن عن نفسها فى شعره : وأن هذه النظرة سبق بها البوصيرى عصره ، وهى نظرة جريئة فعلا ، تدل على اخلاقيات البوصيرى فى شبابه ، وعلى حرصه على بلده الذى يتعرض للأخطار والكوارث ، ولقد بلغ البوصيرى من الجراة انه ارسل للوزير بالقاهرة ، صورة مكتملة عن انحرافات الموظفين ، وكبارهم بقصيدة مطلعها :

امولانا الوزير غفلت عما
يهم الكلاب الخائنينا
اتطلق « جامكيات » لقوم
وتنفقها لقوم آخرينا

وفى هذه القصيدة يشدد « البوصيرى » النكير على بعض الذين يحملون اسم الفقيه او القاضى ، وينعى عليهم بعدهم عن الدين والأخذ بسنة رسول الله ﷺ فيقول :

اذا أمناؤنا قبلوا الهدايا
وصاروا يتجرون ويزرعونا
فلم لا شاطروا فيما استفادوا
كما كان الصحابة يفعلونا

تحيلت القضاة فخان كل
امانته وسموه الامينا
وكم جعل الفقيه العدل ظلما
وصير باطلا حقا مبينا
وما اخشى على اموال « مصر »
سوى من معشر يتاولونا

هذه القصيدة فى الحقيقة يجب ان تقرأ اكثر من مرة من المختصين .. ففيها يتناول « البوصيرى » المال العام ، ويطالب بالعدل الاجتماعى من منطلق ايمانه ودينه القويم .

وبديهى أن تحقد على « البوصيرى » فئة المرتشين ، ولذلك عملوا على إبعاده والتخلص من فضحه لهم ، وتعريضه بهم وكشفه لألاعيبهم .. وقد كان ذلك عندما أسندت نظارة الاقليم الى « ابن عمران » فقام بفصل « البوصيرى » من وظيفته كشخص مثير غير مرغوب فيه . فكان ان عاد « البوصيرى » الى القاهرة بعد سنوات قضاها فى مدينة « بلبيس » .

وفى القاهرة .. إفتتح كتابا ليعلم القراءة والكتابة وماتيسر من الدين ، وتحفيظ القرآن الكريم .. لكنه سرعان ماأغلق هذا الكتاب ، وبدأ يبحث عن وظيفة تساعده على تربية أولاده الذين زاد عددهم . فالتعليم فى الكتاب أرهقه ، وجعله كما يقول فى احدى قصائده يعطى للاطفال عقله ، ويأخذ منهم عقولهم ، فكان كمن يبيع نوره فى مقابل ظلام غيره .. هذا بينما أولاده فى البيت يصرخون من الجوع .

كيف الخلاص من البنين ومنهم
قوم ورائى وآخرون امامى
أصبحت من حملى همومهم على
هرمى كأنى حامل الاهرام

لقد كان « البوصيرى » مشغولا ببلده ومايحدث فيه .. وهذا الانشغال مضافا اليه إنشغاله بإطعام اطفاله .. جعله يترك طموحه ، ويقضى وقته فى البحث عن لقمة العيش .. وقد كان كما يقول : « ولو انى وحّدى لكنت مريدا فى رباط او عابدا فى مغارة » .. لكنه ماذا يفعل وعنده « كبشة » عيال .. يريد ان يكفيهم .. وهنا يصور حالهم بأسلوب يدل على مصريته الأصيلة الساخرة فيقول :

صـــامـوا مـــع النــــاس
كانوا لمن ابصرهم غبـره
اين يشربوا فالبئـر زير
لهم مـابرحت والشربـة الجره
لهم من الـخبيز مسلوقـة
فى كل يوم تشبيـه النشره
فارحمهمو ان عـاينوا كعكـة
فى كف طفـل او راوا ثمره
تشـــخص ابصـــارهمـو نحـــوهـا
بشـــــهقـة تتبـعهـــــا زفـــره

ثم ينتقل البوصيرى من اطفاله الى زوجته الولود التى انجبت هذه الحفنة الكبيرة من الاطفال . ولذلك فهو يصفها فى شعره ، ويقول :

بلغت من الكبـر العتـى ونكست
فى الخلق وهى صبيـة الارحام
ان زرتها فى انعام يـوما انتجت
واتت لتسعـة اشهر بغـلام

ولم تكن زوجته ولودا فقط ، وانما كانت مشاكسة تطالبه دائما بالنقود ، مثل اختها التى تعيش عيشة هنية ، يقول البوصيرى عن حماته :

ويـوم زارت امهم اختهـا
والاخت فى الغـيرة كـالضرة
واقبلت تشكـو لها حـالها
وصبرها منى عـلى العشرة
قالت لها كيف تكـون النسا
كذا مع الازواج يـاغرة
قومى اطلبى حقك منـه بلا
تخلـف منـك ولافترة
وإن تابى فخذى ذقنـه
ثم انتفيهـا شعرة شعـرة

هذا الضغط النفسي ، وتلك القلة في المنزل .. بالاضافة الى اهتمام « البوصيري » بما يحدث ببلده .. جعل الضيق يكتم على انفاس الشيخ الشاعر ، الذي صورلنا اصدق تصوير ، حياته .. وقد دفعه ذلك الى ان يتصوف . وقبل ذلك .. دفعه الى ان يلجا الى الوزير « الصاحب بهاء الدين على بن محمد » يستعينه ، وكان هذا الوزير يحب في « البوصيري » سخريته وشاعريته ، وقد أغراه بذلك ـ كما يروى عبدالعليم القباني ـ صديقه الشيخ « شهاب الدين ابوالثناء محمود » . وزيادة في الاغراء ـ تعهد له بتقديم شكواه المنظومة الى الوزير . وبالفعل حدث ذلك ، وعينه الوزير كاتبا بالمحلة .

وفي هذه المرة عاد البوصيري بعينه الكاشفة التى تثنى على المجيد ، وتهاجم ايضا غير المجيدين ، اوالمرتشين ، وتثنى على الشدة معهم .. حتى انه وكما يقول « البوصيري » في صورة ساخرة ايضا :

وقد تادبت المستخدمون بهم
والغافلون اذا ماذكروا ذكروا
فعف كل ابن انثى عن خيانته
فلم يخن نفسه انثى ولاذكر

لكن « البوصيري » الشاعر الفنان القلق الظريف .. لم يستمر به المقام في المحلة الكبرى . فانتقل الى « سنى » التى تتبع محافظة « كفر الشيخ » الآن ، ليجلس بها بعض الوقت ، ثم عاد للقاهرة ، ليفتح كتابه مرة أخرى ، وكان يعتمد على ايراد الكتاب البسيط مع بعض الهبات التى كانت تصله من محبيه وعاشقيه وعاشقي فنه .. وفي هذه الفترة أوغل « البوصيري » في التصوف .. واكثر من مدائحه النبوية ، ورافق « ابا العباس المرسي » تلميذ « ابي الحسن الشاذلي » .. وكان في القاهرة يجلس في مسجد الظاهر . وفي الاسكندرية يجلس في « القلعة » مسجد العطارين ، الذى جلس فيه ابو الحسن الشاذلي ، ومن بعده تلميذه ابو العباس .. كما كان يسافر الى اقاليم مصر مع أستاذه ابي العباس ..

ولقد قيل انه في اخريات حياته عرضت عليه وظيفة « محتسب » .. ولكنه تعففا وتقديرا لمسئولية الوظيفة لم يقبلها ، ويدللون على ذلك بقوله :

اجلس والناس يهرعون الى
فعلى في السوق عصبة عصبة

اوجــع زيــدا ضــربــا واشــبعــه
ســبــا كــانى مــرقــص الــدبــة
ويكســب الــغيــظ مقلتــى وخــدى
احــــمــرار كـــزامــر القـــربــة

* * *

مسجد الامام « البوصيرى » فى الاسكندرية والقائم فى رحاب مسجد سيدى « أبى العباس المرسى » .. يعتبر آية من آيات عمارة المساجد فى مصر .

كان المسجد فى البداية زاوية متواضعة .. لكن الفرصة جاءته فى عهد الوالى « محمد سعيد » .. فقد قيل ان « محمد سعيد » باشا اراد كتابة بيت من الشعر فى صدر احدى قاعات قصره .. فاختار له احد رجال حاشيته بيتا للامام « البوصيرى » من قصيدته « الهمزية » .. يقول هذا البيت :

واذا ســـخــر الالـــه انـــاســـا
لســـعيــد ، فــانهـــم ســـعــداء

وقد اعجب الوالى ببيت الشعر ، وامر بكتابته ، واهتم بصاحبه ، والبحث عن ضريحه .. فلما جاءوا اليه وقالوا هو زاوية صغيرة قرب راس التين ، أمر بانشاء المسجد الحالى على الضريح ، وكتابة البردة على الجدران برقائق الذهب .. على ارضية زرقاء .

وهذا المسجد كما يروى « على باشا مبارك » فى « الخطط التوفيقية » ، انشىء عام ١٢٧٤ الهجرى وان القسم الخارجى منه ، وهو الدرج الرخامى الموجود بالواجهة المطلة على شارع السيد محمد كريم . والمواجهة للبحر ، وكذلك بعض الغرف الملحقة به ، تم انشاؤها عام ١٣٠٧ الهجرى .

وكما تصف « الدكتورة سعاد ماهر » مسجد الامام البوصيرى « مادح الذات المحمدية وصاحب البردة والهمزية » فى كتابها « مساجد مصر » ؟. « فان المسجد يتكون من مربعين منفصلين .. الاول يشمل صحن المسجد ، وتتوسطه نافورة من الرخام ، وتحيط به الاروقة من جميع الجهات . والثانى وهو مرتفع قليلا عن الاول هو ايوان القبلة . ويتقدم الايوان دهليز مغطى بمظلة يؤدى الى ضريح الامام البوصيرى اولا ، ثم الى ايوان القبلة ثانيا .

اما الضريح فهو عبارة عن غرفة مربعة مغطاة بقبة تقوم على مقرنصات فى الاركان ، والقبة من الصاج وليست من الخشب او من البناء .

ويتوسط ايوان القبلة ستة اعمدة ، تقوم عليها قبة مرتفعة من الصاج ، وبه دور ثان مخصص للسيدات يعرف باسم « الصندرة » . وبهذا الايوان يوجد مدخلان رئيسيان احدهما فى الجهة الشرقية ، والاخر فى الجهة الجنوبية ، كما يوجد مدخل ثالث رئيسى من الجهة الغربية يؤدى الى صحن الجامع . وخلف الرواق الشرقى للمسجد توجد ثلاث غرف مغطاة بثلاث قباب كانت فى الاصل عبارة عن زاوية ملحقة بالمسجد ، وتحتوى على صف من الدعائم تفصلها الى رواقين . ثم جددت الزاوية سنة ١٢٠٧ هـ . وسدت اروقتها فتحولت الى غرف خصصت للمكتبة ، وللمشرفين على المسجد .

وفى الركن الشمالى لايوان القبلة توجد مئذنة المسجد ، وهى على شكل مسلة ، والمسجد ، وكذلك المئذنة يمثلان الطراز التركى فى القرن التاسع عشر الميلادى احسن تمثيل .

انتهى كلام الدكتورة « سعاد ماهر » ..

* * *

والواقع ان المسجد غاية فى الاناقة والرشاقة بارضيته الخشبية .. ويغنى الرخام الموجود فيه .. وايضا النجفة المورقة والمزهرة التى تتوسط ايوان القبلة ثم بالمنبر الرقيق الذى يختلف عن بقية منابر المساجد .

وتعلو حوائط الصحن والضريح ازارات زرقاء مكتوب عليها ، وبالخط الفارسى البارز نص « البردة » ، والتى تبدأ من يمين المحراب .. بالاضافة الى انه تتناثر على جدران المسجد لوحات من الآيات القرآنية .. وداخل ضريح الامام البوصيرى قصيدة فى لوحة تمدح البوصيرى عميد المديح النبوى وتقول :

محمد بن سعيد جاز منزلة
فى صادق الشعر اعيت كل تحرير
والناسجون على منوال بردته
باءوا بعجز وابدوا كل تقصير

ـ كما انه على الباب الشرقى توجد لوحة رخامية .. بعضها مكتوب بالتركية ، وبعضها مكتوب بالعربية يقول : « الحمد لله ، قد تم تعمير هذا المسجد بارادة ولى النعم الجناب العالى الاعظم ...»

يصف الاثرى « حسن عبد الوهاب » فى كتابه عن « مساجد مصر » ، مسجد البوصيرى بأنه « مسجد نيريحفه الجلال ، بنى على طراز خاص غير مألوف من حيث عمده الحديدية ، وقبابه الست المكسوة بالصاج والرصاص »

ويقول ان المقصورة على قبر الامام البوصيرى اقيمت فى عام ١٢٧٤ الهجرى وعلى الضريح ستر مقصبة عملت فى نفس العام . ومنارته من دورتين تسودها البساطة ، وهى مبنية بالآجر ، وتنتهى من اعلاها بسارية تحمل علما اخضر ، كان يرفع بالنهار ، ايذانا بحلول وقت الصلاة ، كى يراها من يكون بعيدا عن سماع الاذان ، ويضاء عليها مصباح ليلا ايذانا بحلول وقت الصلاة ، وهى طريقة جاءت الى الاسكندرية ، من بلاد المغرب ، ولعلها ترجع الى القرن الثامن الهجرى « الرابع عشر الميلادى » فقد امر السلطان ابو عنان فى مسجد القرويين بمدينة فاس عام ٧٤٩ الهجرى « ١٣٤٨ الميلادى » ، وانشد فيه :

نور به علم الايمان مرتفع
للمهتدين به للحق ارشاد

وكما يقول الاثرى « حسن عبد الوهاب » ايضا :

ولقد ظل قبر البوصيرى موضع الرعاية ، مقصودا بالزيارة الى ان اجريت به اصلاحات فى القرن التاسع عشر .. ثم تجدد مرة اخرى . ويعتبر مسجد البوصيرى من اشهر مساجد الاسكندرية ، وهو من مزاراتها المقصودة من اهل الاسكندرية والوافدين عليها للتبرك بناظم قصيدة البردة فى مدح رسول الله ﷺ ..

أعلام
التصوف
الاسلامى

سيدى القنائى

الأسد القادم
من المغرب



●● عشقه اهل الصعيد :

حتى انهم دقوه « وشما » على صدورهم ، وفوق اكفهم .. اسدا يرفع سيفا .

ولم يكتفوا بذلك ، بل اصبحت ماثوراتهم الشعبية تتغنى بنوره وعلمه الذى اضاء ظلام الصعيد ، ويدد الجهل فيه .

وقبل أن يجرى اختراع الثلاجات الكهربائية .. كانت هذه المدينة التى عاش فيها قد اخترعت ثلاجات يدوية .. يحملها حجاج بيت الله الحرام معهم فى رحلتهم المقدسة .. تطفىء من لهيب الشمس وشدة الحرارة .

وهذه الثلاجات اليدوية .. اخذت شهرة كبيرة منذ قرون وحتى الان .. بعد اختراع عالم الثلاجات والمبردات ..

هو صاحب مدرسة تصوف ، وليس قطب طريقة .. ولو اراد طريقة لزحفت اليه الالوف .. لكنه صاحب مبادىء تقوم على العلم والعمل والاخلاق فى تكامل يصل الى حد الفلسفة ..

ولنقترب اكثر ، فاكثر منه ..

هو شريف علوى ينتهى نسبه الى الحسين بن على بن ابى طالب تزوج من ابنة شيخ مسجد قوص .. الإمام القشيرى .. وعاش فى قنا ..

وقبل أن ياتى الى « قنا » درة الصعيد ، كان قد ساح فى عالم الإسلام ينشد العلم وينشد التفقه فى الدين .. وقبل ذلك كانت سياحاته فى عالم المسلمين الواسع الذى تهددته الأخطار .

عشرات الالوف تزوره على مدى العام .. وهو مشهور بيوم « الأربعاء » من كل اسبوع . ومولده ياتى الناس اليه من كل مكان فى مصر .. يحتفلون بالولى الذى « فرش القلوب بالورد والنور » .

انه سيدى عبدالرحيم

شيخ قنا فى عصره .. والداعية الى الله ..

* * *

فوجىء أهل مدينة « قوص » .. فى صعيد مصر .. وهم ينتظرون شيخهم قادما من الحجاز ، بعد ان ادى فريضة الحج .. فوجئوا وهم فى استقباله .. ان معه شابا فى

مقتبل العمر ، وفى شرخ الشباب .. يسير معــه ، وقد بـدا على مــلامحه الصــلاح والتقوى .

وسأل أهل « قوص » شيخهم الكبير سيدى « مجد الدين القشيرى » عن هـذا الشاب الذى جاء معه .. خاصة وأن أهل الصعيد — وهذه عادة فيهم — يتشممون رائحة الغريب من بعيد ..

لكن تساؤلهم ذاب فى حلوقهم ، قبل أن يعرفوا الجواب .

فهذا الشاب الوسيم الصالح التقى ، لم يمكث بينهم سوى يومين أو ثلاثة على حسب اختلاف الروايات .. وفى أثنائها كان قد همس الى الشيخ « القشيرى » بسر .. ثم حمل متاعه على ظهره .. خرج من « قوص » يقصد مدينة « قنا » .

وفى مدينة قنا ، على الشاطىء الشرقى لنهر النيل .. لبث هذا الشاب الصالح يعبد ربه فى « خلوة » صغيرة .. أو رباط .. أو تعريشه — سمها ماشئت — وجعل يدعو الى الله ، والى دينه القويم .. وكان كلامه واضحا مبنيا على الكتاب وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد بدأ أهل « قنا » يقتربون من هذا الغريب على حذر أولا .. ثم بدأوا يسمعون مايقوله ، فيسرى فى قلوبهم عبق الايمان . لقد كان يتحدث حديثا غير تلك التى اعتادوا سماعها .. وهكذا بدأت حلقته تتسع ، وبدأ عدد مريديه يزداد ، يوما بعد يوم .. الى أن ذاع صيته وانتشر .

وقد لفت نظر أهل « قنا » سلوك هذا الشاب .. انه لم يتبتل وينقطع للعبادة فقط .. أو يشتغل بالدرس والعلم فقط . كان من رجال الله الذين يرون أن العمل عبادة .. ولذلك رفض أن يعوله أحد ، وقد كان الكثيرون يريدون أن يتشرفوا بذلك .. اشتغل فى تجارة الأقمشة والحبوب ، لكن لم تلهه التجارة ، ولم يلهه البيع عن ذكر الله ، وعن دعوته الى الله ..

وقد ربحت تجارته وزادت فى هذا البلد « قنا » .. لكنــه كان قنــوعا ، اذ استخـدم القليل ، وجاد بالكثير فى مساعدة المحتاجين ، خاصة من شباب العلم الفقراء .

***

لقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » — رحمه الله — علويا هاشميا — ينتسب الى سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حتى أن علماء النسب والتحقيق يذكرون — ومنهم الإمام الشعرانى رضى الله عنه — بأنه سيدى أبو محمد عبدالرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الزكى بن محمد بن المأمون بن حسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين بن مولانا الامام الحسين سبط الرسول عليه الصلاة السلام .

هذا من ناحية والده ..

أما من ناحية والدته ، فهى السيدة الشريفة الحسينية ، السيدة سكينة بنت احمد بن حمزه الحرانى . هى من بنى حمزه ، الذين كانوا نقباء الشام وشيوخه .. وكانوا ذوى علم ودين .

ولد سيدى « عبدالرحيم القنائى » فى قرية « ترغاى » .. وهى قريبة من مدينة « سبته » المغربية . ولقد رباه والده ، منذ نعومة أظفاره تربية دينية خالصة .. وكان والده الشيخ « أحمد » عالما جليلا من علماء المغرب ، ومدينة « سبتة » على وجه الخصوص .. فحفظه القرآن الكريم ، وبدأ يعلمه الفقه والحديث والتوحيد ، ويدله على أسرارها ، ويفتح له مغاليق أبوابها ..

وتسير الامور بالشاب الذى كان قرة عين والديه .. والذى أظهر من النجابة فى صغره ما يحسده عليها من هم فى مثل سنه .. لكن عندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، حدث ماكان منعطفا كبيرا فى حياته . ذلك الحدث الذى اهتزله وجدانه هزا ، وصدمه صدمة عنيفة أثرت على نفسه ونفسيته . فقد مات أبوه الشيخ الصالح .. وكان الخطب فادحا بالنسبة للصغير المتعلق به المحب له ، والذى يعتبره دنياه الكبيرة ..

مات الأب الحنون ، وتركه .. وترك معه أربعا من الاخوات ، فضلا عن السيدة والدته .

وعلى أثر ذلك مرض الصبى ، مرضا عضالا عجز الأطباء عن شفائه .. حتى ليقال إن الصبى كان يتهدده الموت فى كل لحظة .

وكان لابد من شيء .

وكان هذا الشيء .. أن أمه فكرت فى أن ترسله الى أخواله فى دمشق الفيحاء لعل السفر يحدث له من مرضه مخرجا ..

فقد كانت أمه تعرف ما فى إبنها من ميله الى العلم . وكانت تدرك ايضا أن مرضه نفسى أكثر منه عضوى .. وأنه تصور أن موت والده ، ذلك العالم الجليل الذى كان يفيض عليه بأنواره .. وكأن سبل المعرفة قد ضاقت أمام عينيه وانسد الطريق فى وجهه . فلعل فكرة سفرته الى دمشق تخفف عن الصبى ، وفى نفس الوقت حين يطلع على علم الشرق الغزير .. قد يكون عزاء وسلوى وعوضا عن فقدان الوالد الشيخ .

وفى دمشق فوجىء الشاب بعالم آخر غير عالمه فى المغرب .

هذه الرحلة الى « دمشق » اتاحت لسيدى « عبدالرحيم القنائى » ، أن ينهل من

العلوم ماجعله يستزيد .. خاصة فى مجال الشريعة والتصوف .. وأنست هذه الدنيا الجديدة فى « دمشق » الصبى القادم من المغرب همومه وحزنه الكبير على فقد والده .

ففى الفيحاء « دمشق » انطلقت ملكاته ومواهبه فى الدرس والتحصيل . حتى تألق نجمه هناك .. وعلى مشهد ورضا من أخواله الذين كانوا يحتلون مكانة مرموقة ومراكز علمية عالية فى الشام ، منهم السيد « محمد » ، الذى كان مفتيا لدمشق ، والسيد « زين العابدين » .. وكان إمام الشافعية هناك ... كما يقول « البستانى » فى « دائرة المعارف » ..

ويوما بعد يوم .. وسنة بعد أخرى ينضج الصبى مع تصاعد أيام عمره ليبدو عليه الوقار وسمت الشيوخ الكبار .

ويقولون إنه على الرغم من دعوة علماء الشام لسيدى « عبدالرحيم القنائى » وإلحاحهم عليه ، ليعيش بينهم ، ويتولى الدعوة هناك الى دين الله .. فإنه ظل على تواضعه يقرأ كنوز المشرق ويقارن بينها وبين ماحصله فى المغرب .. ويعتبر نفسه تلميذا فى مدرسته التى هى بحر لاقرار له . ورغم رجاء أخواله ليبقى وسطهم فإنه عزم على العودة الى مسقط رأسه بالمغرب .. لأن أهله وعشيرته قد يكونون أشد حاجة الى علمه من أهل المشرق ..

فى « ترغاى » قريته بالمغرب .. جلس للدرس والفتوى بمجرد عودته الى « المغرب » ، وفى ذات المكان الذى كان يجلس فيه والده – رحمه الله – يعظ الناس .

وكان تهافت الجموع على مجلس سيدى « عبدالرحيم القنائى » فى « ترغاى » يؤكد يوما بعد يوم ، أن هذا الشيخ القادم من الشرق ، والذى امتزجت فى عقله ، علوم المشرق مع علوم المغرب .. قد جاء بشىء جديد لم يسبق اليه . ولذلك فقد كان كثير من علماء المغرب يحرصون على حضور مجلسه ، ليسمعوا منه حديثه الجديد المستنير عن الدين ، وعلاقته بالدنيا ، وكيف يعرف الانسان طريقه الصحيح نحو ربه جلت قدرته ، وكيف يكون سلوكه مع نفسه ، ومع المجتمع ، ومع خالقه .

وقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، قد بدأ يدرس التصوف فى الشام ، وحين عاد الى « المغرب » بدأ يتبحر فيه ويمارسه ويكتنه الكثير من أسراره وأنواره .. وكان من أهم الشخصيات التى استقطبت اهتمامه ، عارف المغرب الكبير ، سيدى « ابويعزى المغربى » .. وكذلك الإمام العارف سيدى « ابومدين الغوث التلمسانى » ، المتوفى عام ٥٩٤ الهجرى . وسيدى « عبدالرازق الجزولى » ، وهو شيخ سيدى « ابى الحجاج الاقصرى »

ويقال إن سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، قد تتلمذ فترة ، هو وسيدى « ابو مدين » .. على هذا القطب الولى سيدى « ابى يعزى » .كما يقال ان سيدى « ابامدين » حينما جلس للتدريس ، كان من تلامذته سلطان العارفين ، سيدى « محيى الدين بن عربى » .. كما يقولون إنه بالرغم من أن سيدى « عبدالرحيم »كان مع سيدى « ابى مدين » ، فقد اخذ عنه الكثير .. والدليل على ذلك أن صاحب « قلائد الجواهر » يقول رواية عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » يذكر فيها انه قال : « قال الشيخ عبدالرحيم القنائى رضى الله عنه : سمعت شيخنا ابا مدين رضى الله عنه يقول : اوقفنى ربى عز وجل بين يديه ، وقال لى : يا شعيب : ماذا عن يمينك ؟ قلت : يارب عطاؤك . قال : وماذا عن شمالك ؟ . قلت : يارب قضاؤك . قال : ياشعيب ، قد ضاعفت لك هذا ، وغفرت لك هذا . طوبى لمن راك ، او راى من راك » .

وهذه الرواية تريد أن تقول .. ان سيدى « عبدالرحيم » شاهد سيدى « ابا مدين » ، بل هو تتلمذ عليه.. وجاوره فى الدراسة على سيدى « ابى يعزى » .. فطوبى لسيدى « ابى مدين » .. وطوبى لسيدى « عبدالرحيم القنائى » .

وهى أيضا ترهص كذلك ، بأن سيدى « عبدالرحيم القنائى » قد تربى تربية صوفية قويمة .. نهل فيها من بحار ائمة التصوف واقطابه فى عصره ... لدرجة أن مؤرخيه ، يقولون عنه انه فى هذه الفترة من حياته كان قد وصل الى محيط النور ، واكتملت صوفيته .. وبدأ هو من بحر علمه يدعو ويجاهد ويخرج التلاميذ والمريدين الذين اقتنعوا بمدرسته .. وليس بطريقته لان سيدى « عبدالرحيم القنائى » لم يذكر المؤرخون له طريقة من بين طرق التصوف ..

ومن أنجب تلامذته فى مصر ، الامام العارف سيدى « ابو الحسن على بن حميد الصباغ » ، المتوفى عام ٦١٢ الهجرى . وهو المدفون بجوار شيخه فى ضريحه بقنا .

لقد كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، هو الاب الروحى لسيدى « ابى الحسن على بن حميد الصباغ » . فقد « تخرج على يديه ، ونهل من راحتيه ، فغمره النور والفتح ، حتى صار بابا من أبواب الحق تعالى » .

وفى كتابه « بهجة الأسرار » يروى « نور الدين الشطنوفى » ، عن ابى العباس احمد بن محمد المعروف بالراس ، انه قال : الشيخ ابو الحسن بن الصباغ رضى الله عنه ، شيخ عند الله عز وجل ، انتهت اليه الرئاسة فى هذا الشأن ـ أى

التصوف ـ فى وقته فى الديار المصرية ، وبه عرفت تربية المريدين بها ، وتخرج به غير واحد من أهلها ، مثل الشيخ أبى بكر بن شافع القوصى ـ من قوص ـ والشيخ علم الدين المنفلوطى ـ من منفلوط ـ والشيخ الامام مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع القشيرى ـ المعروف بابن دقيق العيد ، وغيرهم رضى الله عنهم » .

وفى « **بهجة الاسرار** » .. بالاضافة الى ماذكرناه ذكر مناقب كثيرة للشيخ أبى الحسن على بن حميد الصباغ ..

وفضلا عن ذلك ، فقد تربى فى مدرسة سيدى « **عبدالرحيم القنائى** » نخبة من العارفين ، مثل سيدى أبى الحجاج الاقصرى ، وسيدى عبدالله القرشى ، وابن شافع القنائى .

وكما يقول الاستاذ « **جودة محمد ابو زيد المهدى** » ، فى مجلة « **منبر الاسلام** » ، عدد ديسمبر عام ١٩٧١ .. « فقد كانت تربية الامام عبدالرحيم القنائى لابنائه وتلامذته فى الطريق ، تقوم على التمسك بآداب الشريعة الغراء وتخليص القلب من كدورات البشرية ، وتطهير النفوس من قذى الاذى ، لتعود كما كانت فى أصلها تقية نقية ، والمزاوجة بين العلم والعمل ، لتحقيق كمال العبودية .. »

ويصف الامام « **عبدالوهاب الشعرانى** » سيدى « **عبدالرحيم القنائى** » ، فى ترجمته له ، فى « **الطبقات** » بقوله : « هو من اجلاء مشايخ مصر المشهورين ، وعظماء العارفين ، صاحب الكرامات الخارقة . والانفاس الصادقة . له المحل الأرفع من مراتب القرب ، والمنهل العذب من مناهل الوصل . وهو أحد من جمع الله له بين علمى الشريعة والحقيقة ، وآتاه مفتاحا من علم السر المصون ، وكنزا من معرفة الكتاب والحكمة » .

كما كان الشيخ « عبدالله القرشى » ، يقول عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » :

« نور الشيخ غلب على أنوار جميع أصحاب الاحوال ، من أهل الديار المصرية فى وقته » ..

ويروى الإمام « **الشعرانى** » ، ان سيدى « **عبدالرحيم القنائى** » ، كان اذا سمع المؤذن يقول : « **اشهد ان لا اله الا الله** » ... **يقول هو : شهدنا بما شاهدنا وويل لمن كذب على الله تعالى .**

***

ظل الشاب التقى النقى « عبدالرحيم القنائى » فى « ترغاى » .. حتى اختار الله والدته الى جواره . وكان عمره اذ ذاك حوالى الخمسة والعشرين عاما . ولم يجد الشاب مفرا من ترك قريته .. وكان قد ادى ما عليه من واجب المسلم فيها . ليعود من جديد الى المشرق الاسلامى . بعد أن فقد حنان الأمومة .

ويبدو أن بين ما دفعه الى أن يهجر قريته ، انه لم يطق المكان الذى تذكره كل بقعة فيه بأب كريم عالم ، وأم حنون ..

لكن يبدو أن هناك ماهو أعمق من ذلك ..

فمهما بعد المؤمن فى ديار الاسلام عن الاراضى المقدسة فى « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » ، فان قلبه يظل يرف لها ، ونفسه ترتبط بها .. تتحين الفرصة الى شد الرحال اليها ..

كان الهدف الأساسى أن يؤدى فريضة الله عليه ، فريضة الحج .. والتى لايكتمل ايمان المسلم الا بها ، خاصة لمن استطاع اليها سبيلا . وفضلا عن زيارة قبر الرسول ﷺ .. و « عبدالرحيم القنائى » هو من هو .. الذى يتشرف بالانتساب الى رسول الله ﷺ . اقول فان زيارة الرسول عليه الصلاة والسلام تأتى له بالشفاعة « من زار قبرى وجبت له شفاعتى » .

والواقع ان المسلم حين يحج الى بيت الله الحرام ، وحين يزور قبر الرسول عليه الصلاة والسلام تتمثل امام قلبه ووجدانه ـ خاصة اذا كان عالما مثل سيدى « عبدالرحيم القنائى » ـ تلك الذكريات المقدسة من جهاد الرسول فى سبيل الدعوة اليه ، لإعلاء كلمة الله . كما يتمثل المسلم فى كل بقعة يزورها من بقاع الارض المقدسة ، فى رحاب تلك الأماكن التاريخية المملوءة بالذكريات .. امة الاسلام فى مشرق الرسالة ..

لقد ظلت هذه الرحلة أملا من آمال هذا الشاب يتحين الفرصة للقيام بها عندما يأذن الله تعالى بها ، وكانت تتمثل له فى « ترغاى » قريته ، وهو يعطى الدروس فى مسجدها .. وهو يتحدث عن جهاد رسول الله ﷺ ، وعن دعوته الكريمة الى الله .. وعن العقبات التى وقفت فى سبيل الدعوة .

ولقد كان يمكن لسيدى « عبدالرحيم القنائى » أن يستمر فى دعوته فى بلاد المغرب ، بعد أن كبر اسمه وذاع صيته ، ورسخت قدمه بين علماء المغرب الكبار ، وبين دعاته الصادقين . لكنه رضى الله عنه ، بالاضافة الى عزمه على اداء فريضة الحج .. كان دائم التفكير فى الامة الاسلامية ، التى بدات تتهددها المحن ، خاصة من

الخارج ، وعلى الاخص من اولئك الذين رفعوا الصليب شعارا لهم ظلما وعدوانا .. وبدأوا الهجوم على المشرق ..

كما بدأت أوربا المسيحية ، فى الاندلس ، موجة زحف سماها المؤرخون الغربيون بحركة « الإسترداد » .. وهذه الموجة المسيحية بدأت تحقق بعض النجاحات .. حيث ساعدها على ذلك ما كانت عليه حالة المسلمين من ترك دينهم والانغماس فى دنياهم .. والنزاع بين ملوك الطوائف .. ثم النزاع بين المرابطين والموحدين .. مما هدد الاسلام . ويبدو أن أخبار الاندلس كانت تصل الى الشيخ « عبدالرحيم القنائى » وهو فى « ترغاى » .. فقد كانت « سبته » أقرب الى الجانب الآخر من مضيق « جبل طارق » .

وكعالم مسلم كان يقول فى جامع « ترغاى » .. ان الجهاد فريضة ، كان لابد أن يقرن القول بالعمل .

لكن كيف يؤدى ماعليه من فريضة الجهاد .. فى هذا الجو المتلاطم ، وتلك الاحوال التى تتآمر على المسلمين ، وعلى دول الاسلام ؟

بعد تفكير وروية .. استقر رأيه أن يترك « المغرب » .

اتجه فى رحلة طويلة وشاقة الى الاراضى المقدسة ، مارا بالاسكندرية ومدن مصرية كثيرة ، قد تكون منها القاهرة .. ثم بمدن اخرى فى الصعيد ، حيث كانت الرحلة تسير بمحاذاة النيل الى قنا ، ثم تتجه شرقا حتى عيذاب على البحر الاحمر .. ثم يجرى عبور البحر الى الشاطىء الآخر ..

وهناك فى « مكة المكرمة » يلتقى بعلماء المسلمين القادمين من شتى بقاع العالم الاسلام .. لكى يسألهم ويسألونه ، ويسمع منهم ويسمعونه .. وبعدها يحدد هو طريقه .. وفكره فى أمر الجهاد كعالم مسلم ..

ولقد ظل سيدى « عبدالرحيم القنائى » تسعة أعوام فى الأرض المقدسة متنقلا بين « مكة المكرمة » و « المدينة المنورة » .. لقد أدرك ان الاخطار التى تتهدد عالم الاسلام يمكن الوقوف أمامها والتغلب عليها ، اذا ما انصلح حال المسلمين ، واذا ما عادوا الى دينهم القويم ، واذا ما تمسكوا بحبل الله جميعا .. وأدرك ايضا أنه مما يزيد الأخطار ان بعض حكام المسلمين لا يعملون بشريعة الله وسنة رسوله ﷺ .. وأن هذا كله تجمع وأدى الى إضعاف أمة الاسلام .. مما دفع أعداءها الى تهديد حدودها ، ووصل الأمر الى حد الهجوم عليها ..

وادرك سيدى « عبدالرحيم القنائى » أن لعلماء المسلمين دورا أساسيا فى هذا المجال ، إن عليهم تبصير المسلمين بأمور دينهم الحق ، وعلى علماء المسلمين أن يكثفوا الدعوة الى الله .. وان العالم المسلم لابد أن يقوم بشرح دقائق تاريخ الدعوة المحمدية .. وما حققته من انجاز .

إن على علماء المسلمين واجبا وجهدا كبيرا فى ميدان خطر .. هو ميدان العقول . وجهادا فى ساحات العلم ، وفى رحاب المساجد التى كانت بمثابة المنارات العلمية فى العصور الوسطى .

هذا .. هو ماخرج به سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، وهو فى الرحاب المقدسة بعد أن ظل يدرس حالة عالم الاسلام ..

وليس صدفة ان يلتقى سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، فى السنة العاشرة من اقامته بالرحاب المقدسة ، بشيخ مهيب قادم من مصر ليؤدى فريضة الحج التقى بالشيخ « مجد الدين القشيرى » .

لقد حدثه الشيخ « القشيرى » طويلا عن مصر ، وعن علماء مصر .. كما حدثه عن أهل مصر ودور العلم فيها ، ونمو التصوف والصوفية هناك .

وقد طال الحديث بين الشيخ القادم من « قوص » عاصمة صعيد مصر حينئذ وبين هذا الشاب المؤمن العالم « عبدالرحيم » .. وهذا الحديث امتد فى المسجد الحرام .. كما امتد فى رحاب الحرم النبوى .

ولقد وجد هذا الشاب فى حديث الشيخ « القشيرى » .. ما أغراه ان يذهب معه الى صعيد مصر .. الذى كان فى حاجة الى جهاد لتفشى الجهالة لقد أغراه ان يعود معه الى صعيد مصر .. حيث كانت الخلافة ضعيفة . لقد شرح له الشيخ « مجد الدين القشيرى » حالة القوم فى صعيد مصر .. مما جعل الشاب يتحمس ، ويعود مع الشيخ « القشيرى » الى مصر .. ليبدأ طريقا صعبا ، ولكنه ليس بصعب على المجاهدين المؤمنين .

عاد سيدى « عبدالرحيم » ، مع الشيخ « مجد الدين القشيرى » الى « قوص » .. ولم يبق فيها سوى يومين أو ثلاثة .. إتجه بعدها إلى « قنا » ليبدأ الجهاد ، ويربى الرجال ويرفع راية الاسلام عالية .. كل ذلك على هدى من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان اتجاهه الى « قنا » كما تذكر المصادر عنه .. بعد أن رأى ، وهو فى قوص ، مناما يأمره بشد الرحال الى « قنا » حيث كان المجال خصبا ومهيأ للشيخ الشاب لكى يبدد الظلمة ، بدروسه فى العلم والتصوف .

وقد صارت « قنا » مركز دعوة سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. وذاع صيته بها ..

***

ويحدثنا التاريخ أن سيدى « عبدالرحيم » تزوج اول ماتزوج من ابنة الشيخ « مجد الدين القشيرى » . وكانت زوجة مخلصة مؤمنة صالحة . وحين توفاها الله ، تزوج بأخرى . ويقال إنه تزوج من أربع زوجات ، وأنه انجب تسعة عشر ولدا وبنتا ، منهم سيدى محمد كمال الدين ، وسيدى الكامل علم الدين محمود ، وسيدى شمس الدين ، والسيدة مباركة ، والسيدة رحيمة ، والسيدة عزيزة رضى الله تعالى عنهم .

***

فى « قنا » ، وكما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » .. التقى سيدى عبدالرحيم بعلمائها . وكان أول ما التقى به هو الشيخ القرشى . وكان من أولياء الله الصالحين بها . وقد انعقدت أواصر الألفة بينهما ، وتحابا وتزاملا فى الدعوة الى الله .

ولقد ساعد جو « قنا » الهادىء ، الشيخ عبدالرحيم على حياة التأمل . ولذلك فإنه أمضى العامين الأولين يتعبد ، ويدرس ، ويختلى الى نفسه .. ومع ذلك كان يعتمد على عمله الخاص فى تدبير معاشه .. لأنه كان قد اتخذ لنفسه منهجا لم يحد عنه طول بقائه فى صعيد مصر .. وهو العمل بيده لكسب قوته . وقد اشتغل بالتجارة ، كما اسلفنا ووضحنا ، وقد درت عليه التجارة فى مدينة « قنا » ربحا وفيرا ساعده على الانفاق على فقراء الطلاب والراغبين فى العلم ولايستطيعون لضيق ذات اليد .. بالاضافة الى انفاقه على غير القادرين من أبناء المسلمين .

ولاشك ان مافعله سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، كان اسلوبا مختلفا عما هو متبع فى مصر فى ذلك العصر . فقد كان العلماء يتناولون اجورهم من بيت مال المسلمين . وكان هذا حقا لهم .. حتى ولو كانوا ضد السلطة الحاكمة . كما ان اثرياء المسلمين ، كانوا يعتبرون من العار عليهم أن يشغلوا العلماء بامر معاشهم .. فكانوا يتكفلون عنهم بذلك .. حتى يتفرغوا لرسالتهم العلمية . لكن سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. نفر من هذا الأسلوب المتبع ، وجاهد هو ليكسب قوته من عرقه . وكان يكتفى باقل القليل ، وينفق الباقى على وصل المحتاجين ، والتلاميذ المعوزين .

لقد أسس سيدى « عبدالرحيم القنائى » فى مدينة « قنا » مدرسة جديدة ، مدرسة صوفية خاصة ، تسمح للطرق الأخرى بالأخذ منها من غير الخروج على مناهجها .. وكان يرى : « **أن الدين الاسلامى .. دين علم و إخلاص ، فمن ترك واحدة ضل الطريق** » .

وفى هذا الجو الهادىء فى قنا ، استطاع سيدى « عبدالرحيم القنائى » أن يفيض بالكثير من المؤلفات .. ومنها تفسير القرآن الكريم .. ورسالة فى الزواج .. وكتاب الاصفياء .. وغيرها كثير .. ووردت سيرته فى كتب كثيرة مثل « الطالع السعيد فى ذكر علماء الصعيد » .. و« أبوالمحاسن فى حسن المحاضرة » وفى « لطائف المنن » ، و« طبقات » الشعرانى ، و« طبقات » الإمام المناوى .. كما جاء ذكره أيضا فى روايات الشيخ « على الخواص » ، أستاذ الإمام « الشعرانى » .. والأخير ذكر بعض مناقب سيدى « عبدالرحيم القنائى » فى كتابه « الانوار القدسية فى بيان آداب العبودية » .. و« بهجة الأسرار » للشطانوفى ، و« جامع الكرامات » للنبهانى .. وغيره كثير ..

***

ويقال إنه لما تولت الدولة الايوبية مقاليد الامور فى مصر .. بعد انهيار دولة الفاطميين ، عمل الايوبيون جاهدين على القضاء على المذهب الشيعى السائد ونشر المذهب السنى ، وكانت وسيلة الدولة الايوبية فى ذلك اغلاق الجامع الازهر ، وانشاء المدارس ، مثل المدرسة القمحية لتدريس ونشر المذهب السنى ، بالاضافة الى ان الدولة الايوبية عملت على ان يتولى المناصب الكبيرة اصحاب المذهب السنى . خاصة مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، والذى كان مذهب الايوبيين .

ولقد اصدر الملك « العزيز بالله » بن « صلاح الدين الايوبى » مؤسس دولة الايوبيين فى مصر ، وفى نطاق خطة الايوبيين ، قراره بتعيين الشيخ « عبدالرحيم القنائى » ، شيخا لمدينة « قنا » .. ومنذ ذلك التاريخ صار سيدى « عبدالرحيم » يعرف « بالقنائى » .. وكان مركز دعوته زاوية بجانب ضريحه الحالى يجتمع فيها بزائريه والوافدين عليه من كل مكان .. وكانت هذه الزاوية قلب المدرسة القنائية التى قويت وانتشرت .

وكانت المدرسة القنائية ـ فى التصوف خاصة ـ ذات فكر خاص جديد فقد كان شيخها سيدى « عبدالرحيم القنائى » يرى أن المسلم ، لابد ان يكون قدوة لمعانى الايمان الذى يحمله فى داخله . ولذلك فلابد له ان يتخلق باخلاق الدين القويم ، والا يكون عاطلا . وانما يكون عاملا .. لأن هذا هو حق مجتمعه عليه ، والذى أوجبته العقيدة . ومن هذا المنطلق ، فان محور فلسفة سيدى « عبدالرحيم القنائى » كشيخ صوفى ـ وليس قطبا ذا طريقة ـ تدور حول التمسك بالدين . وهذا التمسك يلزم العمل به ، والعلم يدفع الى العمل ، والعمل يقود الى السلوك القويم ، والاخلاق الكريمة .

لقد كان كثيرا وكثيرا جدا ـ كما يقول « صلاح عزام » فى كتابه عن سيدى « عبدالرحيم القنائى » ـ مايركز على شعار العلم ، والعمل ، والاخلاق .. ولذلك فقد كان محور جهاده حولها . وكان يرفض ان يكون له طريقة .. كغيره من العلماء .

ولذلك كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول حول العلم : « .. والعلم اصل العقائد الدينية . وفى ذلك يقول الله تعالى : « شهد الله انه لااله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا اله الاهو العزيز الحكيم » . وقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » . كماتحدثت السيدة « عائشة » رضى الله عنها عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : « طلب العلم عند الله افضل من كثير » .

ومع العلم ، كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول لتلاميذه ومريديه : « إحفظ نفسك من نفسك وإلاهلكت » . ويقول ايضا : « لاتعن ظالما على مظلوم ولو قيدت بالسلاسل والاغلال » .. كما يوصى مريديه : « اتجه الى الله قبل كل شىء ، وفوض اليه الامر فى كل شىء » .

والى جانب العلم ايضا ، كان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يدعو كل من يأتى الى حلقته ، أن يتخذ له حرفة ، وإلى المزيد من العمل لمن يعمل .. حتى انه كان يبدأ دروسه وينهيها بقوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وكان سيدى « عبدالرحيم القنائى » يقول كذلك : « من راح الى غير عمل بعلم واخلاق ، فهو تحت حكم ماقاله الله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو اهدى سبيلا » .

ويقول سيدى « عبدالرحيم القنائى » حاضا على العمل ومحبذا له : « ان النبى صلى الله عليه وسلم تصوف قبل الرسالة بغار حراء ، فانقطع عن الدنيا الابما يقيم صلبه ، ولم يمنعه هذا من ان يعمل قبل الرسالة وبعدها عمل صلى الله عليه وسلم عمل اهل الارض ليقيم المساواة والعدالة لرسالة سوف تلقى عليه من ربه . فلما نزلت الرسالة ، اقر الله العلم والعمل باية نزلت على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

***

وعن الاخلاق يقول سيدى عبدالرحيم القنائى مفسرا لقوله تبارك وتعالى :

« **اليوم اكملت لكم دينكم ، واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** » يقول : ان النعمة المقصودة هى الاخلاق الحسنة . لان الدين لم يكن ناقصا ولكن معنى « اكملت لكم دينكم برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الانبياء والرسل وبه كمل الدين .

بالرسول . ثم ارتضى تبارك وتعالى الاسلام دينا . وهو الدعوة المحمدية التى وصل للناس نورها .. هداية وتبصرة وقوة وايمانا .. ومعرفة ، وعزة ، وجاها ، وعلما ، وعملا ، واخلاقا « **كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** » .

***

إن مدرسة سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. هى مدرسة متصوف ، تقوم على العلم والعمل والاخلاق .. وهى مدرسة فيها مافيها من السلوك القويم والاخلاق الكريمة .. التى تصبح جميعها متصلة .. لتكوين المسلم الصحيح ، وهذا يدل عليه ماسجل لهمن بعض عظاتـه ودعوتـه فى مدينـة « قنا » .. كمـا يبرز قـدرة سيدى « عبدالرحيم القنائى » على توصيل مايريد ان يقوله الى عقول المسلمين ..

ففى إحدى جلساته .. قال لمريديه :

عندما كنت بالمدينة المنورة ،مقيماً فيها .. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم « مناماً » ،وكان ذلك فى رؤيا ذات ليلة فسألت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن : كيف حدث شق الصدر . فقال عليه الصلاة والسلام : لقد شق صدرى وانا فى اليقظة ما شعرت فيه بشىء من ألم . وآتانى الله بقلب سليم ليتحمل نزول كلام الله على هذا القلب . لان القلب الذى خلقت به طفلا ، لا يتحمل هذا النزول .. وأنت يا عبد الرحيم تقرأ كتاب الله ، الذى قال جل شانه : « **بسم الله الرحمن الرحيم : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله** » .. « **نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين** » .

فمن رحمة الله بى أن هذا القلب الذى ارتضاه ربى ، فيه قوة ونورانية ونقاء وصفاء . وقد سلم من كل شىء من امراض الدنيا وعثراتها .. تجرى فيه آيات الرحمن التى نزلت عليه ، لم يخالطها شىء من قوة أخرى . حيث كان كلام الله هو القوة والحياة . وقد حفظه الله من الزيغ والنسيان ، وليس للشيطان سلطان عليه . ومتى جرى قول الله فى مكان ، اصبح هذا المكان بعيدا عن الهوى ، وهذا هومعنى قوله تعالى عنى : « **ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك** » .. وهذ هوالمعنى فى قوله تعالى : « **وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم** » ..

« ولقد كان الكتاب والايمان نورا فى قلبى وعلى قلبى . وكان قلبى نورا يهدى به الله من يشاء من عباده بإذنه . وارسلنى جل شأنه لهدى الناس الى صراط الله المستقيم . وهذا هو قلبى ياعبد الرحيم » .

ثم بعد ان روى سيدى « عبدالرحيم » ذلك ، يقول فى مستمعيه :

ياعباد الله .. هذا هو ماوصل الى فى وصف قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من رسول الله نفسه ، وأنا هناك بالأرض الطيبة بالمدينة المنورة ، أنعم برضاء الله وحب رسوله العظيم .

ياعباد الله .. قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخالطه حقد ولاحسد . فقد عاش هذا القلب بقوة كلام الله الذى انزل عليه ، وكلام الله غذاء للروح والجسم . وحياة الانسان .

قلب رسول الله أبيض . فقد غمره الصفاء . فأشرق به على العالم أجمع نبيا . وغمره النور ضياء فكان به رحمة للعالمين ، وكسته السلامة ، فأتى الله بها دنيا واخرى ، ولقى الله بقلب سليم . ما نطق عن الهوى .. كل كلامه حكمة وكل كلامه كمال ، وكل كلامه حسن ، وكل كلامه جمال ، وكل كلامه حق ، وكل كلامه صدق ، وكل كلامه رحمة ، وكل كلامه معرفة ، وكل كلامه نور ، وكل كلامه ضياء ، وكل كلامه جلال ، وكل كلامه تقريب الى الله ، وكل كلامه فصاحة ، وكل كلامه خير ، وكل كلامه وقار ، وكل كلامه أمانة ، وكل كلامه شرف ، وكل كلامه غذاء للروح والقلب .. حتى كان الصحابة رضى الله عنهم يستأنسون بصوته عن بعد اذا غاب عنهم جسده الشريف ، يحسون به ريا لظمئهم ، واطمئنانا لقلوبهم ، وشفاء لحبهم .

انظر الى كلام الله جل شأنه فيه صلوات عليه وسلامه :

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ..

و .. و .. و .. »

***

لقد كان أسلوبه رشيقا يدخل القلب .. وكان عرضه يستقطب الانتباه كما كان تفسيره ينحو نحو الفلسفة السهلة .. دون التعقيد . ولقد عرض صاحب كتاب « بهجة الاسرار » لمجموعة من أحواله ومقاماته التى تظهر فيها صوفيته وعلمه الغزير كما تظهر فيها منزلة سيدى « **عبدالرحيم القنائى** » فى العلم اللدنى ومعرفته بالاحوال والمقامات .. نجتزىء منها قوله رضى الله عنه :

● **قطع العلائق** : محو الفقد وظهور العقد بعدم الالتفات الى السوى ، وثقة القلب بترتيب القدر السابق .

● التجريد : نسيان الزمانين حكما ، والذهول عن الكونين حالا ، وغض البصر عن « الاين » ، وقتا حتى تنقلب الاكوان باطنا لظاهر ، ومتحركا لساكن ، فيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم ، والابتهاج بمنفسحات الموارد وانشراح الصدور بصور الاكوان مع ثبوت المقام بعد التكوين ورسوخ التمكين ، فتكون السماء له رداء ، والارض بساطا .

● والهيبة : في القلب لعظمة الله تعالى : طمس على ابصار البصائر لمشاهدته ومشاهدته لمن سواه حسنا ، فلايرى الا بأنوار الجلال ، ولايرى الابسواطع الجمال .

● والرضا : سكون القلب تحت مجارى الاقدار بنفى التفرقة حالا ، وعلم التوحيد جمعا ، فيشهد القدرة بالقادر ، والامر بالآمر ، وذلك يلزمه في كل حال من الاحوال .

● والجوع : صفاء الاسرار في استغراق الاذكار .

● والشوق : الاستغراق في مجال الذكر طربا ، ثم الغيبة في توسط الذكر سكرا ، ثم الحضور في اواخر الذكر صحوا . فهو بين استغراق يهيجه ، وغيبة تزعجه ، وحضور ينعشه ، وثلث وقت المشتاق استغراق وثلثه غيبة ، وثلثه حضور .

● الواصل : القى السمع للاصغاء ، وفتح البصيرة للنظر ، فتنقلب حروف الاكوان في سر استماعه نذيرا وحكما ومواعظ ، فهو في رياض التدبير بين حدائق المواعظ الناطقة والصامتة ، وازهار الحكم الباطنة والظاهرة .

● التقوى : ان لايظهر على محله حركة الا وهي منوطة بحبل العلم مع غيبة عن حركته . فان تكن باطنة ، ففي باطن العلم وجودها مع طهارة القلب وتسليم النفس ومبادرة الوقت . واذا صح هذا الوصف للعبد ، أتاه الله عزوجل العلم اللدنى ، وفتح له باب الالهام الوحيي ، فيحدث روحه بأسرار الملكوت .

● والحياة : أن يحيا القلب بنور الكشف ، فيدرك سر الحق الذى برزت به الاكوان في اختلاف أطوارها فكيف هي حية بالله تعالى ، ويخاطبه بأسرار معانيها والطاف مبانيها .

● والتمكين : شهود العلم كشفا ، ورجوع الأحوال عليه قهرا ، والتصرف بالقادم حتما ، وكمال الامر شرعا ..

***

ظل الامام « عبدالرحيم القنائي » ــ قطب المدرسة القنائية ــ ولا اقول الطريقة الصوفية ــ يردد دعاءه الاثير لديه : « اللهم ارزقني علم الحياة وحياة العلم .. وامنحني نعيم الحياة وحياة النعيم . واغمرني بفضل من النور ونور من الفضل .

واعطنى قوة الايدان وابدان القوة . واسالك نعمة الشفاء وشفاء النعمة . واسالك طول العمر ياذا الطول والانعام ، واحسن الى ياعظيم الاحسان ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

ويقال أيضا ان دعاءه الذى ظل يردده مريدوه « اللهم ارزقنا رزقا لاتعذبنا عليه » .

***

ظل سيدى « عبدالرحيم القنائى » يواصل الجهاد فى مدرسته حتى توفاه الله بعد حياة حافلة امتدت ٧٢ عاما قضاها بين المغرب ودمشق والحجاز والصعيد .. مرورا بالاسكندرية والقاهرة . وقد كانت وفاته فى عام ٥٩٢ الهجرى .. وهو نفس العام الذى توفى فيه « صلاح الدين الايوبى » .

ومدينة « قنا » التى عاش فيها سيدى « عبدالرحيم القنائى » رضوان الله عليه ، هى مدينة مصرية قديمة اسمها الفرعونى « شبابت » .. وفى العصر البطلمى تسمت باسم « كنابوليس » .. وهذا هو الاسم الذى حملته حتى الان ، وان كان فى العصر القبطى كان ينطق « كونا » ومنها الاسم العربى « قونه » .. ثم حرف الى « قنا او قنى » .

ومن الصدف ان يكون سيدى « عبدالرحيم القنائى » قد غير اسمه ايضا مثل المدينة التى عاش فيها ، فلقد كان اسم سيدى « عبدالرحيم » الذى اختاره له والداه هو « أسد » .. وهو من الأسماء العربية الشهيرة المتكررة . وبعد سياحات وجولات ..

مجاهدة وجهادا فى سبيله تعالى رأى ان يستبدل « عبدالرحيم » .. بـ« أسد » .. انطلاقا من اقتناعه بأن الرحمة بالنسبة للمسلم ، لاتعنى المعنى البسيط المجرد لهذه الكلمة .. وانما هى أكثر الكلمات امتلاء بالمعانى . فهى تعنى الكرم من موقف القوة ، وتعنى الصلة بين الاخوة ، وتعنى الجلال فى طيبة .

وهكذا غير الشيخ اسمه إلى « عبدالرحيم » اما القنائى فهى صفة لصقت باسمه من المدينة التى عاش فيها ودفن فيها .. وفى الموروثات الشعبية نجد تلميحا الى ذلك فيما يقولون :

السيد غير اسمه بالنور
جانا وفرش القلوب بالورد والنور
رسمنا الاسد على ايدينا وصدورنا
وفوق الكفوف
وجوه القلوب اللى قايد .. بيتفجر نور
ياحبيبى ياقناوى .. يامنى عينى

ويرمز الى ذلك ايضا أن اغلب اهل الصعيد كانوا تبركا بسيدى « عبدالـرحيم القناوى » يدقون وشم الاسد والسيف على صدورهم وفوق اكفهم .. رمزا للشيخ المبارك الذى نور الصعيد ..

***

ومسجد سيدى « عبدالرحيم القنائى » ، الملحق به ضريحه والموجود حاليا يرجع بناؤه الى النصف الاول من القرن العشرين .. الا انه حل محل الزاوية التى بناها الشيخ فى حياته ، والتى كان يتعبد فيها .. كما كان ايضا يستقبل فيها زواره ومريديه .

ويتكون المسجد الحالى ـ كما تقول الدكتورة « سعاد ماهر » من صحن مربع بسقف به « شخشيخة » ، تعلوها قبة صغيرة ضحلة ، ويحيط بالصحن اربعة ايوانـات عميقة متعامدة ، اكبرها ايوان القبلة ، ويقع فى الجهة الشرقية من المسجد . ويتقدم كل ايوان عمودان ، كل منهما يتكون من عمودين ملتصقين ويعلو العمودين ثلاثة عقود تكون واجهة الايوان .

والمدخل الرئيسى للمسجد يقع فى الجهة الجنوبية ، وهو مرتفع اذ يصعد اليه بست درجات وتتقدمه مظلة ذات أعمدة . وفى الركن الجنوبى الشرقى للمدخل توجد مئذنـة الجامع . وخلف الايوان الشرقى يوجد الضريح .. وهو عبارة عن أركان المربع .. والضريح مدفون فيه سيدى عبد الرحيم القنائى وسيدى ابوالحسن الصباغ تلميذه وزوج ابنته .

وهذا الضريح .. تروى حوله قصص الكرامات ، والتى يقولون ان من كراماته رضى الله عنه « فائدة الأربعاء » . وهذه الكرامة تروى عن ابى عبد الله القرشى . وهى أن من له حاجة عند الله تعالى يزور سيدى عبد الرحيم القنائى يوم الاربعاء بكيفية مخصوصة ، بأن يمشى الى قبره حافيا ، مكشوف الرأس وقت الظهيرة ، فيدخل ويصلى ركعتين ، ويقرأ شيئا من القرآن الكريم ، ويقول : **اللهم انى اتوسل اليك بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبابينا أدم وأمنا حواء ، ومابينهما من النبيين والمرسلين ، وبعبد الرحيم ، اقضى حاجتى .. ثم يذكر حاجته .**

ويروى بتواتر .. انه لم يجربها احد الا وقضيت حاجته ..

ولقد ظل ضريح سيدى « عبدالرحيم القنائى » قبلة للقصاد من المؤمنين ، حتى أن المؤرخين ، يقولون إنه بعد موته زار ضريحه سيدى « احمد البدوى » ـ وقد قال له ـ كما تروى المأثورات الشعبية ـ الكثير ، ومنه انه دعا الى جواره أن يقضى الله حوائجه ، توسل اليه بتلميذه الصباغ :

انا يا سيدى عبد الرحيم ايا الاسد
يا كعبة القصاد يا اعلى سند
انا فى جوارك يا ابن بنت المصطفى
مما دهانى من كروب او شدد
بالسيد الصباغ من اوليته
يالمشهد الاعلى ، بسرك قد ورد
انى قصدتك فى قضاء حوائجى
قل مرحبا يا ابن الحسين ،.ومد يد

وهناك رواية منسوبة لشيخ الاسلام « ابن دقيق العيد » ، وكان فى مصر ، فى زمن سيدى « احمد البدوى » . وتقول هذه الرواية ان شيخ الاسلام « ابن دقيق العيد » زار جبانة قنا وقت الظهير ، وجلس عند قبر سيدى « عبدالرحيم القنائى » .. واذا بأنوار تخرج من قبر سيدى « عبد الرحيم » وأنوار اخرى تخرج من قبر سيدى « أبى الحسن الصباغ » .. حتى توارى عنى نور الشمس لشدة ضياء تلك الأنوار . ثم سمعت قائلا من قبر سيدى « عبدالرحيم » يقول « الله نور السموات والأرض » وقائلا يقول من قبر الشيخ « أبى الحسن الصباغ » : « نور على نور » .

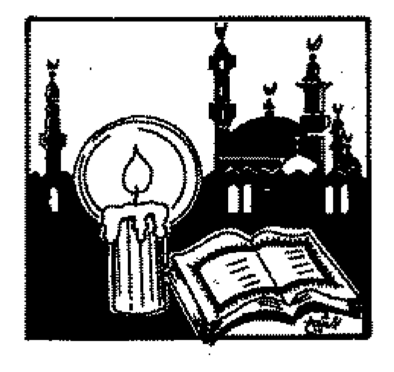
***

يقولون ان ضريح سيدى « عبد الرحيم » مجلل بالأنوار ، وان خيرا وبركة ترفرف فوقه .. وان كثيرين من حكام مصر كانوا يعتقدون فى بركاته .. وانهم أوقفوا الكثير عليه ـ قبل حل الأوقاف . ومن بين تلك الأوقاف قطعة أرض اسمها « الفدان » .. وفى بعض المصادر « الفداك » .. وهذه الارض يصلح ترابها لعجينة الفخار الذى تصنع منه القلل والاباريق ، والتى كان الحجاج يحملونها ويعودون بها من الاراضى المقدسة وفيها بعض ماء زمزم .. ولأجل هذا فان القلل القناوى مازالت لها شهرتها وبركتها فى تبريد الماء .. وتحويله الى ماء زلال .. لأنها من الارض المدفون فيها سيدى « اسد » .. أو « عبد الرحيم القنائى » رضى الله عنه .

أعلام
التصوف
الاسلامي

الامام الطرطوشي

صاحب سراج الملوك
المدافع عن المظلومين



●● كما يروى الاستاذ المؤرخ الكبير « محمد عبدالله عنان » الحجة فى تاريخ الاندلس .. فان عصر الطوائف بالاندلس ، كان عصرا غريبا .. يمتاز من الناحيتين السياسية والاجتماعية بعدة خصائص تجعله عصرا قائما بذاته .

فمن الناحية السياسية ، نرى الاندلس فى عصر الطوائف تنتثر الى دويلات عديدة ، متنابذة متنافسة ، يسودها الخلاف والتفرق ، وتشتبك فى حروب اهلية صغيرة لانهاية لها .

ونرى اسبانيا النصرانية ، تستطيل عليها ، وتتربص بها .. وتحاول ان تؤلب بعضها على بعض ، وان تنتزع منها ما استطاعت من القواعد والاراضى .

ومن الناحية الاجتماعية ، نرى فى دول الطوائف ، مجتمعات منحلة ، يغلب عليها الضعف والخور ، والانهماك فى الترف ، وحياة المجون والدعة والاستهتار .

على ان اغرب ظاهرة ــ والحديث هنا لاستاذنا عبدالله عنان ــ تبدو خلال هذا الانحلال الشامل ، الذى كان يسود مجتمع الطوائف .. هو ان هذا المجتمع كان من الناحية الاخرى ، يبدو فى اثواب لامعة زاهية ، وبسطع نهضة ادبية شاملة ، وانها لظاهرة من ابرز ظواهر عصر الطوائف ان يكون معظم حكامها من اكابر الادباء والشعراء والعلماء ، وان تكون قصورهم منتديات زاهرة ، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون ، وان يحفل هذا العصر بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء الممتازين ، ومنهم بعض قادة الفكر الاندلسى والفكر الاسلامى بصفة عامة .

فى هذا المجتمع المترف .. الذى يعشق متع الحياة المادية ، ومن بين هذه الجمهرة الحاشدة من ائمة العلوم والآداب .. ظهر مفكر اندلسى من نوع خاص ، يتخذ من اوضاع هذه الدول الصغيرة ــ دول الطوائف ، ومن احداثها وسياسة ملوكها ورؤسائها .. مادة لتاملاته ، ويتاثر بها فى تفكيره ، ويصوغ لنا منها مبادىء ونظريات خاصة .. هو الامام المتصوف العلامة « ابوبكر الطرطوشى » الذى جاء الى الاسكندرية .. التى كانت دائما مهبط علماء المغرب والاندلس المفضل .. ففى الوقت الذى نزل بها الإمام « الطرطوشى » ، نزل بها مواطنه العلامة « امية بن ابى الصلت

الاندلسى ، المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ، ونزل من بعده بنحو نصف قرن مواطنه العلامة المقرىء الشهير « ابوالقاسم الرعينى الشاطبى الضرير » امام القراءات والمتوفى سنة ٥٩٠ هـ وهوالذى اورث مصر علم القراءات . ونزل فى منتصف القرن السابع الهجرى العلامة الاندلسى المتصوف « ابوالعباس المرسى » المتوفى سنة ٦٨٥ هـ .. وغيرهم كثير

هذا نموذج فريد من الائمة الصوفيين .. كان شمعة مضيئة فى ليل مظلم ، حالك السواد . لكنه باشراقة قلبه وصدق ايمانه .. ادى ماعليه من واجب نحو دينه ونحو المسلمين ، فعلا صيته وهزت كلماته قلوب الناس .. ورجت السلاطين والملوك فهابوه .

هذا العالم الجليل والامام الصوفى جاب عالم الاسلام من مغربه إلى مشرقه فى النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة .. بدأ رحلته الطويلة من الاندلس وأنهاها فى الاسكندرية .. وخصص من نفسه ومن علمه الغزير هاديا ومعلما وواعظا للملوك والسلاطين .. وهدفه من وراء ذلك كله أن يعود الاسلام الى عزته ومنعته ، وان تتخلص ديار الإسلام من الكوارث والتمزقات .

من طرطوشه ـ أوطرطوسه ـ فى الأندلس ، كانت قصته المثيرة ، باحثا ودارسا ومدرسا فى فروع العلم والفلسفة والتصوف ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر .. لايخشى فى الله لومة لائم .. وكما يقول « المقرى » ، صاحب كتاب « نفح الطيب » .. « كان الطرطوشى قوالا للحق ، مدافعا عنه » .

ونهاية سياحات هذا الامام فى بلاد الاسلام ، كانت « الاسكندرية » .. حيث حط رحاله ، واستقر المقام بهذا العالم الشجاع المؤمن ، المعتد بنفسه ، والذى لايخشى فى الله لومة لائم . وكانت هذه النهاية ـ كما كانت بدايتها ـ نسيجا لحياة ثرية .. وخلاصا لناس الثغر .. حتى لقد قال قولته المشهورة : « وجدت فى الاسكندرية قوما ضلالا .. فكنت سبب هدايتهم » .

لكن الامام « الطرطوشى » ، قبل أن يهل على « الاسكندرية » كهوائها الطيب ، أوقبل أن يصر اهلها على تشريفه لها ، ليعيش بينهم .. كانت له فتوحات ، وصولات وجولات .. فى كل من مكة المكرمة ، وبغداد ، والبصرة ، والشام .. ثم رشيد فالإسكندرية ، فالقاهرة . فالاسكندرية .

وقبل أن يدخل الاسكندرية ليعيش فيها ، ويستقر بها .. كانت هذه المدينة فى شدة وكرب ، لم تشهدهما على طول تاريخها العريق .. فقد جاء « الطرطوشى » الاسكندرية والبلد خراب ، صفوة علمائها قد قتلوا ، بحيث نضب معينها من العلماء الاجلاء ..

احس أهل الاسكندرية ، أنهم فى حاجة ماسة الى جريان ماء العقيدة والتقوى والصلاح ، بعد ان كادت تتوقف . إنهم فى حاجة الى قطب فقيه كبير سبقته شهرته فى عالم الاسلام . يتصدر حلقات الدرس فى مساجدها التى تعطل وتهدم اكثرها .. حتى من إقامة الجمعة والجماعة .. ولذلك شكل الناس وفدا من الباقى من فقهاء الاسكندرية وأعيانها .. وسافر الوفد الى مدينة رشيد ، وعلى رأسه قاضى الاسكندرية ، قابلوا الامام « الطرطوشى » طلبوا اليه ورجوه ان يذهب معهم الى بلدهم .. والحوا فى الطلب . والإمام « الطرطوشى » لم يتقاعس عن الجهاد فقبل رجاءهم ، لأن الجهاد فرض عين على كل مؤمن .. ناهيك عن هذا الإمام الكبير العالم الصوفى ...

وبالفعل .. اصطحب معه تلميذه من فلسطين الشيخ « السائح » .. ودخل الثغر مع الوفد الذى جاءه .. وبدأ نور الايمان يسلط أضواءه على الاسكندرية حين بدأ الامام يعمر المساجد بدروسه وينشر العلم على مذهب الامام مالك – مذهبه هو – وكثر الناس حوله فى حلقاته ، يأخذون عنه ، ويفيدون منه ومن علمه . وقد كان دخوله الاسكندرية ، فى عهد الوزير الفاطمى « الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » عام ٤٨٨ هجرية .. أيام دولة الفاطميين فى مصر .

***

قبل أن يأتى الامام « الطرطوشى » مدينة الاسكندرية .. كانت « مصر » تحت حكم الخليفة الفاطمى « المستنصر بالله » .. والذى ظل يحكمها ٦٠ عاما وبضعة أشهر . وكان عهد هذا الخليفة ، كما يقول دكتور « حسن ابراهيم حسن » فى كتابه « تاريخ الدولة الفاطمية » .. أطول عهود الخلفاء الفاطميين فى مصر .. وهذا العهد فى فترته الأولى كان من أزهر فترات حكم الدولة الفاطمية .. حتى أن سلطان الدولة امتد فيه على بلاد الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمال افريقيا . وكان اسم « المستنصر بالله » تجرى الخطابة به على منابر تلك البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غربا الى الخليج شرقا .. وكذا صقلية ، وبغداد نفسها ، حاضرة العباسيين .

لقد زار الرحالة الفارسى « ناصر خسرو » مصر فى عام ٤٣٩ الهجرى ، فى أيام حكم « المستنصر بالله » الأولى ، ووصف البلاد وحالتها فى كتابه « سفر نامه » الذى نقله الى العربية الدكتور « يحيى الخشاب » ، حيث قال عنها « انها تلفها الطمانينة واليسر والرخاء .. » وقد اطنب فى وصف البلاط الفاطمى وابهته ، وما كانت عليه القاهرة الفاطمية فى ذلك الوقت من يسر ورخاء وإمبراطورية شاسعة الأرجاء .

غير ان الحالة فى مصر سرعان ماتبدلت بعد ذلك من النقيض الى النقيض فقد حل بالقاهرة قحط بدأ عام ٤٤٦ هـ . وانخفض ماء النيل مدة سبع سنوات .. اهملت فيها الزراعة ، وانتشرت المجاعات ، وعم الوباء الذى يعتبر اطول وباء عرفته مصر فى العصور الوسطى ، حيث امتد ثمان سنوات من عام ٤٤٦ هـ . الى عام ٤٥٤ هـ . ويقول بعض المؤرخين ، إنه كان يموت بمصر عشرة الاف نفس فى اليوم الواحد . وعدمت الاقوات ، حتى اكل الناس القطط والكلاب ، ثم اكل الناس الجيف .. حتى ان البعض يشبه هذه الحالة ، بما كانت عليه اوربا فى العصور الوسطى ، ايام الوباء الذى انتشر فيها وسماه الناس « الموت الأسود » .

ومما يذكر .. أنه تقلد الوزارة فى مصر فى تلك الفترة ، ومدتها تسع سنوات حوالى ٤٠ وزيرا .. وكان الوزراء هم أصحاب الأمر والنهى فى البلاد وقد اقترنت هذه الحالة التى أطلق عليها المؤرخون « الشدة العظمى » .. بقيام الفتن ، والحروب الاهلية .. حتى استدعى « المستنصر » الى مصر واليه على عكا « بدر الجمالى » ، الذى هدأ الحالة ، وبنى سور القاهرة : إستدعاه « المستنصر » فى عام ٤٦٦ هـ .. فأعاد – كما يقول المؤرخ « ابن ميسر » فى كتابه « تاريخ مصر » : « النظام ، ووجه همه الى إصلاح حال البلاد ، وقضى على المفسدين » .

لكن لم تكد تمضى فترة قصيرة .. حتى مات « المستنصر » ، فبادر الوزير « الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » فأجلس « ابا القاسم احمد » أصغر أبناء « المستنصر » على عرش الخلافة الفاطمية .

هنا تبدأ شدة أخرى بالنسبة للاسكندرية .. حين يغضب اكبر أبناء « المستنصر » ، واسمه « نزار » .. لتخطى دوره ، خاصة وان أباه كان قد ولاه عهده فى حياته . وحين يرى « نزار » ضياع حقه فى « الخلافة » يسير الى الاسكندرية مع اعوانه ، حيث يحسن واليها « ناصر الدين افتكين » التركى استقباله ، ويبايعه مع اهل الاسكندرية بالخلافة . وهنا أيضا تحدث طامة كبرى .. حيث يخرج لقتاله « الافضل بن بدر الجمالى » ، فيحاصر المدينة بجيش كبير ، حصارا شديدا ، ونصب عليها المجانيق .. فأصيبت الاسكندرية بالتخريب . كما انتقم « الافضل » من أهل الاسكندرية ، الذين شقوا عصا الطاعة ، فقتل الكثير من علمائها بحيث لم يبق فى المدينة كبير من علمائه .. !!

***

في هذه الفترة يأتي الإمام « الطرطوشي » .. ليدرس مذهب الامام « مالك » .. ويتقاطر الناس عليه يأخذون منه ، ويقرأون عليه ، ويفيدون من علمه ..

وهنا ملاحظة تذكرها الدكتورة الاستاذة « سعاد ماهر » في كتابها « مساجد مصر وأولياء الله الصالحين » ، تقول :

« ومما تجدر ملاحظته ، أنه على الرغم من أن المذهب الرسمي للدولة الفاطمية كان هو المذهب الشيعي الفاطمي ، وأن الدولة بذلت جهودا كبيرة في نشره ، فقد ظلت الاسكندرية « سنية » على مذهب الامام مالك . ويرجع السبب في ذلك الى مرابطة الكثير من القبائل العربية . فقد دأب الخلفاء الراشدون الأربعة ، وكذلك خلفاء الدولة الأموية والدولة العباسية على أن يبقى ربع الجيش الموجود في مصر ، بمدينة الاسكندرية لحمايتها ، وحماية حدود مصر الشمالية .

« كما كانت الاسكندرية دائما محط رجال المغاربة الذاهبين للحج أو العائدين منه ، ولعل هذا يفسر لنا رغبة أهل الاسكندرية الملحة في مجيء الامام الطرطوشي اليهم ، كما يفسر السبب في وفود كثير من علماء وأئمة أهل المغرب اليها » .

الإمام الطرطوشي .. هو أبوبكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الطرطوشي . ويعرف في المصادر الأسبانية « بابن رندقة » . وهذه التسمية من تسميات الكتاب الفرنسيين ، في محاولة منهم لجعله فرنسي الأصل .

وتقول الدكتورة سعاد ماهر : إننا اذا كنا لانعرف شيئا عن أسرة أبي بكر الطرطوشي ، فإن المراجع التي أرخت له لم تذكر شيئا عن أسرته ، ويخطيء من يحاول إرجاع نسبه الى أصل فرنسي ، اذ أن نسبه واضح ، وينتهي الى قريش .

ولقد ولد الإمام الطرطوشي في طرطوشه ، ثغر مملكة سرقسطة الأندلسية ، الأول .. في السادس والعشرين من جمادى الاول عام ٤٥٠ — ٤٥١ الهجرى « يوليو ١٠٥٩ الميلادى » . وكانت طرطوشه ، كما يصفها المؤرخ أبو المحاسن في « النجوم الزاهرة » مدينة كبيرة من مدن الأندلس ، تقع على سفح جبل الى الشرق من مدينتي بلنسيه وقرطبه .. يحيط بها سور حصين من الصخور بناه بنو أمية . كما كانت « مدينة منيعة ، قريبة من البحر ، بينها وبينه عشرون ميلا ، متقنة العمارة ، مبنية على نهر أبرة » .

كانت طرطوشه داخل مملكة سرقسطه تتمتع فى ظل أمرائها من بنى هود بالرخاء والازدهار . بل كانت مركزا من مراكز العلوم الاندلسية . كما كان بلاط بنى هود منتدى للعلماء والادباء . وكان أمير سرقسطه فى الوقت الذى برز فيه الطرطوشى ، هو المقتدر بن هود « ٤٣٨ — ٤٧٤ هـ » .. من اكابرعلماء عصره ، يشغف بدراسة الفلك والفلسفة والرياضيات .. وله فى ذلك كتب ضاعت .. كما كان المقتدر بن هود يلتقى فى بلاطه بأكابر العلماء ، ومنهم العلامة الكبير أبوالوليد الباجى ، إمام عصره فى الفقه ومسائل الخلاف .

يقول الدكتور « جمال الدين الشيال » .. « إنه إعتمادا على ماجاء فى كتاب « سراج الملوك » من قصص وروايات عن أفراد أسرة الطرطوشى ، فإن والده كان عالما من المشتغلين بالعلم ، ولذلك وجه ابنه هذه الوجهة ، وأن أسرة الطرطوشى كانت على شىء من الثراء ، ولذلك استطاع الطرطوشى أن يعيش فى وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره ، وهو عالة على أهله يطلب العلم ، وهم يكفونه . واستطاع قبل خروجه للرحلة أن يزود بنفحة وفيرة » .

وقد بدأ الإمام الطرطوشى رحلة العلم فى مسجد طرطوشه الكبير .

وفى رحاب العلامة « ابى الوليد الباجى » ، تلقى عنه الكثير ، وخاصة فى مسائل الخلاف ، ولازمه اعواما طويلة خلال إقامته بسرقسطة .. حتى ان « الطرطوشى » تاثر فى تفكيره وفلسفته الكلامية ، بفكر هذا القطب الكبير . كما تاثر ايضا بتفكير صنوه وقرينه فى غزارة الفقه ومسائل الخلاف والفرق العلامة « ابن حزم الاندلسى القرطبى » . وفضلا عن ذلك ، فقد شهد « الطرطوشى » فى شبابه أحداث دول الطوائف فى الأندلس . خاصة مملكة سرقسطه .. عن كثب ، وهى التى أملت عليه الكثير من نظرياته فى السياسة والاجتماع .

يقول « الطرطوشى » فى « سراج الملوك » .. اشهر مؤلفاته ، إنه لما اراد الرحيل الى المشرق لطلب العلم ، كان شديد الخوف على نفسه لجهله بالتجارة او باية حرفة .. لكنه فى الواقع ذهب ومعه ماهو أهم : دعم مادى من أسرته وكنز من العلوم فى راسه ..

رحل « الطرطوشى » ، وهو شاب يافع فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، فى ٤٧٦ هـ . رحل أولا الى « مكة المكرمة » ، حيث قام باداء فريضة الحج ، وحيث استقر بها بعض الوقت ، يلقى فيها بعض الدروس ، ويستفيد مما يلقى من دروس .. ولاشك أنه كان قد مر على « الاسكندرية » فى بداية رحلته .. لكن مؤرخيه لم يذكروا شيئا عن مروره الأول .

ومن « مكة » قصد « بغداد » .. و« بغداد » في ذلك الوقت كانت مزدحمة بالفقهاء والعلماء وتنبض بالنشاط العلمي .. حيث كانت هناك المدرسة « النظامية » نسبة لنظام الملك . وهذه المدرسة كانت بمثابة قلب الحركة العلمية هناك . وقد درس « الطرطوشي » في « بغداد » على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي ، وأبي أحمد الجرجاني ، وأبي سعد بن المتبولي .. وهم يومئذ أئمة الفقه الشافعي ..

وفي « بغداد » كذلك ، اتجه « الطرطوشي » الى التصوف .. حيث كان الفكر الصوفي متأصلا على يد أقطابه .. وقد درس التصوف هناك ، ونبغ فيه ، حتى عده من كتبوا عنه واحدا من المتصوفة الزاهدين .. وقد حفظ شعرا صوفيا كثيرا موجود أغلبه في كتابه « سراج الملوك » .

ومن « بغداد » .. بعد أن أتم « الطرطوشي » زاده من الدراسة ، وكون لنفسه رؤية خاصة به تقوم على الزهد ، والسعي للامر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ذهب الى البصرة ، حيث نهل من علم « أبي على التسترى » .. ثم رحل الى الشام ليستوطنها فترة .. حيث عاش هناك بعلمه الغزير وحلقاته التي زادت .. واشتهر بورعه وزهده ، لدرجة أنه كان — كما يقول أحد مؤرخيه — « يأكل على شقف من الفخار ، وينام على التراب » . ومن جبل « لبنان » ذهب الى « بيت المقدس » ، حيث التقى بتلميذه الشيخ السائح ولبث هناك فترةمن الوقت .. وشهدت مساجد بيت المقدس دروسه وحلقاته . يقول « ياقوت الحموي » : « سكن الطرطوشي الشام مدة ودرس بها وذاع صيته ، واخذ الناس عنه علما كثيرا » .. وقد ذاع صيته في بيت المقدس ، مما دفع بأهلها الى الذهاب اليه ليزوروه .. وكانت ختام رحلة العلم الى « رشيد » في« الاسكندرية » .

في « الاسكندرية » يستقر الامام « الطرطوشي » ، منذ عام ٤٤٨ الهجرى ... في بداية عهد الوزير الفاطمي « الافضل شاهنشـاه بن الجمالي » وهـو في نحو الثامنة والثلاثين من عمره . واقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه العزيز في الحديث والفقه ومسائل الخلاف ..

ويصف المؤرخون « الاسكندرية » عند قدوم « الطرطوشي » ، أنه وجدها معطلة دينيا ، ما اقيمت فيها صلاة الجمعة بالمسجد منذ فترة طويلة . فثار الامام العالم وهاج . وعرف الناس بوجوده ، فتجمعوا حوله للدرس والصلاة .. حتى أن « الاسكندرية » بدأت تعود الى مكانتها ، وفتحت المدارس على يديه ، وصارت « الاسكندرية » بوجود الامام « الطرطوشي » بها « مدرسة الدين في مصر » .

وفى « الاسكندرية » كذلك يتزوج الامام « الطرطوشى » من اكبر بيوتاتها ، وكانت زوجته خالة تلميذه وخليفة فكره « ابى الطاهر » .

لكن لم يلبث « الطرطوشى » أن يسافر من الاسكندرية الى القاهرة ، كما يروى فى كتابه « سراج الملوك » ، ليقابل الوزير الفاطمى .. حيث كان « الطرطوشى » قد سمع بما يأتيه « الافضل شاهنشاه بن بدر الجمالى » من ظلم وتعسف مع الرعية . وقد استقبله الوزير الفاطمى استقبالا حسنا ... لكن « الطرطوشى » لم يعبأ بهذا الاستقبال ، وصار يعظ الوزير القوى ، وينصحه بتقوى الله وطاعته ، واقامة العدل ، وقمع الظلم ، والرفق بالرعية .

يقول « ابن خلكان » فى وفيات الاعيان ، ان الطرطوشى دخل على الافضل بن امير الجيوش بمصر ، فبسط تحته مئزرته ، وكان الى جانب الافضل نصرانى ، فوعظ الافضل حتى ابكاه ، ثم انشد يقول :

يا ذا الذى طاعته قربه
وحقه مفترض واجب
ان الذى شرفت من اجله
يزعم هذا انه كاذب

واشار « الطرطوشى » الى النصرانى ، فاقام الافضل النصرانى من موضعه وابعده .

ولقد كان مما قاله « الطرطوشى » للافضل : « اعلم أن الملك الذى اصبحت فيه ، انما صار اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك ، فاتق الله فيما حولك من هذه الأمة . فان الله سائلك عن النقير والقطمير . فافتح الباب ، وسهل الحجاب وانصر المظلوم . اعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفا للملهوف ، وامانا للخائف » .

والواقع أن الإمام « الطرطوشى » بهذه الجراة ، حين يذهب الى القاهرة ، والى وزير الدولة الفاطمية لكى يلقى اليه بموعظة .. فإنما هذه خير شهادة للرجل على جراته فى الحق . لقد قال « الطرطوشى » كلمته دون أن يرهب الوزير الفاطمى . ثم يعود الى « الاسكندرية » .

في « الاسكندرية » .. كان جهاد آخر . فقد نشبت بين « الطرطوشي » وبين قاضيها « مكين الدولة بن حديد » ، خصومة شديدة ، بسبب ما كان يثيره الامام من نقد حاد حول تصرفات هذا القاضي ، في شئون الأموال والمكوس والمغارز والمظالم ، وغير ذلك من التصرفات الادارية والقضائية . يضاف الى ذلك ، ما كان يصدره الامام « الطرطوشي » من فتاوى تثير الرأى العام في بعض الشئون ، مثل قوله بتحريم الجبن الذي يأتي به « الروم » الى « الاسكندرية » — وكانت « بالاسكندرية » جالية كبيرة — ومثل حملاته المتكررة على كثير من العادات السائدة في المجتمع السكندري .. وهو ماكان يصفه الطرطوشي « بالبدع المحرمة » .. !

وهنا يضيق القاضي « بالطرطوشي » وآرائه ، ويبعث في حقه الى وزير الخليفة بالقاهرة بشكاوى وتقارير ، وصفت بأنها « مرة » . وهذه التقارير والشكاوى صورت « الطرطوشي » شخصا خطرا على النظام ، مثيرا للشغب .

وهنا يبادر « الأفضل شاهنشاه » ، فيرسل لاستدعاء الامام « الطرطوشي » الى القاهرة سنة ٥١٥ هجرية « ١١٢١ ميلادية » . ويحضر « الطرطوشي » ومعه خادمه الى « الافضل » ، الذي استقبله ولم يسيء معاملته .. لكنه أمر بأن يقيم في مسجد « الرصد » في الفسطاط الى أن يجرى البت في شأنه كما قرر له راتبا شهريا ضئيلا .. هذا يعني أن « الافضل » حدد إقامة الامام ، أو اعتقله — بالمفهوم الحديث — لعدة أشهر .

لكن الإمام الثائر .. لم يسكت على الاعتقال المقنع ، ولم يستكن .. فقد أضرب عن الطعام الذي يشترى بنفقة السلطان . وأمر خادمه أن يجمع له شيئا من « المباح في الأرض » ، وظل يتقوت به مدة ثلاثة أيام ..

وتقول المصادر .. إنه بعد صلاة مغرب اليوم الثالث ، وكان ذلك هو اليوم السابق لعيد الفطر ، قال الامام « الطرطوشي » لخادمه : « رميته الساعة » . وكان يقصد بذلك « الافضل » . وتضيف هذه المصادر ، أن « الافضل » مات بالفعل .

***

بوفاة « الأفضل » . كان خلاص « الطرطوشي » من المعتقل الاجباري في مسجد « الرصد » .. حين أفرج عنه الوزير « المأمون البطائحي » .

ويعود الى « الاسكندرية » ، ليستأنف جهده ، ويبدأ حياة الدرس والاقراء كما يبدأ في نفس الوقت بتأليف أشهر كتبه بعنوان « سراج الملوك » .. والذى جاء

حصيلة أحداث شاهدها وعايشها فى كل مكان ذهب اليه ، شاهدها وعايشها فى الاندلس فى شبابه ، وشاهدها وعايشها فى العراق والشام ومصر فى نضجه وكهولته .

وهذا الكتاب القيم ، قدمه « الطرطوشي » بعد أن انتهى منه للوزير « المامون البطائحي » الذى خلف « الافضل شاهنشاه » فى الوزارة ، حيث يقول فى تقدمته : « للاجل المامون ، تاج الخلافة ، عز الاسلام ، فخر الانام ، نظام الدين . خالصة المؤمنين .ابى عبد الله محمد الاموى »

وبعد أن اتم « الطرطوشي » نسخ كتابه ، حمله معه الى القاهرة ، وقدمه بنفسه الى الوزير ، الذى استقبله وأسبغ عليه احترامه وعطفه ورعايته .

والكتاب عن فن السياسة والحكم ، من وجهة نظر « الطرطوشي » .. العالم والفقيه والامام . والهدف من تقديمه للمامون البطائحي ، الذى اعجب به « الطرطوشي » .. لكى يعيد النظر فى اسلوب الحكم وتقاليده ..

ويقال ، إن « المامون البطائحي » استعمل مع الامام أسلوب الدهاء والسياسة وجلس بين يديه كالتلميذ .. بينما راح « الطرطوشي » يشرح له ، وينتقده ، ويتحدث معه شارحا وجهة نظره فى بعض المسائل والشئون المخالفة للشرع فى نظره ، والتى ضمنها كتابه .

وبعد شهرين قضاهما الامام « الطرطوشي »فى بلاط الوزير « البطائحي »يحضر جلساته مع وزرائه ورجال الدولة ... سافر الى الاسكندرية ، لكنهقبل السفر طلب من « البطائحي »أن يبنى مسجداً كبيراً « بالاسكندرية » . وقد وافق « البطائحي » على بنائه من ماله الخاص ، وفى فترة وجيزة . وقد بنى المسجد فعلا ، لكنه لا يوجد له أثر الآن فى الاسكندرية ، فى منطقة باب البحر التى قيل انه بنى فيها .

***

لكن ماذا .. فى هذا الكتاب ؟

فى مقدمة الكتاب يلخص الطرطوشي محتوياته ، فيقول :انه جمع فيه ما تنطوى عليه سير الأمم السابقة ، وبالأخص ملوك الطوائف وحكماء الدول .

وأنه وجد ذلك فى ست من الامم ، وهم : العرب ، والفرس . والروم . والهند . والسند . والسند هند . وأنه عمد فى ذلك الى استعراض ما القاه فى كتبهم من الحكم البالغة ، والسير المستحسنة .. بالاضافة الى ما رواه وجمعه من سير الانبياء ، وآثار

الاولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن الحكيم .

ويفتتح « الطرطوشي » كتابه عن الخصال التي يقوم عليها الملك ، والتي تؤدي الى هدمه ، وعن الخصال المحمودة في السلطان ، والتي تمكن له ملكه ، وتسبغ الكمال عليه ، ثم تلك التي توجب ذمه ، كما يتحدث عما يجب على الرعية اذا جنح السلطان الى الجور ، وعن صحبة السلطان وسيرته مع الجند ، وفي اقتضاء الجباية وانفاق الاموال .

اما عن الخصال المحمودة في السلطان ، فهي كما يراها الطرطوشي : العدل ، والتواضع ، والحزم ، والحذر ، والحلم ، ولين القول . ثم يتحدث « الطرطوشي »عن خير السلطان وشره ، كما يتحدث خلال ذلك عن العقل والدهاء والمكر ، والصفات البشرية من الحلم والجود والشح والبخل والصبر وكتمان السر والشكر . ويتحدث كذلك عن الظلم وسوء عواقبه ، وعن « السعايه » وقبحها ، وعن القصاص وحكمه .. ويقرن بذلك كله أخبار ملوك العجم ، ويورد خلال ذلك بعض الحكم المنثورة .. بالاضافة الى كلام منوع عن الملوك والانبياء والناس ، وعن الزهد والحكم والوصايا والعظات .

ويعقد « الطرطوشي »جزءا للوزراء وصفاتهم وآدابهم .

ويتحدث عن المشاورة والنصيحة .. وكونهما يعتبران من أسس الملك ، ومن هذا يبدو أن الطرطوشي كان يدعو للشورى ..

ثم يأتي الحديث عن قواعد السلطة ، ويؤيد ذلك بايراد الحكم والاخبار من أقوال الاسكندرية الاكبر ، وأردشير ، وانو شروان وبزر جمهر ..

ويعود للسلطان حيث يتحدث عن خصاله وسيرته مع الجند ، وتصرفاته نحو الاموال والجباية ، والاقطاع ، وسياسة السلطان نحو عماله ... ثم سياسة الخلافة مع الذميين ، وأحكام اهل الذمة ، والجزية وأحكامها ، والقضاة والعمال ، والحرب وتدبيرها . ثم يختتم الكتاب بالحديث عن أخبار ملوك العجم وحكم حكمائهم .

●●●

في كتاب « سراج الملوك » القيم .. واضح ان « الطرطوشي » قد حاول علاج ما اصطلح العلماء على تسميته بسياسة الملك ، او سياسة الملكية والسلطانية . وقد كان

الطرطوشي «واثقا من قيمة الكتاب ، حتى انه ذكر فى مقدمته أنه « كتاب لم تسبق الى مثله اقلام العلماء » .

لكن أستاذنا« محمد عبد الله عنان » ، يرى أنه مع قيمة هذا الكتاب فى وقته ، فإن موضوعه قد عالجه من قبل « الطرطوشي »أكثر من مفكر مسلم .. مثل « ابن قتيبه » المتوفى عام ٣٣٦ هـ فى كتابه« عيون الاخبار » . كما عالج هذا الموضوع أيضا جماعة « اخوان الصفا » فى أواسط القرن الرابع الهجرى فى بحوثهم المتعلقة بالسياسة . كما عالجه أيضا « ابو الحسن الماوردى » فى كتابه« الاحكام السلطانية » ، وفى رسالته عن « الوزارة وسياسة الملك » .

على أنه للحقيقة وللتاريخ ، ولكى لانظلم الامام ، فانه يمتاز على اسلافه بالتوسع والإفاضة ، وبأنه طرق بعض الأبواب التى لم تطرق من قبل .

والحقيقة ، فإن كتاب « سراج الملوك »يعتبر أكبر مؤلف من نوعه ، من حيث ضخامة مادته ، وتنوع موضوعاته وثرائها ، والصفة الدينية تغلب على أسلوب المؤلف ، وليست الصفة الفقهية .. التى تغلب مثلا على بحوث « الماوردى »فى أحكامه السلطانيه . كما أن « الطرطوشي » رغم قيمة الكتاب ينحو فيه نحو الوعظ ، ويتضمن كثيرا من الحكم والاحاديث والاقوال المأثورة .. كما أن الكتاب ينقصه الربط والتنظيم والتنسيق ، فهو يورد موضوعاته مستقلة متباعدة ، بحيث تغرق فيها ، وربما قد تختلط عليك الأمور .

ومع ذلك ، بل رغم ذلك ، فالامام « الطرطوشي » قد ذهب فى « سراج الملوك » الى آفاق جديدة ، لم يطرقها من سبقوه فى موضوع السياسة الملكية او السلطانية فهو قد حاول فى بعض نظراته أن يستقرىء أحداث عصره . وخواصه ، وأن يستخرج منها المبادىء الاجتماعية .. على غرار ما فعله « عبد الرحمن بن خلدون » من بعده ، حيث جعل من المجتمع كله ، ومن تاريخه .. مادة لتأملاته .

إن « ابن خلدون »يشهد له بذلك ، ويقول .. ان الطرطوشي كاد يطرق نفس موضوعه ، وانه قد « حوم » فى كتابه ـ سراج الملوك ـ وبوبه على ابواب تقترب من ابواب كتابه ومسائله لكنه ـ وكما يذكر إبن خلدون ـ « لم يصادف فيه الرمية ، ولا اصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا اوضح الادلة ، انما يبوب الباب للمسالة ، ثم يستكثر من الاحاديث والاثار وكانه حوم على الغرض ، ولم يصادفه ولا تحقق قصيده » .

إن الذى يقارن بين « ابن خلدون » والامام« الطرطوشي »فى « سراج الملوك » .. أن « ابن خلدون »قد عالج بعض الموضوعات فى مقدمته ، والتى عالجها قبله « الطرطوشي »فى كتابه ، مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب وعواقب الظلم ، واستظهار صاحب الدولة بالموالى والمصطفين ، وشئون الجباية والمكوس .. وغيرها ، ولكن « الطرطوشي »ينحى منحى آخر فى العرض ويختلف عن « ابن خلدون »حيث لا نجد فى « سراج الملوك »بلورة المذهب الاجتماعى المبتكر ، والذى يسيطر عليه ويتميز به .

ويبدو أن ذلك ، قد جاء من تأثر « الطرطوشي »فى عرض نظراته ـ الاجتماعية خصوصا ـ بما شاهده فى « الاندلس » .. وقد قضى شطراً من شبابه فى مملكة « سرقسطه »وهى إحدى دول الطوائف فى ظل « بنى هود »وشهد عن كثب أساليب ملوك الطوائف فى تدعيم سلطانهم ، وحشد جيوشهم وانفاق أموالهم .

على أنه من أبرز نظريات « الطرطوشي »فى ذلك أن قوة الدولة الحامية أو كما يقول عصبية الدولة ـ تقوم على الجند ، قبل المال ، وأنه يجب أن ينفق على الاستكثار من الجند ، وأن خير مايدعم هذه العصبية « هم الجند ، اهل العطاء المفروض مع الأهلة » .. أى الجند الذين يتناولون رواتبهم كل شهر .

ويعارض « ابن خلدون » هذه النظرة أو النظرية ، ويقول إنها لاتنطبق على الدولة فى أولها ، وانما « تنطبق على الدولة فى نهاية عهدها ، بعد التمهيد ، واستقرار الملك وإحكام الصبغة » .. « فالطرطوشي » قد أدرك « الدولة الهودية » ـ مملكة سرقسطة ـ عند هرمها ، ورجوعها « الى الاستظهار بالموالى والصنائع ، ثم الى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة »

والظاهر ـ كما يقول الأستاذ « عبد الله عنان » إن الطرطوشي قد تأثر تأثراً شديداً بما شهده من اعتماد « بنى هود » فى حماية ملكهم على الجند النصارى ، ولاسيما أيام السيد « الكمبيادور ، وسعيهم الى شراء هذه المعونة بالمال أينما استطاعوا ، منذ ابتداء دولتهم حتى نهايتها .. وقد كان ذلك فى نفس الوقت شأن ملوك الطوائف الآخرين ، والذين ظهروا عند اختلال الدولة الأموية فى الأندلس ، وانقراض عصبيتها من العنصر العربى .

و « للطرطوشي » نظرة او نظرية تقول ايضا : إن بيت رجال خير من بيت مال » . فقد كان يرى أن من أسباب ضعف المسلمين بالأندلس ، هو اهتمام ملوكهم

بجمع المال وعدم انفاقه على اعداد الجند .. « فالدفاع فى الرجال ، لا فى المال ، وإنما يدفع بالاموال بواسطة الرجال »

ولقد تأثر « الطرطوشي » فى هذه النظرة ، بما شهده من شدة أهتمام ملوك الطوائف بجمع الأموال من الرعايا ، وانفاقه قبل كل شيء على حياتهم المترفة وعلى قصورهم الفخمة ، وعلى اقتناء الغلمان والجوارى .. وإهمال قضية الأمن القومى ، والدفاع القومى بمفهوم العصر الحديث . ثم الاستعانة عند الضرورة بالمرتزقة من النصارى . وهؤلاء المرتزقة كانوا يحشدون فى غالب الأحيان لتحقيق الاعمال العدوانية ، ومباشرة الحروب الاهلية .. التى كان ينزلق اليها ملوك الطوائف باستمرار ، والتى كانت كذلك من أسباب ضعفهم كما يرى المؤرخون فى وجه العدو المشترك .. أسبانيا النصرانية ، ومحاولة التعاون على كبح جماحها ، وعدوانها وأطماعها فى انتزاع أرض المسلمين واستئصال عنصرهم .

***

وبالنسبة لانفاق المال العام ، فان « للطرطوشي » نظرية قيمة فى هذا الصدد حيث يعتبر انفاق المال العام فى سبيل العلم من « دعائم » الملك والدولةويورد الامام « الطرطوشي »قصة الوزير« نظام الملك »مع ملكه « ابى الفتح بن الب أرسلان » ملك الترك . فحين احتج الملك لضخامة ما ينفقه الوزير من أموال على دور العلم والعلماء وأهل الصلاح والفقراء ـ أى الصوفية ـ وأنه كان من الأفضل لو انفقت هذه الأموال على جيش يوجه لفتح القسطنطينية .. اجاب نظام الملك : بأنه ينفق هذه الأموال على « جيش » أيضا ولكنه « جيش الليل » . وأن هذا الجيش ، متى نامت جيوش الملك الحربية ، يقوم بين يدى ربه ، حيث يرسل جنود الليل دموعهم ، ويطلقون ألسنتهم بالدعاء للملك وجيشه النظامى . وأن الجيوش السلطانية ، إنما تعيش فى خفارة هذا الجيش الروحى ، وتبيت بدعائه ، وترزق وتنصر ببركاته .

ويقال إن السلطان « ابا الفتح » حين سمع ذلك الوزير بكى بكاء شديدا ، وطلب اليه أن يكثر من هذا الجيش الروحى ، جيش الليل .

***

و « للطرطوشي » نظرية شهيرة هى نظرية العدل ، التى يؤمن بها كعالم وكإمام ورجل مسلم ، فهو يقول فى « سراج الملوك » :

« بالحاكم العادل تصلح البلاد والعباد ، وبالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد .

وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر العدل فى رعيته فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا الحق فيما بينهم . واذا جار السلطان ، انتشر الجور وعم العباد ، فرقت أديانهم ، ثم فشت فيهم المعاصى ، وذهبت امانتهم فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل ، فرفعت منهم البركة . ونزل الوباء » .

كما يقول الامام « الطرطوشى » ايضا :

« ينبغى ان تعلم ان عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ، فاذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا .. واذا كان جائرا خربت الدنيا » .

* * *

والواقع ان الامام « الطرطوشى » .. فى حقيقة امره ، كان اماما مسلما مجتهدا وراشدا ..

على أن معظم ما قاله فى الاجتماع .. وان كان سباقا فيه ، فان الذى يأخذه عليه ناقدوه .. ان نظراته وتطبيقاته تقف عند احداث وطنه .. الاندلس ، وعند احداث ممالك الطوائف بالذات ، التى عاصرها فى أواخر عهدها ، والتى كانت مملكة سرقسطة وطنه الاصلى نموذجا بارزا من نماذجها .

* * *

يجمع المؤرخون والكتاب ، أن الإمام « الطرطوشى » قد بلغ فى عصره ، مرتبة الامامة كفقيه وعالم يرجع اليه فى الملمات .. ويدللون على ذلك ، بأن عاهل دولة المرابطين « يوسف بن تاشفين » قد طلب رأيه وفتواه ـ الى جانب الامام « الغزالى » ـ فى اخطر شئونه السياسية والعسكرية .. ومن ذلك مشروعه لخلع ملوك الطوائف ، وغزو ممالكهم ، باعتبارهم خارجين على احكام الشريعة الاسلامية ..

وقد ايد الامام « الطرطوشى » ما ارتآه « يوسف بن تاشفين » ، وأصدر فتوى بذلك ، وعلى أثرها ومن خلالها نفذ « ابن تاشفين » مشروعه بغزو ممالك الطوائف ، واستولى على الاندلس لضمها الى ملكه . وقال « الطرطوشى » : اذا عرض لك امران ، امر دنيا وامر اخرى ، فبادر بامر الاخرى ، يحصل لك امر الدنيا والاخرى معا .

* * *

لقد توفى الامام « الطرطوشى » فى الاسكندرية . فى السادس والعشرين من جمادى الاولى سنة ٥٢٠ هجرية « ١١٢٧ الميلادية » . فى التاسعة والستين من عمره . وقيل فى السبعين .. كما يرى ذلك صاحب « النجوم الزاهرة » .

ان حياة الاستقرار ــ بعد طول سفر وترحال فى عالم الاسلام ــ هيأت له فرصة الكتابة والتاليف فى جميع فروع العلم . فبالاضافة الى كتاباته فى « سراج الملوك » من علم السياسة وفن الحكم والمجتمع واحواله .. فان مؤلفاته قد بلغت ــ كما قيل ــ حوالى ٢٢ كتابا ، منها رسالته الى « ابن تاشفين » من شرعية غزو ملوك الطوائف . ثم كتاب قيم من خمسة اجزاء بعنوان « الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف » .. و « شرح لرسالة ابى زيد القيروانى » .. وكتاب « بر الوالدين » .. و « رسالة تحريم الغذاء على الصوفية » .. ورسالة اخرى فى « تحريم الجبن الرومى » .. و « كتاب الفتن » . وكتاب « الحوادث والبدع » .. و « معارضة احياء علوم الدين للغزالى » .

وفضلا عن ذلك ، فان كتبه ، خاصة « سراج الملوك » مملوءة بالشعر الصوفى الجيد . فقد كان الامام « الطرطوشى » شاعرا واديبا ، كما كان باحثا ومؤرخا .. ومن شعره الصوفى يقول :

اقلب طرفى فى السماء ترددا
لعلى ارى النجم الذى انت تنظر
واستعرض الركبان من كل وجهة
لعلى بمن شم عرفك اظفر
واستقبل الارواح عند هبوبها
لعل نسيم الريح عنك يخبر
والمح من القاه من غير حاجة
عسى لمحة من نور وجهك تسفر

بالاضافة الى ذلك فللإمام « الطرطوشى » الكثير من الشعر فى النقد الاجتماعى ، وهو شعر جيد استخدمه الامام المسلم سلاحا فى محاربة الفساد والرشوة .. ومن ذلك قوله :

اذا كنت فى حاجة مرسلا
وانت بانجازها مغرم
فارسل باكمه خلابة
به صمم اغطش ابكم

ودع عنك كل رسول سوى
رسول يقال له الدرهم

* * *

هذه هى حياة الامام « الطرطوشي » ، العالم المسلم الصوفى .. وهى حياة ثرية قلقة ، ثائرة فى سبيل الله ، وفى سبيل المثل العليا ..

« الطرطوشي » الذى قال للوزير : « ايها الامير ، إفتح الباب وسهل الحجاب وانصر المظلوم » .. « الطرطوشي » الذى كان « قوالا للحق مدافعا عنه » .. ولا يخاف فى الله لومة لائم .

لقد ربى مدرسة .. وتلاميذه كانوا اعلاما من بعده ، ومنهم سيدى « سند بن عنان بن ابراهيم » الذى تولى مهمة التدريس من بعد موت استاذه .. وسيدى « ابى الطاهر بن عوف » الذى صار شيخا للمالكية فى القرن السادس الهجرى .. والذى يصل نسبه الى « عبد الله بن عوف » الصحابى الجليل .

ومن تلامذته ايضا « المهدى بن تومرت » فى المغرب العربى ، و« ابوبكر ابن العربى » فى بيت المقدس ، والشيخ « عبد الله السائح » فى جبل لبنان . لقد صدق ابن فرجون حين وصف الطرطوشي بقوله :

« الذى عند ابى بكر الطرطوشي من العلم هو الذى عند الناس .. والذى عنده مما ليس عند غيره دينه » .

* * *

لكن نصير المظلومين .. ظل هو مظلوما .. ومن بين من ظلمه نحن المفكرين فان اعمال « الطرطوشي » التى كتبها غائبة عن المكتبة العربية ، اللهم الا كتابه « سراج الملوك » .. لم نتعب انفسنا فى البحث عنها وجمعها واعادة طبعها . كما أن وزارة الاوقاف فى مصر ظلمت « الطرطوشي » ايضا ..

مسجد « الطرطوشي » بدون قبة أو مئذنة ، وهو لا يليق بعالم صوفى مسلم ملأ الدنيا فى حياته وشغل الناس .. الحكام قبل الرعية ..

وسيدى « الطرطوشي » مدفون فى مقبرة .. وحوله مجموعة من أولياء الله الصالحين .. ومنهم سيدى محمد العقباوى ، وسيدى محمد الاسعد ، وغيرهما كثير . مما

تدل عليه تلك الشواهد الرخامية ، المكتوبة بالخط الكوفي ، والتى تحتاج لمن يزيل عنها النقاب ويقرأ سطورها وكلماتها ليبرزها .

وضريح « الطرطوشي » من الصعب ان تجده في « الاسكندرية » الا بعد عناء وطول سؤال .. متعب في البحث والوصول اليه .. وهو في باب الكراسته بمنطقة الجمرك .. وليس في الضريح من القديم سوى عمودين من الطراز الكورينثي ، ومقصورة خشبية .. كما انه ليس على الضريح كسوة كما هي الحال في اضرحة اولياء الله الصالحين .

والمسجد والضريح في حارة مسدودة جانبية وقد اغلق لانه آيل للسقوط كما هو واضح في ملفه .. ولكنه يفتح بين الفينة والأخرى .

يقول على باشا مبارك : إنه كان بالاسكندرية ٤٩ جامعا ، ومن الزوايا ٩٧ زاوية ، منها ما فيه ضريح ولى ، ومنها ما هو خال من ذلك .. كان هذا في عصر « على مبارك » ، حينما الف « الخطط التوفيقية » في القرن التاسع عشر ..

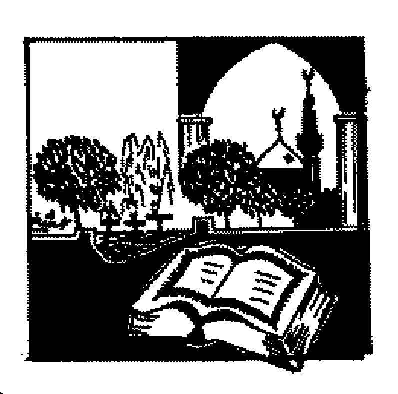
ويصف صاحب الخطط مسجد « الطرطوشي » ، بانه « كان متخربا ، فاصلحه المرحوم السيد ابراهيم موروسنة ١٢٧٠ هـ . وقد تممت اصلاحه المرحومة والدة الجناب الخديو ، وهو الآن تقام فيه الشعائر » ..

لكن يبدو انه بعد ذلك نسي الناس انه كان هناك في الاسكندرية مسجد « للطرطوشي » .. الرجل الذى دافع عن المظلومين !

أعلام
التصوف
الاسلامى

سيدى محمد القبارى

فلسفة الحلال والحرام
من داخل بستان



●● هذا الولى الزاهد ، من أولياء الله الصالحين .. من المفيد جدا ان نلقى بعض الاضواء على حياته الثرية البسيطة .. فى هذا العصر الذى نعيش نحن فيه الان .. وهو عصر تحولات كبرى فى حياة المؤمنين الصالحين ..

فعصر ولى الله القبارى ، يتشابه الى حد كبير مع عصرنا نحن .. حيث القابض على دينه مثل القابض على جمرة من نار . هو عصر الحروب والأزمات .

وفى عصر القبارى ، الذى شهد جانبا من حكم دولة الايوبيين وجانبا آخر من حكم دولة المماليك .. اجتاحت مصر المحروسة بعناية الله اعاصير وكوارث وحروب ، وتكالب عليها جند التتار والصليبيين ، وتفشت فيها الاوبئة .. لكن مصر خرجت منصورة على اعدائها .. كما خرجت مصر والعرب منصورة فى رمضان ١٣٩٣ الهجرى « ١٩٧٣ الميلادى » .

ان القبارى عاش فى ذلك العصر نموذجا للمسلم ، الذى لا تهز كيانه الازمات .. عاش بالايمان والزهد .. ماذا يفعل المسلم عند الكوارث والازمات ، وكيف يتصرف مع نفسه ومع الناس ؟

رغم ان الباحثين والكتاب .. وأرباب البحوث مازالوا يختلفون على تفسير اسم « القبارى » .. او « الكبارى » .. كما قد يسمى هل هذا من الثمار أم القبر .. فإن حى « القبارى » فى « الاسكندرية » ، الذى بقى يحمل هذا الاسم منذ قرن ظل حيا روحانيا .. تموج فيه الحياة والناس تبركا بولى الله الزاهد العابد .. الذى أنشأ هذا الحى من صحراء وجفاف .. حتى انه لزمن قصير كان حى تجارة الصادرات من زراعة مصر .

فبعد منتصف القرن التاسع عشر ـ كما يذكر « على باشا مبارك » فى خططه ، بدأت المنطقة المحيطة بقبة سيدى « محمد القبارى » تعمر ، وتنمو .. حتى امتد العمار من « مريوط » إلى ساحل البحر . ومن خلال هذا العمار اسست فى المنطقة أكبر محطة للسكك الحديدية فى الاسكندرية ، كما أنشئت فيها أول وأقدم مدرسة للمعلمات ، وكانت أول ناظرة لها الرائدة « نبوية موسى » .. يضاف إلى ذلك ، ان المنطقة شهدت أقدم مجزر فى الاسكندرية وأقدم المستشفيات الحديثة ، التى اقيمت فى مكان

كان اسطبلا لخيول « سعيد باشا » ... ثم إن منطقة « مينا البصل » كانت من معالم حى « القبارى » .. الذى يحمل اسم هذا الولى الكبير .

وقبل عام ١٨٤٨ .. الذى بدأت تعمر فيه منطقة « القبارى » ، كما يرى « على باشا مبارك» .. ظلت البقعة منذ حياة « القبارى » بساتين مزروعة وخضرة وارفة الظلال .

ولقد بدأها ولى الله « القبارى » ، منذ ٨٠٠ ، وبدأ يعمل فيها ، فحلت البركة . ولقد بدأت تنمو فلسفته مع نضج ثمار بستانه أو « غيطه » .. بنخيله وزراعاته .. بحيث شاهد « غيط » « القبارى » حياة ثرية وخصبة لنموذج انسان مسلم ، توفر على عبادة الله ، وتهجد فى مرضاته .. فكان له الفلاح .

ونقول « بستان القبارى » .. أو « غيطه » لأنه كان له دور كبير فى حياة هذا الولى الزاهد العابد .. فإن حياته كلها دارت ملامحها حول هذا البستان . لقد ملك عليه هذا البستان نفسه وتصرفاته ، وكان مصدرا لأفكاره وتشبيهاته ، والمحور الاساسى لأحاديثه ، والحكم التى نطق بها .. وفلسفته .. حتى أن « القبارى » قلما كانت تخلو عباراته من محتويات البستان .. نخلة أو دابة ، أو زهرة ، أو سقاية .. أو .. .

* * *

اسم ولى الله الزاهد المتصوف ، والذى أجمعت عليه المصادر ، هو أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى القبارى .. أو « الكبارى » كما هو مكتوب على كسوة ضريحه . وهو سكندرى ، أى من مواليد الاسكندرية ، عاش فيها أجداده كما كان مالكى المذهب . وهو كما حقق الاستاذ محمد محمود زيتون فى كتابه بعنوان « القبارى زاهد الاسكندرية » من أجداد سكندريين لكن من اين جاءت تسمية « القبارى » ؟!

يقول محمد زيتون : أما القبارى ، فلم نسمع من قبله أو من بعده ، أحدا من أرباب الثقافة قد تسمى بهذا الاسم ، لاف مصر ولا فى غيرها . فهو المتفرد بهذه التسمية دون سواه . ومن العجب أن ابن المنير صاحب ترجمة القبارى ، قد ذكره فقال له « الكبارى » بالكاف دون القاف . وفى موضع آخر يقول صاحب الترجمة عن القبارى ، انه كا يقول على سبيل المباسطة : ابتليت ببضاعة لها زبون واحد ، يشير الى « الكبار » .. لانه كان لا يعامل أهله ، وكانوا عددا قليلا ، وكان يختار واحدا منهم لمعاملته ، ويجعله سمسار نفسه ، ويعطيه أجرة السمسرة ، ويسامحه فى الثمن عند الوزن على عادته ، ويقول : هذه صدقات مستترة .

واسم « القبارى » كما يقول « رمضان حلاوة » ، اورده صاحب القاموس فى القاف ، ولم يبين نسبه ، وكذا الشمنى فى الكاف ايضا » .

وأغلب الظن أن « القبارى » نسبة إلى القبار ، وهو ثمرة كانت تعرف فى عصر « القبارى » حتى لقد ورد اسمها مرارا فى « ابن المنير » ، إذ يقول عن شيخه القبارى .. « وذلك انه انقطع .. باع الدابة التى من شانه قنيتها ، وضم ثمنها الى ثمن ثمرة القبار ، ففاق ذلك على ثمانمائة درهم فزكاها » .

ومما يذكر أن الدكتور « بوتى » أمين المتحف اليونانى الرومانى السابق بالاسكندرية ، حاول أن يجد علاقة بين « القبارى » و « القبور » ، فلم يصل الى شىء ذى بال .

ويقول « محمد محمود زيتون » إنه خلال تأليفه كتابه عن « القبارى » ، عثر على أحد اجداد هذا الولى عند السلفى فى معجمه .. واطلع على سيرته وخصاله .. حيث كان من أهل الورع ، وكان لا يشرب اللبن ، ولا ياكل الجبن ولا من اللحم الا الطير الذى يصطاده بنفسه ، يأكل من « القبار » المباح . وأن هذه الخصال انتقلت الى الامام القبارى بالوراثة ، وزاد عليها الامام فضيلة الاحتياط والتحرز فى طلب الحلال .. ويتأكد ذلك إذا عرف أنه كان فى « الاسكندرية » من المعاصرين « للقبارى » ، جده الاعلى ، وكان زاهدا كبيرا هو « عليان الزغبى العامرى » المتوفى عام ٥١٤ هـ وله مواقف مشابهة للإمام « القبارى » فى الحلال والحرام .

ولقد ولد « القبارى » ، كما يقول تلميذه « ابن المنير » عام ٥٨٧ الهجرى ، وتوفى فى السادس من شعبان سنة ٦٦٢ هجرية .. كما أكد ذلك « أبو شامه » فى كتابه « الذيل على الروضتين فى أخبار الدولتين » .. حين أخبره بذلك الشيخ القاضى « عبد الجليل بن خليل » ، الذى يبدو أنه عاصر فترة موت « القبارى » وهذا يعنى أن ولى الله « القبارى » عاش حوالى ٧٥ عاما .. لكنه على أية حال بحياته الثرية الخصبة ، وبورعه وزهده وتقواه سيظل يعيش فى الوجدان المؤمن نموذجا يحتذى .. إلى أن يرث الله الارض ومن عليها .. بعد أن سلكه بعض مؤرخى التصوف فى تراجمهم .

وحين نقول إن « القبارى » ، وقد ولد فى نهاية القرن السادس الهجرى ، فلقد طلع القرن السابع الهجرى على « القبارى » وهو صبى لاتزيد سنه على الثالثة عشرة .

وهو بذلك قد ولد قبل وفاة « صلاح الدين الايوبي » بعامين اثنين .. ليظل « القباري » علما من اعلام القرن السابع الهجري ، الحافل بجلائل الأعمال .

وحول وفاة هذا الولي الكبير ، يقول ابن عزم في مخطوطه « دستور الاعلام بمعارف الأعلام » عن سيدي محمد القباري : « هو مدفون بظاهر الاسكندرية مشهور ، مقامه يقصد للبركات » .. وهذا يعني ان الالوف الكثيرة التي تزور ضريح « القباري » ، وتحتفل بمولده كل عام في شهر شعبان .. تاتي وفي وجدانها أن هذا المكان مبارك بإذن الله .. لأن المدفون فيه كانت حياته جهاداً ، وكان سلوكه مراعاة لشرع الله .. وكان علما من الأعلام السكندريين معاصرا لكثير من علماء الاسلام الذين شاهدهم تاريخ هذا الثغر ومنهم ابن المنير تلميذه والامام الشاطبي الاندلسي ، وابن الحاجب ، وابو شامه ، والعز بن عبد السلام والإمام الشاذلي ، والإمام ابو العباس المرسي ، وسبط بن الجوزي ، ومنصور بن سليم الهمذاني محتسب الاسكندرية ومؤرخها الشهير .

يقول اليافعي صاحب « مراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان » : وفيها .. اي الإسكندرية .. توفي القباري ، أبو القاسم بن محمد المنصور الاسكندراني » . كما يقول سبط بن الجوزي في « صفوة الصفوة » عندما زار الاسكندرية عام ٦٤١ الهجري ، في عهد سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين بن ايوب : الاسكندرية معمرة بالأولياء ، كالشيخ محمد القباري والشاطبي وابن أبي شامة » .. و « ابو شامة » هذا المؤرخ الدمشقي ، هو صاحب « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » كما ذكرنا ، وكان قد زار الاسكندرية ، وقابل سيدي « محمد القباري » ، وكتب عنه في كتابه « الذيل على الروضتين » .

والواقع أنه رغم أن سيدي « محمد القباري » شاهد الكثير من اعلام عصره الذين وقفوا بباب بستانه ، كما أن عصره حفل بالكثير من الاحداث .. فإنه للأسف لم يكتب عنه الكثير ، مما يلقي بالأضواء الكاشفة على دقائق حياته .. سوى شذرات قليلة في كتب معاصريه ، أو من جاء بعدهم ، واهتموا بتاريخ وسير أولياء الله في الإسكندرية .

ولقد كان من الممكن أن يظل سيدي « محمد القباري » مشهدا وضريحا ومسجدا يزار بالوراثة .. دون أن يعرف عنه الكثير .. لولا أن تلميذه المخلص ، الذي

عايشه طويلا .. « ناصر الدين بن المنير » ، قاضي الاسكندرية قد وضع عنه كتابا وحيدا سماه « هذا كتاب مقامات سيدى ابو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى الاسكندرى المعروف بالقبارى المتوفى فى شعبان سنة ٦٦٢ هجرية » .. لكن هذا الكتاب لم يتم العثور عليه حتى الآن .. وقد شاءت العناية الإلهية أن يقوم « احمد بن عبد الكريم حمزة » باختصار كتاب « ناصر الدين بن المنير » على أن ملخص ابن حمزة لم يكن يفى بالغرض ، فلقد ختمه بقوله : « هذا ما امكننى نسخه ونقله من النسخة التى وصلت إلى ، وذلك فى حادى عشر شوال عام ثمنية وثلاثمائة والف ، وإن يسر لى المولى الحصول على نسخة صحيحة انقلها بالتمام والحمد لله على كل حال .. » وهذا الملخص قد قام بنسخه « حسين بن محمد بن رجب احمد بن السكندرى المالكى » . وهذا الملخص ينتهى بقصيدتين للشيخ عبد الغنى النابلسى فى التصوف والعشق الالهى ، رغم أنهما ليس فيهما ذكر « للقبارى » ، وان كانا يدلان على تصوف « القبارى » . ومطلع القصيدة الأولى :

وجـــود كونـــى مـــن تجلـــى الجـــواد
هـــذا عطـــاء مـــا لـــه مـــن نفـــاد

والقصيدة الاخرى مطلعها :

مـــا الغيـــر الا بابـــه المغلـــق
وكلنـــــــا مفعـــــــوله المطلـــــــق

وهذه المخطوطة التى توجد فى مكتبة الاسكندرية كذلك تبدأ بالآتى :

« الحمد لله الولى الحميد ، المبدىء المعيد .. الفعال لما يريد » ..

وبعد فيقول الفقير الى ذى العظمة والعزة أحمد بن حسن بن عبد الكريم حمزة الشاذلى السكندرى ، وقاه الله من كل باغ ومفتر : قد كلفت قبل التكليف بحب الصالحين ، وشغفت من حين انشئت بالبحث عن أخبار المتقدمين ، سيما من توارت شموس جمالهم بثرى الاسكندرية . وكان اكثر ما يجول بافكارى الوقوف على اخبار سيدى أبى القاسم منصور القبارى . لأنه القى حبه فى قلبى ، وفى اغلب الأوقات أزوره وأتوسل به الى ربه وربى .. »

على أن الجدير بالذكر ، أن المخطوط الاصلى « لابن المنير » ، الذى وصلنا ملخصه يأتى على أنه « مقامات » .. وكلمة « مقامات » تلفت المهتمين بالتصوف والمتصوفة ، فهى أحد مصطلحاتهم ، إذ لكل قطب من اقطاب الصوفية أحوال

ومقامات عرف بها .. والمقامات على العموم عند الصوفية ، هى الفضائل المكتسبة التى ينتهى اليها صاحبها بعد ممارسة ومجاهدة للنفس ، وقد تصل به هذه الفضائل الى حد كبير من الرضا عن الله ، فيكون عند حال « كن » .. أى كلما طلب شيئا من ربه استجاب له ، وذلك مما يوحى به الحديث القدسى عن رب العالمين « عبدى اطعنى اجعلك ربانيا ، تقول للشىء كن فيكون »

ومن هنا وكما يقول الاستاذ « زيتون » يتبين للقارىء ، أن القاضى ابن المنير حين سمى كتابه بالمقامات .. كان موفقا فى اختياره . وهى كلمة لها دلالتها وأحقيتها .. رغم أن ماعند القبارى ، ليس هو الذى عند الحلاج مثلا ، أو رابعة العدوية ، أو محيى الدين بن عربى ، أو ابن الفارض ، أو التسترى .. وهو من غلاة الصوفية .. وممن وضعت عنهم المؤلفات لتفسير مضامين ماورد عنهم .

***

كان سيدى « محمد القبارى » رضى الله عنه وأرضاه ، صالحا قانتا ، منقطع القرين فى الورع . وكان له بستان يعمله ويتبلغ منه ، وله ترجمة مفردة جمعها « ناصر الدين بن المنير » .. هكذا قال عنه صاحب « شذرات الذهب » . وفى « تاج العروس » للشيخ « عبد الرحمن الجبرتى » وصف « القبارى » بانه « كان زاهد الاسكندرية وامامها »

وزاهد الاسكندرية ، الإمام « القبارى » ، وصفه « ابن كثير » فى « البداية والنهاية » بانه كان يامر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويردع الولاة عن الظلم ، فيسمعون منه ويطيعونه لزهده » بل ان الامام « المناوى » فى « الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية » ، يصف القبارى بقوله : « زاهد اخلص فى العمل ، واجتهد فى قطع الامل ، ومال الى العزلة ، واستعد للرحلة . كان كثير الورع والخضوع ، غزير الاخبات والخشوع ، مبارك الطلعة ، مشهود الذكر بين الصوفية .. يامر بالمعروف واقتفاء اثاره ، وله بستان يقتات منه ويطعم الناس من ثماره » .

والحقيقة هنا .. ان الامام « المناوى » ، حين يصف الامام « القبارى » بانه كان مشهود الذكر بين الصوفية .. هنا تطرأ الكثير من علامات الاستفهام .. امام من تناولوا سيرته . فالمشهور عن « القبارى » ، انه لم يعرف انه صاحب طريقة .. وان كان له الكثير من المريدين .. وكيف يكون « القبارى » صاحب طريقة وهو من سيرة

حياته كان يتفادى الناس .. وقد عاش فى عصره الامام « ابو الحسن الشاذلى » وتلميذه « ابو العباس المرسى » .. ولو كانت « للقبارى » طريقة ما اغفلها الناس ، وذكرت عند مؤرخى التصوف ـ ولربما كانت قد حدثت بين طريقة « القبارى » و« الشاذلية » محاورات .

ان « القبارى » كما يتضح من سيرته ، كان رجلا مؤمنا ، شديد الايمان وكان عابدا زاهدا .. حتى ان « ابن عزم » فى القرن التاسع الهجرى ، يصفه بأنه « الامام الربانى الاوحد ، شيخ الوقت زهدا وصلاحا » .. كان « القبارى » بحق ، واحدا من اهل الله ، لا افراط ولاتفريط .. وخير الامور عنده الوسط وكان نسيجا وحده .. أو دنيا وحدها من الزهد والعفة وعزة النفس بعزة الايمان ..

وكما كان « القبارى » مثله الزهد والورع .. كان ايضا يعرفه علماء مصر الكبار ويقدرونه ويجلونه .. ومن هؤلاء بالطبع شيخ الاسلام « العز بن عبد السلام » وشيخ الاسلام ، معاصره ، « ابن دقيق العيد » .. وغيرهما ... هؤلاء كانوا معجبين بسيرته واخباره ، يتحدثون عن بركاته . وعن مواقفه المشهورة مع السلاطين والامراء وولاتهم على الاسكندرية . بل ان اهل « دمشق » كانو يعرفون « القبارى » وكانت « مصر » و « الشام » دولة واحدة . والدليل على ذلك ان « ابا شامه » ، يذكر ان خطيب جامع دمشق صلى على القبارى صلاة الجنازة ، عقيب صلاة الجمعة يوم ٧ من رمضان سنة ٦٦٢ هجرية » .. اى بعد وفاة « القبارى » بشهر .. لانه ـ والكلام لابى شامه ـ « شيخ مشهور بالورع والزهد بالاسكندرية ، وكان يخدم بستانه بنفسه » .

ويروى « ابو شامه » أيضا ان احد الامراء الذين تولوا الاسكندرية اثناء حياة « القبارى » ، حرص على لقاء هذا الولى ، ثانى يوم توليه المنصب .. وحين عاد الامير الى « دمشق » كان يحكى لاهل الشام مارآه وسمعه عن « القبارى » .

ويعلق « محمد محمود زيتون » على ذلك بقوله : رجل كالقبارى يموت بالاسكندرية ويصلون عليه بدمشق . ويتحدث الامراء والولاة عنه فى مصر والشام ، إعجابا وتعجبا من احواله ، ولاشك انه كان من العظمة وبعد الصيت ، بحيث كان معروفا لدى اهل الشام عامة ، والعلماء منهم بخاصة . ثم يذكره باهتمام مؤرخان كبيران مثل ابى شامه وابن اصل .. اللذين عنيا بتاريخ الدولة الايوبية بالذات فى مصر والشام .. فلاشك انه كان كبيرا .

* * *

إن ولى الله سيدى « محمد القبارى » .. عاش فى بستانه ، بعيدا عن الناس بقدر مايستطيع ، يتأمل ، يفلسف امور دنياه ، ويفلسف سلوك الناس لم يتزوج ، لكنه عاش وحيدا ..

إنقطع فى بستانه فى حى الرمل ، شرقى الاسكندرية .. ولما كثر الناس فى تلك المنطقة التى كانت مهجورة ، وزاد عدد الاجانب فيها .. ترك هذا البستان الموروث وذهب الى جهة غربى المدينة ، الى قصر اثرى متهدم .. أودير .. يرجح انه كان من آثار العصر البطلمى .. حيث أنشأ من حوله بستانا ، هو الذى تسمى باسم « غيط القبارى » . وقد عاش فى هذا البستان الغربى عمره ، عاملا كادحا ، يكسب قوته من عرقه . ولايستغل جهد أحد .

لكن كيف ولماذا كانت نقلة « القبارى » من أرضه الموروثة ، من بستان الاجداد الى بستان جديد ، قام هو بزرع كل عود اخضر فيه بنفسه وجهده .. رغم ماكان يعانيه من بعض الآلام فى المفاصل التى لحقت به إيذانا بالشيخوخة ؟

هجر الامام « القبارى » ، بستان الرمل او غيط الرمل هربا من مناظر الفتنة ، الى مكان بعيد عن الشبهة . وكانت هجرته للبستان الشرقى عام ٦٢٧ الهجرى . فى هذا الوقت كانت العلاقات قد بدأت تتوثق بين ميناء « الاسكندرية » وميناء « جنوة » فى « البندقية » ، وبدأ الافرنج يتوافدون على « الاسكندرية » للتجارة ، وللمقام بها . هنا ، كما يقول سيدى « القبارى » : « وزنت الاحوال بميزان الاعتبار . فوجدتها لاتصبح الا بالعزلة » ومن الجدير بالذكر ، أن عدد الأفرنج فى المدينة ، كما يقول « كما يقول « المقريزى » ، قد تجاوز ثلاثة آلاف نسمة .

لقد ترفع الامام « القبارى » عن الدنيا ليجاهد هو نفسه اولا بالعكوف على العبادة الخالصة لله رب العالمين .. وليجاهد الاخرين ماوسعه جهد المجاهدة ..

فى البستان الجديد ، حاول ان يعيش حياة ، ليس فيها من الشك شىء .. أو هو حاول ان يعيش حياة اليقين فى كل شىء ان صح هذا التعبير .. ونقول أيضا كان سيدى « القبارى » شديد الشك فى كل شىء قد يشوبه ، أو يحتمل أن يشوبه شبهة حرام ، أو لمسة حرام مما يغضب الله جلّ جلاله . وهكذا عاش هذا الامام ، فى تلك البقعة الوحيدة المقفرة المنعزلة عن الناس . « مع الاختلاف فى الاوقات وترادف السنوات ، وهو مصون .. الى ان لقى الله محروسا بعين عنايته .. » .. والكلام « لابن المنير » .

لقد كان « القباري » يخاف الحرام في كل شيء ، ويبني فلسفته ، على اصول اقتنع هو بها ، فكان يقول : « قليل العبادة مع القوت الحلال انفع للعبد من كثير العبادة مع القوت الحرام ، وطلب الحلال هو الجهاد » .

وهكذا يظل « القباري » حتى آخر شهقة في حياته يجاهد من أجل الحلال ..
وفي هذا الصدد يحكي عن سيدي « القباري » انه كان يحصد الشعير يوما في بستانه ، والوقت نهار والشمس ساطعة . فأخذ يحصد صفا ، ويترك آخر بلا حصاد . وحينما سئل عن سبب ذلك ، قال : ان ظلال نخيل الجار ممتدة في هذا الوقت ، فانا اتحرى الا استظل بظله ، فاذا تحول الظل من هذه المواضع ، رجعت فحصدتها » .. اى ان ظلال نخيل جاره كانت تقع على بعض الشعير .. فخاف ان يحصده ويستغل ظل نخيل جاره الذى لم يستأذنه قبل .

ويعلق مؤلف كتاب « القباري ، زاهد الاسكندرية » على ذلك بقوله : ان القباري في ذلك اتبع الشرع بحرفية ، وقد ذكر أن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ، قال للرسول صلى الله عليه وسلم : « يارسول الله : ادع الله ان يجعلني مستجاب الدعوة » فقال النبي عليه الصلاة والسلم : « ياسعد اطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، ان العبد ليقذف باللقمة الحرام الى جوفه ، مايتقبل منه عمل اربعين يوما ، وايما عبد نبت لحمه من سحت ، فالنار اولى به »

وحول الظلال والاستظلال ايضا .. يقال ان سيدى « القباري » . بلغ من حرصه في البحث عن الحلال ، والبعد عن الحرام .. انه كان اذا ذهب لصلاة الجمعة يتخير مكانه في صحن المسجد مما يلي السقف ، ابتعادا عن ظل هذا السقف .. فلربما بنى هذا المسجد بأيد لم تتحرز من حرام . ولقد سمع أحدهم في جامع « الدوانيقي » « العطارين » يتحدث في الناس عن الورع وهو تحت سقف الجامع ، فقال معلقا : اما يستحي ، يتكلم في الورع ، وهو بجامع الدوانيقي تحت السقف » ؟!

بل ان سيدى « القباري » ـ رحمة الله ـ كان اذا ما السماء امطرت في الاسكندرية وهو سائر في الطريق .. يسرع بقدر الامكان ، خوفا في شبهة الحرام اذا ظل بسقيفة غيره ، دون ان يسمح له بذلك .

ويقول « ابو شامه » ، مدللا على صدق « القباري » مع نفسه ومع الناس « بلغني انه كان إذا راى ثمرة ساقطة فيه ـ اى في بستانه ـ تحت اشجاره ، ولا

يشاهد سقوطها من شجره ، يتورع من اكلها ، خوفا من ان تكون من شجرة غيره ، قد حملها طائر ، فسقطت منه فى غيطه » .

والواقع ، فان السبب المباشر ـ من بين اسباب ذكرناها ـ فى هجرة بستان الرمل ، ان « **القباري** » حين راى الناس يبيعون الاعناب لغير المسلمين ، الذين بدأوا يصنعون منها الخمور .. قرر البدء بنفسه هو . فكما هجر بستان الرمل ، قطع عروق العنب من البستان قبل هجرته . وقد كان « **القباري** » يزرع العنب فى بستانه ليأكله ، لا ليبيعه . وقال « **القباري** » فى ذلك : « **وعقدت على الا انشيه زرجونا ، فوجدت الراحة بعده ، وعوضنى الله عن تلك الثمار بالشعير والفول** »

ويقولون ان «**القباري** » كذلك سخط ، وهو فى غيط الرمل على سلطان مصر حين قام بتطهير خليج الاسكندرية ، لانه سخر الناس فيه . وانه قال فى ذلك الوقت مهددا « **ان اعسفوا الناس ـ اى سخروهم .. فى عمله مرة اخرى تركت لهم مصر . فما لى فيها سوى هذه القطرة من الماء ، فلا اقل من ان تكون نظيفة بعض النظافة** » . وكان خليج الاسكندرية قد جرى تطهيره عام ٦٤٦ هجرية ، فى عهد الملك « **الصالح نجم الدين ايوب** » ، كما يقول الدكتور « **على ابراهيم حسن** » فى كتابه « **مصر فى العصور الوسطى** » . ولذلك فان « **القباري** » اصر فى هذه السنة على عدم تدوير الساقية فى بستان الرمل ، وذهب الى بستانه فى الغرب ـ المباح ـ وحفر بئرا يشرب منها ويروى منها زرعه .. لانه كما يقول : « **اوثر الوحدة فى الحياة وبعد الممات** » .. و« **طلب الحلال جهاد** » .

ولذلك فقد كان « **القباري** » اذا خرج للخليج ومعه دابته يتحرج من الصيد والشرب ، ومن سقى دابته .. ويعمد الى مكان ليس فيه للخليج جسر مبنى ، حتى لايكون قد سخر الناس فى بنائه .

على أن « **القباري** » من حرصه على البحث عن الحلال .. انه عندما كان يخرج لبعض شأنه شاريا أو بائعا فى سوق المدينة ومعه دابته ، يلتف حوله الناس بدافع حب الاستطلاع ليروه ويسمعوه .. لأن صيته كان قد ذاع فى المدينة . فكان « **القباري** » يبتسم لهم ، ويرجوهم بأدب أن يتفرقوا ، **ويقول لهم : « اخشى من انشغالى بحضوركم ان اغلط فى حسابى او اخل بشرط لا القى فيه بالى** » .

حتى بالنسبة للطير فقد كان الإمام « **القباري** » يتعامل معه شرعا وحلالا . فكما كان « **القباري** » يتصدق على الناس ، كان أيضا يتصدق على الطير . ويقال إنه كان

على بعض حدود بستانه نخلة عالية ، لم تمتد يده الى ثمارها قط . وانما ترك ثمارها للطير ، يأكل منها كما يشاء .. لأنه ، من وجهة نظر الإمام « القبارى » .. « كما اباح الله للطير أموال الناس ، اباح للناس دمه » .

ولم يكن « القبارى » يأكل الطير مسموطا ، وانما كان ينتف ريشه نتفا ، لأن السمط يجمد الدم في لحم الطير ، فلا يزول منه إذا طبخه .

ويحكى أن « القبارى » ظل يأكل الفول أربعين سنة ، وكانت الناس تطلبه منه على سبيل البركة ، فيعطيهم منه ماتيسر .. فكانوا يضعونه فى أمتعتهم وكانوا ينسجون حول حبات الفول نوادر وقصصا وروايات عجيبة .. وقد كان من النادر أن يخلو صندوق تاجر من حبات الفول .. لكن « القبارى » حين وجد الناس يسيئون الفهم .. ترك الفول وزراعته ، وصار يزرع الشعير ويقتات منه .

إن « القبارى » فى الحقيقة ، كان يقول : « المباشرة يقين ، والاستنابة ظن واليقين أحب إلى من الظن » .. وكانت هذه هي جوهر فلسفة هذا الولى الزاهد العابد .. فى البحث عن كل ماهو حلال .

***

عاش الامام « القبارى » ، فاقدا حواسه الثلاث .. الشم ، والسمع ، والتذوق .. لكنه رغم ذلك عاش سلطانا فى الزهد ..

يقول عنه تلميذه « ابن المنير » ، الذى صاحبه عشرين عاما :

« عاش صابرا لأمر الله ، راضيا بقدره . وكان رحمه الله قد جمل عنه الشم ، فلا يشم طيبا ولا رديئا . وبهذا ، والله أعلم ، استعان على شظف العيش . وكان يكتم هذا من نفسه ، وما أظهره لى قط . ولكن فهمته من قرائن احواله . وأخبرنى بعض من باطنه فى الخدمة . فكانت الطعوم اذا حملت اليه ، وحملت عنه لايفرق بينها .. ولهذا كان يقسم بالله أنه لا يأكل بشهوة منذ زمن طويل ، ولا يأكل الا سدا للخلة - أى الحاجة - لاغير » .

ولم تكن « للقبارى » مائدة للطعام .. كان يأكل من قصعة ، ويجد الرضا اذا ما أكل الطعام الخفيف الذى لا إسراف فيه ولاترف ، حتى لقد كان يتبسط مع تلميذه

« ابن المنير » ويقول له : « اكلت البارحة لونا غريبا » . فيساله التلميذ عن هذا اللون من الطعام ، فيقول : « صببت فى القصعة من الابريق ماء قراحا ووضعت فيه الكسر ، وماكان هذا اللون الا الطف من الالوان البلدية وانقى » .

ويقول « ابن المنير » عن أستاذه : « كان يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه ، فاذا انقضى الدرس ، سأل من اترابه ان يعيد له بصوت عال كلام المدرس » .

لكن « القبارى » كان رغم ذلك قوى الحفظ ، قوى الذاكرة ، لماحا . كما كان قوى البنية فى شبابه ، خفيف الحركة .. شجاعا لايخاف ولا يجبن ، وكان يقول : « انا إذا اخذت مطرقة ولقيت ثلاثين رجلا لا ابالى بهم » كما كان « للقبارى » سيف يحسن الضرب به ، وقد هجم عليه مرة بعض الاعراب فى بستانه . وشرعوا الرماح فى وجهه ، فصرخ فيهم صرخة قذفت فى قلوبهم الرعب . وكانوا مائة .. ثم قال فيهم : « اما تستحون من الله .. » .. هنا دب الذعر فى قلوبهم .. وقالوا : « هذا يكون غيط رجل صالح » .. وعادوا .

وعن شبابه أيضا يحكون أن الامام « القبارى » كان خفيف الحركة فى تسلق النخيل الباسقة ، حتى لقد قيل ـ وهى مبالغة بالطبع ـ انه كان وهو فى أعلاها يلقى الطبق فيه البلح ، ويسبقه الى الارض . كما كان يخلص « كرانيف » النخل من أعلاه بيده ، دون منجل . كما كان يحمل القفف وهى مملوءة ويرفعها بإحدى يديه على ظهر دابته العالية .. وكان يعجز أربعة رجال عن رفعها .

***

ويرون انه قام باداء فريضة الحج مرة واحدة فى حياته وهو شاب .. وقد جرى له حادث حكاه لتلميذه بقوله : « .. فكنت فى آخر الركب ، وخرج العرب على الركب يخطفوه ، وتعلقوا بأواخره ، فجئنا الى عقبة تبلدت الناقة عن هبوطها ، فأدركنى بدوى راكب ومعه سيف مصلت . فهوى الى وضربنى ، فصادفت ضربته ساقى ، فكان لها طنين . وكانت تلك الضربة سببا فى نجاتى . لان الناقة لما أحست بصوت الحديد . نهضت فزجت بنفسها من العقبة ، ففات العربى أن يضربنى ثانية ، فوقع لى عند حكاية بعضهم فى الحكاية المشهورة : نجيناك من التلف بالتلف » .

وهنا يعلق « ابن المنير » قائلا : « .. وعلى الجملة فكان حال الرجل صحيحا . وقدمه راسخة وعزمه ثابتا ، فكان إذا شرع فى خير داوم عليه ، واعين . والعون هو الاصل » .

وكان « القبارى » قبل حلول وقت الصلاة يتأهب لها بكل جوارحه ، وآلة الميقات فى يده ، يتحدث مع من يكون فى حضرته أو يمارس عمله فى البستان وذهنه حاضر . حتى إذا أيقن من حلول الصلاة إنقبض عن كل من حوله وترك كل شيء ، واقبل على مقدمات الصلاة ، كأنه فى حالة من الوجد والهيام ، وقد راقبه « ابن المنير » فى هذه الاحوال ، وسأله عن ذلك ، فقال الامام القبارى :

« اراقب نفسى اذا توضأت حذر ان يتفق حدث او لمس ولا القى اليه بالا واراقب العدو « ابليس » فان العبد اذا تأهب للعبادة ، تأهب العدو للافساد » .. !

***

كان « القبارى » رحمه الله ، حريصا على التدقيق فى القول والعمل ، والتحرى فى التمييز بين الحلال والحرام .. والتحرز فى معاملة الناس . وكما كان حرصه على دينه .. كان حرصه أيضا على أن يعمل بنفسه . ويأكل من كسب يده ..

وكان يعتبر السعى فى كسب العيش جهادا يعينه على العبادة ، ويغنيه عن خلق الله والحاجة اليهم .. وإلا فبطن الارض خير له من ظهرها اذا احتاج الى احد : « لا اذم دنيا تعين على الدين .. الموت ولا الحاجة اليهم » . وكان يرى ان الإيمان الحق ، والمؤمن الحق هو الذى تكون يده مبسوطة الى فوق .. ويكون كريما مع الآخرين .. ولذلك فان أغلب ثمار بستانه كان يتصدق بها على الناس .

ومع حبه للعزلة .. كان يحب الناس ، وكان الناس يقبلون عليه يلتمسون منه الدعاء ، فيقول لأحدهم : « للطالب ما يحتاج » ويقول للآخر : « ماأشتهى لأحد من امة محمد الا خيرا » . ويقول لثالث : « اود لو كان الناس كلهم على الخير » .. ويقول لغيره : « احب لكل احد ما احب لنفسى » .. ويقول للبعض : « الدعاء النافع هو الذى يوافق القضاء ، فان خالف القضاء نسخ الدعاء ، وثبت القضاء » ..

ولقد توقف عن الدعاء للناس حين ظن هو أن الناس يتصورون أن دعاءه كانسان فيه شيء .. ولذلك فانه بعدها امتنع عن الدعاء ، لانه رغب فى أن يعتمد الناس على أعمالهم يتقربون بها وحدها إلى الله ..

وقد سأله تلميذه « ابن المنير » عن سبب توقفه عن الدعاء للناس .. فقال :
« يطلب مني احدهم الدعاء بلسانه ، ويظهر لى من قرائن احواله ان قلبه غافل ، وان نفسه قاسية على نفسه ، فكيف ارق انا عليه ، او كيف ادعو له بلا رقة ؟ »

وجاءه أحد أصحاب « الملك الكامل » ، وهو فى أبهة ويذخ ، وقد ربط فرسه بباب « القبارى » ، وكانت تبدو عليه امارات الرفاهية . وقد سأله أن يدعو له ، فدعا الله على العادة . ثم سأل الرجل الشيخ « القبارى » :
ـ ما للناس يتحدثون بأنك لا تدعو لأحد معين ، ويعتقدون ذلك ؟
فقال الشيخ القبارى :
ـ أحوجتنى لاقامة الحجة عليك : ألست تعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم ؟
فقال : بلى
فقال : أيطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أم بقسوة ؟
فقال : برقة .
فقال : وجدتها منك ، فبأى لسان أدعو ؟ .. وإن شئتم الدعاء باللسان ، فهو البندق الفارغ ، خرج منه ماشئت بلا قلب » .

***

كان « للقبارى » نظرية فى العمل والتعامل .. جوهرها الحلال بالطبع .. « فللقبارى » فلسفة أخلاقية إنفرد بها ، ولم يسبقه اليها أحد . نعم سبقه الإمام « الطرطوشى » ، الذى توفى قبله بنحو قرن ونصف من الزمان ، وكان مثله زاهدا ، وآمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، وله مواقفه المعروفة للناس .. كما كانت له مواقفه إزاء الحكام ، وخصه الله بإجابة الدعاء ، وكتب « سراج الملوك » لارشادهم وتبصيرهم . وربما وقف القبارى على سيرة الامام « الطرطوشى » .. لكن « القبارى » سيظل ، مع ذلك ، أمة وحده .. فقد عاش مثل القديسين . وكان يتخذ من تجاربه فى الحياة مصدرا لأفكاره وأعماله ، وكان يقول : « مافعلت شيئا من ذلك إلا بعد تجربة ووقائع اقتضته » .

***

وكان « القباري » لا يستخدم أحدا ، حتى يعجل له أجرته ، بل كان يعطيه من الاجر مايرضيه . وكان يستنكف أن يستأجر عبدا مملوكا فى اى عمل ، خوفا من أن يتناول أجره ، ثم لايعطيه لسيده .. أو ربما يكون قد عمل عنده دون اذن منه . وكذلك كان لايستخدم أحدا من البدو . اذ سأل مرة عن مصدر رزقهم فقيل له : من غزو بعضهم بعضا ، واستحلال بعضهم مال بعض .. وكان قد كثر تعدى الأعراب على بستانه ، كما سمع بقطعهم الطريق على الناس وسفكهم الدماء فى وقت استشرت فيه الفوضى .

***

وكان يتعامل مع تاجر واحد .. لكنه لم يكن يحب التعامل بالسكة ، أى النقود . ويقول عنها : « علم الله اننى لو وجدت من يعاملنى بالقبار ونحوه من الثمار اجعله ثمنا للمثمون من غير توسط السكة ، لما فعلت إلا ذلك » .. كانت السكة فى رأيه اداة تعامل لا يثق هو بها .

***

كما كان عند « القبارى » ميزان يزن به الاشياء التى يشتريها .. ثم ترك هو الميزان وجعل البائع هو الذى يزن له .. وكان يقول .. « ان اكون مظلوما خيرا من ان اكون ظالما » .

***

ولقد قضى « الطاهر بن ابى العز » أربعين سنة فى خدمة « القبارى » .. وكان الشيخ يسميه « الرجل » جريا على عادة أهل الكرم .. كما يذكر ذلك « ابن المنير » ، لكن « القبارى » طرد خادمه بعد هذه السنوات ، ولم يسمح له بالانخراط فى خدمته ، والسبب أنه قبل مالا من رجل كان مريضا ، ونذر هذا المال لله ان هو شفى . ورغم انه يطرده من خدمته فهو لم يطرده من رحابه ظل الخادم يعيش عند سور البستان ثلاثين سنة ، يوصله ويعطيه الحطب ليستدفء فى الشتاء ، ويخصه بالزكاة .

***

ويحكون أن « القبارى » حين كان يريد أن يشترى سمكا ، كان يتحرى الدقة ويشترط على الصياد البائع الا يكون له شريك ، وان تكون ادوات الصيد ملكا له غير مستأجر لها .. كما ينبغى أن يتوخى ان يكون البائع حسن السريرة .. بالاضافة الى ذلك كان من عادة « القبارى » أن يدفع للبائع اكثر من حقه ، بل كان يزيد فى الثمن . وقبل ذلك كان يتحرى دائما ان يكون السمك قد تم اصطياده بعيدا عن الميناء .. بعيدا عن الناس حيث يغتسلون .

***

وهناك قصص تروى .. عن اهتمام القبارى بالعمل والتقاليد الاسلامية .

فقد قيل ان حشدا كبيرا من الامراء جاءوا يريدون التوبة على يد « القبارى » فاغلق الطاقة التى كان ينظر منها الى الناس .. وقال : « اخرجوا من غيطان الناس » .. فتعجب الامراء : كيف يخرجون من هذه الغيطان الخربة المهجورة التى لا يسكنها أحد . لكن « القبارى » افهمهم ان الحق والتحرى ، الا يدخل احد مكان انسان الا بإذنه ، حتى ولو كان المكان مهجورا .

***

ولقد ورد ذكر « القبارى » أمام أحد الامراء ، فقال : لم لايبيع الشيخ القبارى بستانه ، ويتصدق بثمنه على الناس ؟ ..

ويلغ هذا الكلام مسمع الشيخ ، فقال لصاحبه أن يذهب الى الامير ويقول له :

« هذا رايك انت .. الابيع حلالى واحتاج الى حرامك وإلى الوقوف ببابك .. انا اطلب السلامة وهى راس المال ، اين الوصول الى الفائدة » .. اى كيف يحصل على ثواب الصدقة ، وهى نافلة يتقرب بها العبد الى ربه عز وجل ؟ !

***

وحكى « ابن المنير » فى « مقاماته » عن « القبارى » ، أن الشيخ باع دابته لرجل .. وعاد هذا الرجل اليه بعد أيام ـ كما جاء فى السيوطى ـ يقول له إن دابته ممتنعة عن الطعام منذ اشتراها منه . فساله « القبارى » عن عمله ، فقال الرجل : « رقاص عند الوالى » .. هنا يقول القبارى : « دابتنا لا تاكل الحرام » .. واسترد « القبارى » دابته ، وأعاد للرجل ثمنها .

وهذه الدابة فى الواقع ، كانت لها حكايات ونوادر .. تناقلها اهل الاسكندرية فى عصر « القبارى » .. ثم تحولت هذه الحكايات والنوادر الى ما يشبه الاساطير بعد عصره .. ومن هذه النوادر ان الدابة كانت تتادب حين يركبها الشيخ ، لكنها كانت تجمح اذا ما قربها احد غيره . وهى دابة قيل انها كانت مثل صاحبها ، مشهورة بالصبر على شرب ماء البحر ، والصبر على العطش .

***

كان « القبارى » عزيزا بعز الايمان ، لا يذل نفسه ، ولا يستشعر الذل من مخلوق .

كما كان عميق التامل فى خبايا النفوس ، حريصا على التعرف على مقاصد اصحابها . وكانت نظريته تتجه دائما الى البحث عن الحلال ..

وكان الرجل يفلسف السلوك ، ويتعمق فى إتيانه او تركه على اساس سند شرعى
وكما يقول محمد محمود زيتون : ان القبارى كان يجمع بين الحقيقة والشريعة ، كان فيلسوفا له فلسفته الميتافيزيقية والنفسية والاخلاقية والاجتماعية .. الى جانب انه كان زاهدا عابدا معتدلا ، قانعا . فالشهوة فى رأيه شقوة ، ولذلك فهو يقول : « اتعجب من الخلق ، لا يبلغون شهوة ابدا .. لأن شهواتهم فى الكثير والمليح .. ولا كثير الا وهناك اكثر منه ، ولا مليح الا وهناك أملح منه . فالشهوة بعد هذا شقوة » .. كما كان « القبارى » يقول : « الدنيا دار اسباب ، ومن زعم ان التوكل ترك السبب بالكلية فهو غالط »

ومن اجل هذا .. كانت الناس تثق فى ورعه .. ومع ذلك كان ينكر عليهم ذلك ، لأنه كما يقول : « الورع الذى يشيرون اليه ، ان يترك الانسان الحلال المحض .. واين الحلال .. ؟ علم الله انني ما وجدته كما اشتهى قط . الحلال المحض هو الذى لا تراه و لا تسمع به » .. ومن هنا فان « القبارى » ، كما يروى تلميذه : « كان شديد الحذر من اين يقع فى مظنة إتفاقا . واما العمد فما اراه وقع له ذلك قط »

***

ويقول « القبارى » : « من ادعى انه معصوم ، فقد ادعى بما ليس له فى الغيب مكتوب » .. والدنيا ، كما يرى ، « عرض زائل ، وطلابها صغار العقول قليلو الإدراك »
ورجل هذا فكره ، كانت لديه فراسة بالنسبة للناس .. فهو بمجرد أن ينظر اليهم يتعرف على ما وراء الوجه : « فالوجه هو القلب الثانى ، قل أن يقوم بالقلب شىء .. الا وظهر على الوجه أثره » .

***

وكان « القبارى » يتعامل مع الامراء بنفس الميزان الذى يتعامل به مع البسطاء .. لقد كان زائر « القبارى » ، مهما علت مكانته ، يقف على سياج بستانه يطلب الاذن بالدخول ، فيأذن له .. أو لا يأذن . وكما يقول « ابن المنير » : وكان الامراء والكبراء اذا دخلوا عنده ارتعدت فرائصهم من قوته وشدته » .

« وللقبارى » صولات وجولات مع سلاطين مصر فى عهده .

« الملك » الكامل بن « الملك » العادل ، « ذهب الى القبارى فى بستانه .. » وقد وصف « القبارى » هذه الزيارة بقوله : لما جاء الملك الكامل الى الاسكندرية وخطر له ان يخرج الى عندى ، جاءت له مقدمات من مماليك وحجاب ، وصادفونى أصلى الوقود لعشائى . وكنت حينئذ لا اجيب داخلا على . وكان عندى احد المعتادين المترددين الى من اهل البلدة . فقلت له : ضم اليك ثيابك ، فانك لا تطيق مجالسة هؤلاء . وقلت : أتظن الكرامة فى ان يجيء ؟ . قال : ربما . فقلت الكرامة فى ان ينصرف ، لأنه ان دخل دخل محبا ، وخرج مبغضا » ..

وقد قيل إن الملك « الكامل » جاء وانصرف ، ولم يسمح له « القبارى » بلقائه

ايضا فان « الملك » العادل بن « الملك » الكامل اراد أن يلتقى « بالقبارى » ، ويتلمس بركاته ورضاءه . فبعث الى « القبارى » بألف دينار . لكن « القبارى » رفضها . وقال لمن حملها اليه : « .. رد الدنانير الى صاحبك ، وقل له : لو عرف اصحابها لاشار عليك ان تعيدها اليهم . ولكن هذا فات » كان « القبارى » يرى فى هذه الدنانير أنها جمعت ظلما ، ورفض ان يلقى ربه وفى عنقه أغلال هذه الدنانير سواء اخذها لنفسه أم وزعها على الناس .

والملك « الصالح نجم الدين ايوب » .. له ايضا قصة مع « القبارى » حين اعتزم القبارى وهدد بترك ديار مصر حول : هل من المباح ان يعمر الانسان ارض الموات ، اى البور ، وبعد اصلاحها تعتبر ملكا له ؟

وكانت المسألة خلافية تناقضت فيها آراء الفقهاء وأصحاب المذاهب ، وبلغ ذلك الامر الملك « الصالح » ، فاهتم به ، وبعث بمن يأذن « للقبارى » بالاقامة كما يشاء فى اى مكان . فلما تلقى « القبارى » كتاب الملك « الصالح » قال : « هذا اذن ، وما استأذنته » .. وبقى فى الاسكندرية .

والملك الرابع .. هو الظاهر « بيبرس » .. وقد زار « القبارى » ، وسمح له الشيخ بالقدوم عليه ، على شريطة أن يتلقاه من أسفل البستان . كما يروى « إبن واصل » فى كتابه « مفرج الكروب فى اخبار بنى ايوب » ولقد قبل « الظاهر بيبرس » شروط ولى الله ، وقال : « انا رايح لله تعالى ، فمن اى مكان شاء ان يكلمنى » .. واعتبر « بيبرس » .. الاذن له من « القبارى » كسبا كبيرا .

ولقد حضر « بيبرس » الى بستان القبارى ، ودار الحديث بين الشيخ وبينه فى جو هادىء . وقد طلب « القبارى » من السلطان ـ على سبيل النصح ـ أن يعنى بتعمير الثغر وتحسينه . فسر السلطان للطلب ورحب به .وقد خرج من عند « القبارى » ، ليصدر اوامره بترميم الابراج وتعزيز القلاع واصلاح الاسوار . ثم جلس بدار العدل ، وأمر بتطهير المدينة من الساقطات من نساء الافرنج .

ويذكر ان الظاهر « بيبرس » قد زار « القبارى » مرة اخرى فى سنة ٦٦٢ هجرية .. لكنه زار قبره فقد مات « القبارى » قبل ان يصل السلطان الى الاسكندرية .

و« للقبارى » ايضا ذكر فى سيرة السلطان « قايتباى » .. ونحن نعرف ان هذا السلطان يبعد عصره عن عصر « القبارى » .. لكن السلطان جاء الى « الاسكندرية » وزار قبر الشيخ « القبارى » ، وأمر ببناء قلعته المشهورة بقلعة « قايتباى » الموجودة حتى الآن لحماية الاسكندرية . ويقال ان « قايتباى » فعل ذلك بعد قصة سمعها فى الحرم النبوى الشريف ، وهو يؤدى فريضة الحج مؤداها ان خدم الحرم قالوا ان رجلا يأتى الى قبر رسول الله ﷺ كل يوم ليختم « البخارى » أمام الحضرة النبوية الشريفة .. فامسكوا بالرجل ، وسألوه عن اسمه وبلده فقال لهم : أبو القاسم القبارى من الاسكندرية !!

***

هكذا عاش سيدى « القبارى » .. ولى الله .

عاش فلسفة ايجابية تتلخص فى الخروج الى المجتمع بحياة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .. حياة خصبة وثرية .. من اجل الحق والخير .

لقد كان القبارى زاهدا ورعا تقيا .. باحثا عن الحلال مطبقا له ما امكن وقبل ان يموت بيومين ، كما يذكر « ابن المنير » سأل بعض من كانوا يعتادون زيارته والتحدث اليه ، وقال لهم وقالوا له :

قال : هل ترون فى النخل شيئا اخرج ؟

قالوا : لا

قال : هل ترون فى الخرنوب شيئا اخرج ؟

قالوا : لا .

قال : هل ترون فى السنبل حبا ؟

قالوا : لا

فقال بينه وبين نفسه :

- رحل الرزق من صاحبه

ومات الشيخ بعدها ، وأخذ زرع بستانه فى الذبول .. حتى قال ابن المنير : « مافى بستان الشيخ من نخل وشجر ، لم يثمر حبة واحدة سنة وفاته . »

وقد ظل ضريح الامام « القبارى » قبلة للمؤمنين .. ووراء الضريح بستان صغير مازالت فيه آثار خضرة .. وآثار الساقية التى رفض ولى الله « القبارى » تدويرها عند تطهير الخليج .

***

رحل « القبارى » الى الرفيق الاعلى ، وكانت متروكاته شيئا لا يذكر .. لكن الناس تقاطروا على شرائها للتبرك بها ، فكان ماثمنه درهم يباع بألف دينار .. حتى وصلت قيمة مجموع ميراثه عشرين الفا . وقال « ابن كثير » : « ترك من الاثاث بعد موته ما يساوى خمسين درهما فبيع بعشرين الفا »

أعلام
التصوف
الاسلامى

سيدى أبو الحجاج الأقصرى

الضيف القادم من العراق
ليصبح صاحب الأقصرين

●● في النصف الأخير من شهر شعبان يصبح مقام سيدى ابو الحجاج الاقصرى ملتقى زحف المؤمنين من عشاقه ومريديه . وفى رمضان تضاء الانوار وتتلالأ فوق صفحة النيل وتتزين القباب والمنابر . وتستمر قراءة القرآن بالليل والنهار ، والمقرئون يتنافسون على ترتيل القرآن فى رحاب معبد الاقصر ، والذى تستقر فوق احد صروحه الشرقية المئذنة الفاطمية الطراز والضريح الذى يضم جثمان هذا القطب الصوفى وتعلوه قبة جميلة .

عشاق سيدى ابو الحجاج يعدون المادب فى رمضان لكل القادمين . واهم مايقدمونه اكلة عراقية الاصل . وهى خليط من اللحم الأحمر والبصل والقمح المدشوش ، يقطع فى اشكال مكعبة قبل طهوه . فى العراق يسمون هذه الاكلة « كبيبة » وهذا يعنى ان هذه الأكلة وافدة من العراق . واشتهرت بعد ذلك فى مصر كلها .. وربما كانت هى الأكلة المفضلة لسيدى ابى الحجاج الاقصرى ومعاصريه لكنها ظلت حتى الان ..

***

هذا القطب الصوفى ، سيدى أبو الحجاج يعرفه العالم كما تعرفه مصروسبب ذلك أن السياح الذين يحرصون على زيارة معبد الاقصر تجذبهم تلك المئذنة الفاطمية الطراز . وسط الهياكل والصروح والتماثيل والمسلة السامقة . يتساءلون عنها وعن أسباب وجودها داخل اثار الفراعنة ، وتأتى الاجابة عن حياة سيدى أبو الحجاج . وعن أن هذه المنطقة كما تضم آثارا فرعونية . فهى تضم آثارا اسلامية . وفى نهاية قدس اقداس معبد الاقصر هناك بقايا كنيسة مسيحية .

ولايعرف احد كيف جرى بناء المئذنة الفاطمية التى كانت تضم قبة ومسجدا – جرى تجديدهما فيما بعد – فوق الصروح والهياكل الفرعونية ، وربما كانت هذه الارض ردما ورمالا فوق الآثار ، فتم البناء عليها ، ثم برزت بعد ذلك . لكن أيا كان الامر . فإن البقعة التى يقوم عليها المسجد والضريح والمئذنة التى تتابعت على مصر عبر القرون . من عقيدة آمون رب الارباب الفراعنة الى آلهة اليونان والرومان الى المسيحية . ثم الاسلام .



أهل الاقصر يعتبرون هذا القطب الصوفى حارسا لمدينتهم ببركاته . وسيدى ابو الحجاج لم يُؤَثِّر قطب من اقطاب التصوف فى ناس مثلما اثر هو فيهم . إن حياتهم تدور حوله . وطموحاتهم تتنامى ببركاته فى إحياء ذكرى مولده ، وعيونهم مشدودة إليه . ويصبح أبو الحجاج دائما مركز احتفالاتهم بالمواسم الدينية وهى كثيرة خاصة فى رمضان .

ويبدو أن طبيعة الاقصر المدينة ذات الطبيعة الخاصة ، بما فيها من معبد الاقصر ومعابد الكرنك .. والتى كانت تسمى باسم الاقصرين .. أو القصيرين فى الماضى .. فإن طبيعة الاحتفال بمولد أبو الحجاج مازالت تحمل حتى الان ملامح مما كان يدور فى معبد الاقصر إحتفالا بالإله الفرعونى آمون . الذى كان يزور زوجته الإلهة موت ، وابنهما الإله خنسو فى احتفال مهيب . وكان تمثال آمون الذهب يحمله الكهنة فى مركب مقدس من الذهب مرصع بالجواهر وفيه التمثال ولذلك فأهل الاقصر لايزالون حتى الان فى احتفالات مولد ابى الحجاج يحملون مركبا صغيرا ويطوفون به ، مثلما كان كهنة آمون يطوفون بالمركب من معبد الاقصر الى الكرنك عبر طريق الكباش .

***

وسيدى ابو الحجاج ينتمى نسبه الى سيدى الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنهم . وهو من مواليد أوائل القرن السادس الهجرى « ١٢ الميلادى » فى بغداد ايام الخليفة العباسى المقتفى بامر الله . وكما يقول محمد عبده الحجاجى فى كتابه عن « ابو الحجاج الاقصرى » فهو عراقى الاصل . نشا وتربى فى اسرة ميسورة الحال ، وعلى قدر كبير من الورع والتقوى ، وقد توفى والده وهو لم يزل صبيا ، فاحترف صناعة الغزل والحياكة ، وبرز فيها . وكان حانوته فى بغداد ملتقى الكثيرين .

+ لكن هذه الحرفة لم تشغله عن طلب العلم حيث بغداد فى وقته كانت تغص بعدد كبير من العلماء واقطاب التصوف . منهم عبد القادر الجيلانى ، وابو النجيب السهر وردى ، الذى كان يمثل التصوف العملى فى بغداد . ثم سيدى احمد الرفاعى .. وكان فيها ايضا مايعرف باسم « المدرسة النظامية » وهى اول مدرسة مذهبية فى تاريخ الاسلام ، التى انشاها نظام الملك وزير السلطان السلجوقى ملك شاه فى القرن الخامس الهجرى . وقد التحق ابو الحجاج بهذه المدرسة ، وزامل فيها السهر وردى ، كما داوم على حضور حلقات الدروس التى كان يتحدث فيها شيوخ التصوف .

وبعد أن تزود ابو الحجاج بقدر كبير من المعرفة .. ترك مهنة الغزل ليتفرغ الى الدعوة إلى الله في بغداد . واقبل عليه كثير من المريدين العراقيين ، لأنه امتاز بجانب غزارة علمه وورعه وتقواه .. بقدرة فائقة على الاقناع .

ثم ترك بغداد الى الحجاز لتادية فريضة الحج ، وعاد اليها ، لا ليستقر فيها بل ليتركها إلى الابد ، لأن الحياة فيها لم تعد تطاق ، إذ تعرضت بغداد لفتن وثورات نتيجة لضعف الخليفة وميله الى الظلم والعسف ، وقد ساعده على ترك بغداد وفاة والده ثم زوجته .

ترك ابو الحجاج بغداد ولما يبلغ سن الاربعين ، ومعه أولاده الاربعة وبعض ذوى قرباه واصحابه ، إلى مكة المكرمة . وهناك توفى احد ابنائه فدفنه في مقبرة « المعلا » وفي مكة تعرف بواحد من سادتها هو الشيخ عبد المنعم الاشقر ، الذى زوج بناته من اولاد ابى الحجاج ، وعرض على ابى الحجاج ان يزوجه فرفض ذلك عكوفا واخلاصا واحتراما لذكرى أم اولاده ووفاء لها .

ولقد قضى ابو الحجاج في مكة المكرمة عاما وتعرف على بعض اشرافها ممن ينتمون إليه بصلة القرابة . وهم الذين رغبوه في السفر الى مصر . لما تمتاز به من الهدوء والسكينة .. واكدوا له أن مصر تمتلىء بعدد كبير من متصوفة العالم الاسلامى ، خاصة المغاربة منهم ، وشجعوه على الاستقرار فيها ، حيث مجال الدعوة فيها الى الله متسع .

***

خرج ابو الحجاج من أم القرى متجها الى قبر الرسول ﷺ في المدينة المنورة ، وبعدها رحل الى مصر ، ومعه بعض عرب جهينة وعسير ، واستقر اول ما استقر في شرق الدلتا ، خاصة مدينة المنصورة ، ويقول ابو الحجاج واصفا رحلته الى مصر : « ونزلت شرقى الدلتا ، ومكثت بها أياما ، تعرف بنا أولاد عمنا ، ومنحونا أطيانا زراعية ، ظنا منهم اننا سنمكث عندهم ، فلما أراد الله سبحانه وتعالى سفرنا ، توجهت انا واولادى الثلاثة الى الجنوب ، الى أن وصلت الى اسيوط ، ومنها الى جرجا ، ثم الى قوص ، وهى مدينة كبيرة ، ثم رحلنا منها حتى وصلنا الى بلدة الاقصرين ، وكان ذلك في أواخر ايام حكم صلاح الدين الأيوبى » .

وفى الاقصر او « الاقصرين » كما كانت تسمى فى الماضى ذاع صيت القطب الورع ابى الحجاج .. بعدما التقى بالراهبة تريزا ودخلت الاسلام ، وقد سمع بأخباره سلطان مصر العزيز عماد الدين ابو الفتح عثمان ابن صلاح الدين الأيوبى ، وكان هذا السلطان ، كما وصفه ابن خلكان فى « وفيات الاعيان » : « مباركا كثير الخير ، واسع الكرم ، محسنا الى الناس ، معتقدا فى ارباب الصلاح والتقوى » بعث اليه السلطان رسولا يستدعيه الى قلعة صلاح الدين ، وأسند اليه وظيفة كبيرة ومهمة هى « مشارف الديوان للحسبة والخراج » لكن ابا الحجاج لم يستمر طويلا فى هذه الوظيفة الكبيرة ، فتركها معلنا انه وهب نفسه للخالق سبحانه ، متصوفا لرسالة الاسلام ، داعيا الى الله وقال شعرا :

ولقدر رأيت جماعة فى عصر
قد كنت أحسبهم على سنن السلف
فبلوتهم وخبرتهم وعرفتهم
فوجدت خلقا مابجملتهم خلف
فنفضت يدى من تعاهد وصلهم
من رام وصلهم فقد رام التلف
ورأيت أسباب السلامة كلها
فى رميهم خلفا لظهر ثم كف

بل إن ابا الحجاج ، إتجه من القاهرة الى الإسكندرية ، حيث التقى بالزهاد والمتصوفة والتى كانت تعج بهم ، وعلى راسهم الشيخ محمد عبدالرزاق الجزولى ، الذى يرجع اليه الفضل فى نشر اول طريقة صوفية عرفتها الاسكندرية ، قبل الطريقتين الرفاعية والشاذلية ، أمضى ابو الحجاج فترة بجوار الجزولى حتى صار من اخلص تلاميذه ، ثم عاد الى الأقصر ، مرورا ببلدة قوص التى كانت عاصمة الاقليم الذى تقع فيه الاقصر ، والتقى بسيدى عبدالرحيم القنائى ، وصار أبو الحجاج من انجب تلاميذه .

وفى أخريات ايامه حيث عاش عمرا ناهز التسعين عاما ، ظل ابو الحجاج فى الاقصر منقطعا للعبادة والوعظ والدعوة الى دين الله ، وتكاثر حوله المريدون يوما بعد يوم فقد كان مجلسه يغص بالعلماء والوجهاء وعلية القوم يطلبون علمه وبركاته .

ولقد لقى أبو الحجاج ربه عام ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) فى عصر الصالح نجم الدين أيوب ، ودفن فى ضريحه فوق معبد الاقصر من الناحية الشرقية ، حيث اقيم المسجد

الذى حمل اسمه ، والذى أعيد بناؤه فى القرن الماضى ، وجرى ترميمه بعد ذلك ايام عباس حلمى الثانى ، فى اوائل هذا القرن .

***

أبو الحجاج هو قطب الصعايدة فى الأقصر ، كما ان سيدى عبدالرحيم القنائى هو قطب صعايدة قنا ..

وكان لابى الحجاج منهج خاص فى التربية والسلوك الحسن ، كما كان له رأى ووجهة نظر فى المريد الذى يدخل فى الطريقة ، وقد ذكر الامام الشعرانى وجهة نظر ابى الحجاج فى كتابه « الانوار القدسية » يقول : إن المريد الصادق حقا فى طلب الطريق إلى الله ، يجب الا يرجع عن غايته ، مهما كلفه ذلك من ثمن ، فمن خطب نفيسا ، فقد خاطر بنفيس » بمعنى ان الاصرار على الوصول الى الشىء همة من الهمم العالية .

ويرى أبو الحجاج أن محبة الشيخ واحترامه والتأدب معه ، صفات يجب أن يتحلى بها المريد ، وتنشد قائلا :

لو قيل مت ، مت سمعا وطاعة .
وقلت لداعى الموت اهلا ومرحبا .

ويرى أبوالحجاج أن الأمل مادام يعيش مع الانسان ، فإنه حياة . ولابد من الوصول إلى المبتغى والمرجو . وكما يقول أبوجعفر الادفوى : لقد تخرج على يدى الحجاج سادات وأكابر ، نطقت بمناقبهم السنة الاقلام وافواه المحابر .

ولقد كانت طريقة الشيخ الجزولى هى التى نشرها ابو الحجاج فى صعيد مصر ، وفى الاقصر بالذات ، بل أصبح ابو الحجاج اماما لهذه الطريقة فى الصعيد ، كما يقول المستشرق برمنجهام فى كتابه بعنوان « الطرق الصوفية » والدليل على ذلك ان هذه الطريقة ظلت تؤتى ثمارها حتى اوائل القرن الثانى عشر الهجرى « ١٨م » ومن يقرأ مرتضى الزبيدى صاحب « تاج العروس » عند الحديث عن مادة « قصر » يجد الكثير حول فكر وطريقة سيدى ابى الحجاج ، ويقول الزبيدى ايضا عن الاقصر : « ومنها الولى المشهور ابو الحجاج يوسف بن عبدالرحيم بن عربى القرشى المهدوى نزيل الاقصرين ودفينها » .

وقد التقى الزبيدى مع حفيد ابى الحجاج الشيخ المعتز شمس الدين ابو على محمد بن محمد بن يوسف ، ولبس منه خرقه « زى » الطريقة ، التى كانت تعرف باسم « المدينية » والتى كانت قائمة فى ذلك الوقت ، والتى وضع اساسها فى المغرب ابو مدين شعيب التلمسانى ، وجاء تلميذه الشيخ الجزولى لينشرها فى مصر ، واخذها عنه ابو الحجاج .

وبجانب نشر تعاليم « الطريقة المدينية » فى صعيد مصر ، نشر أيضا أبو الحجاج منهجه الخاص فى تربية تلاميذه ومريديه ، فالمريد الصادق عنده هو الذى لايرجع عن طريق ولو قاسى الاهوال فى سبيله وكل مريد وجد فى نفسه عدم الصدق فى طلب الطريق ، فعليه الخروج من بين الفقراء . فإن لم يخرج كان إثم فتور عزيمتهم عليه لنظرهم اليه وسرقة الطباع السيئة منه ، ومن شأن المريد الشاب الا يزاحم الرجال فى الجلوس ، بل عليه ان يجلس خلف الناس الى ان يلتحى .

***

والمهم ان سيدى ابا الحجاج درس الفقه على مذهب الامام الشافعى ، وتفقه على يدى الشيخ السهروردى .. وهذا مابرز فيما تركه سيدى أبو الحجاج من اقوال فى علوم الطريق ، ومن أراء فى التربية والسلوك . وابو الحجاج كما برز فى مدينة قنا ، برز ايضا فى قوص . وكانت شخصيته تتالق فى قوص ، خاصة فى مواسم الحج ، حيث كان العلماء والفقهاء وعلية القوم يمرون بهذه المدينة فى طريقهم الى اداء الفريضة . وكان أبو الحجاج ينتهز هذا الموسم ليجتمع بالعلماء ويتبادل الحديث معهم فى الكثير من القضايا التى تتعلق بالدين الاسلامى . وقد التقى فى أحد مواسم الحج بسلطان العاشقين عمر بن الفارض ، وكان معاصرا له .

وصل ابو الحجاج إلى مرتبة القطبانية فى مصر فى زمنه ، ويقول الشيخ على يونس الصماط احد تلاميذ سيدى ابى الحسن الشاذلى : حينما كنا متوجهين الى الديار المصرية من تونس رأيت مناما يقول لى يايونس : كان ابوالحجاج بالديار المصرية قطب الزمان ، فمات البارحة ، وأخلفه الله تعالى بأبى الحسن الشاذلى ، وجئت إليه حتى أبايعه بيعة القطبانية .

وقد أنجب سيدى ابو الحجاج اربعة أبناء وهم أحمد النجم الشهير بالحجاج ، وعبد المعطى ، وعبدالعاطى ، وعطاالله الذى توفى ودفن بالمعلا فى مكة المكرمة وللشيخ احفاد كثيرون فى كثيرمن البلدان مثل قوص والعسيرات وجرجا وقمن العروس ، والقاهرة ، والمرج ، والمنصورة .

والواقع ان العصر الذى عاش فيه ابو الحجاج فى صعيد مصر ، كان بيئة خصبة ثقافيا وروحيا ، خاصة فى قنا ، وفى عصر قطبها الكبير سيدى عبدالرحيم القنائى ، ولقد تأثر ابو الحجاج بأستاذه سيدى عبدالرحيم القنائى ، كما تأثر ايضا وزامل الشيخ أبو الحسن الصباغ خليفة سيدى عبدالرحيم .. وهؤلاء جميعا كانوا من تلامذة الشيخ ابى مدين التلمسانى فى الاسكندرية ، والذى كان يردد دائما النصيحة الغالية التى تقول : خاف الله فى السر والعلن ، وتعلق بالكتاب والسنة فى القول والعمل ، وسلم امرك لله فى الامور الخطيرة والحقيرة ، والجأ إليه فى الافراح والاتراح » . كما تأثر سيدى أبو الحجاج بطريقة الشيخ الجزولى التى تشجع على الاعمال اليدوية والحرف ، ولايتوقفون فى المأكل والمشرب على خشن ، ويقدمون أكل اللذيذ من الطعام على غيره ، إلا ان يكون مضرا بالمزاج ، ومن آدابهم صلاة ركعتين نفلا بعد الأكل ، والاشتغال بقراءة سورة « الملك » وذكر الله فى الملأ .

ومن جماع هذا كله كانت طريقة سيدى ابى الحجاج ، وكانت طريقة اهل الصعيد بعده والتى حافظوا عليها حتى الآن .. والى أن يرث الله الارض ومن عليها ..

الملاحظ كما تقول دكتورة سعاد ماهر فى كتابها « مساجد مصر » ان البقعة التى تضم ضريح ومسجد أبى الحجاج كانت طوال عصورها التاريخيةأماكن عبادة ففيها كما ذكرنا معبدْ آمون الفرعونى كما ضمت بقايا كنيسة مسيحية ، ثم علا ذلك مسجد أبى الحجاج .. وكانت وزارة الاوقاف قد اقامت مسجداً جديداً غير بعيد من المسجد التاريخى لنقل رفات هذا القطب الصوفى اليه لكن أحدا لم يجرؤ على ذلك .

واقدم أجزاء مسجد سيدى أبى الحجاج هو المئذنة التى تعود الى منتصف القرن السابع الهجرى « ١٣ الميلادى » وهو تاريخ وفاة أبى الحجاج ، وهى من ثلاثة طوابق الاول عبارة عن مكعبين أما الثانى والثالث فهما على شكل اسطوانة تستدق كلما اتجهنا الى أعلى وتنتهى المئذنة بطاقية مقببة وبالدور الثالث مجموعة من الفتحات مصفوفة فى صفين كما تصفها د . سعاد ماهر وكما يقول عالم الاسلاميات البريطانى البروفيسور كريزويل الذى كان رئيس قسم العمارة الاسلامية وصاحب المؤلفات عن حى الجمالية بالقاهرة ، فإن قنطرة هذه المنارة مبنية بالطوب الآجر وسلمها من الداخل عرضه متر الا ربعاوهو سلم حلزونى وتتكون كل دورة من أربع او خمس درجات وحافة كل سلمة مصنوعة من الخشب الذى يمتاز بقوته ومتانته ويشبه طراز مآذن الصعيد فى العصر الفاطمى مثل مئذنتى جامع قوص ومسجد إسنا كما تشبه مئذنة مسجد الجيوشى بالقاهرة على ربوة جبل المقطم .

ولقد ذكر كتاب « الطالع السعيد » لمؤلفه أبو جعفر الادفوى ، أن الذى بنى الضريح هو الشيخ صالح أحمد النجم وهو ابن سيدى أبى الحجاج وقد اختلف

الاثريون على من بنى المئذنة الفاطمية وفى أى عصر من عصور الخلفاء والفاطميين فالبروفيسور كريزويل يؤكد انها بنيت فى عصر بدر الجمالى الوزير الفاطمى وقال انها فاطمية الطراز لكن البعض يرى أنها وان كانت فاطمية الطراز فهى لم تبن فى عصر بدر الجمالى .

على أية حال فإن مسجد سيدى أبى الحجاج يمثل الوحدانية فى هذا المكان على مدى سبعة قرون والمعروف أن الذين كتبوا عن ابى الحجاج كثيرون بدءا من ابن بطوطة حيث ذكره حينما زار الاقصر كما أن دائرة المعارف الاسلامية أفردت له سطورا تحت مادة الاقصر كما ترك هذا الشيخ الجليل منظومة شعرية رائعة فى علم التوحيد وتقع فى ١٣٢٣ بيتا تنقسم الى ٩٩ بابا يدافع بها عن الايمان على مذهب الاشاعرة كذلك كانت له كرامات كثيرة وقال عنه الادفوى والاسيوطى والشعرانى إنه صاحب الكرامات والمكاشفات المعروفة حتى ليقول المنادى على لسان واحد من معاصريه إنه على ماياتى من الكرامات والمكاشفات قديرى بإذن الله .

●

لعل من اهم ما وصف به ابوالحجاج من قبل المؤرخين الذين تناولوا سيرته أنه من ابرز شيوخ التصوف فى مصرالذين احسنوا تربية المريدين لذلك وصفوه بالشيخ .. ومفهوم الشيخ فى الصوفية هو ذلك الذى يتولى تربية المريدين تربية روحية قويمة تقودهم الى معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ولقد اوضح الامام الشعرانى فى كتابه « الانوار القدسية » هذا الجانب فى شخصية ابى الحجاج قائلا :

إن ابى الحجاج الاقصرى كان له راى فى المريد الصادق وكان يرى ايضا ان للمريد أدبا مع شيخه وادبا مع المريد او زميله فى الطريق وفى حديثه عن ادب المريد مع شيخه يصر على ان يهب المريد نفسه لشيخه يتصرف فيها كما يشاء وليس له الحق فى أن يعترض على الشيخ فى أى أمر من الامور بل تجب عليه الطاعة والاحترام والتأدب معه

وقد كان ينهى مريديه فى تشدد ملحوظ عن الحقد والحسد والإنكار ويحثهم على التحلى بالاخلاق الحميدة الفاضلة وحمل الناس جميعا على احسن المحامل حتى أنه كما قال الادفوى فى « طالعه السعيد » طالما استنقذ من اسر الجهل من كل موثوقا فى حباله وانجد من ضل عن طريق الهدى فهداه بعد ضلاله ووجد عاثر المعاصى قد احاط به جيش الذنوب فاخذ بيده واقاله ووضع فى يد التقوى عقاله ..

فهرست

الموضوع	صفحة

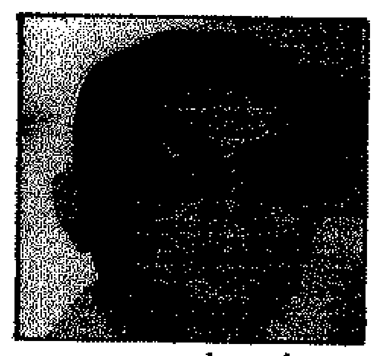
●●●

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

الطبعة الثانية
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

رقم الايداع ١٩٩٤/٢٧٥١

الترقيم الدولى ٠ - ٠٣٤ - ٢٢٩ - ٩٧٧ - I.S.B.N.



هـذا الكتـاب

أحمد أبوكف

كان الفكر الصوفى منعطفا كبيرا فى تاريخ العقيدة الاسلامية .

فلقد تبلور هذا الفكر فى ظروف اغارت فيها تيارات متنوعة ، تريد النيل من الاسلام ، ومن حضارة الاسلام ، وفى هذا المناخ ظهر التصوف كطريق يشدد على الاخذ بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ولاشك ان التصوف الصحيح قد لحق به الكثير مما هو غريب عليه ، وما لم يات فيما جاهد فيه اقطاب التصوف الكبار الذين ساحوا فى بلاد الاسلام من اجل رفع رايته الخضراء عالية خفاقة .. يشددون على العلم والتفقه فى امور الدين القويم ، ويشرحون للمريدين حقائق الاسلام .. ويدافعون عن الدين القيم ، ويدعون الى الله .

وهذا الكتاب الذى يحوى بين دفتيه قصة حياة وجهاد مجموعة من اقطاب التصوف ، يحاول أن يلقى الاضواء على فكرهم وتصورهم الذى تتوج ببلوغهم درجة التف فيها الملايين من الفقراء الى الله حولهم .. لرفعة شأن دين الله ، على اساس من كتابه الكريم وسنة رسوله ﷺ .

والكتاب هو الثالث لمؤلفه الاستاذ احمد ابوكف .. الذى اخرج للمكتبة العربية كتبًا هى : « اليهود والحركة الصهيونية فى مصر » وكتاب « آل بيت النبى ﷺ فى مصر » و« سيناء من احمس الى السادات » ، و« جلسة مع طه حسين » « وقطوف من تاريخنا القديم » واحمد ابوكف يعمل نائبا لرئيس تحرير مجلة المصور وهو واحد من الصحفيين المبرزين .

● ٦ جنيهات